المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع

غاستون باشلار

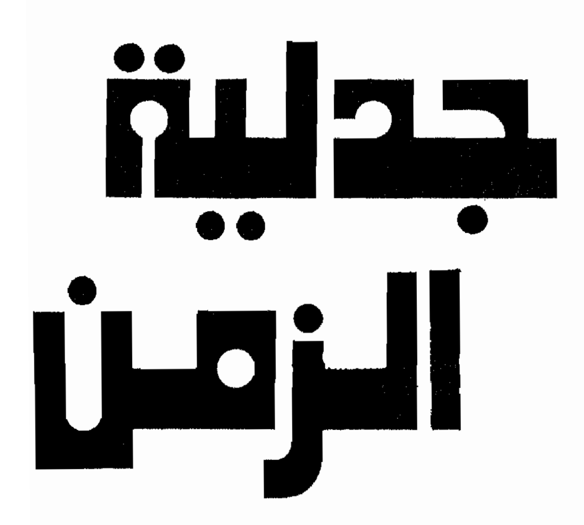
جدلية الزمن

ترجمة: خليل احمد خليل



جدلية
الزمن

غاستون باشلار



ترجمة : خليل احمد خليل

المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع

الطبعة الثالثة

١٩٩٢

المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع

بيروت - الحمراء - شارع اميل اده - بناية سلام
هاتف ٨٠٢٤٢٨ - ٨٠٢٤٠٧ - ٨٠٢٢٩٦
بيروت - المصيطبة - بناية طاهر هاتف. ٣٠١٠٣٠ - ٣١١٣١٠
ص.ب ٦٣١١/ ١١٣ تلكس LE ٢٠٦٦٥ - ٢٠٦٨٠ - لبنان

استهلال

لا يمكن لهذه الدراسة ان تتخلص من غموضها الكلي ما لم نحدّد على الفور مرماها العبيى / الماورائي : فهي تطرحُ نفسها كمدخل الى فلسفة الراحة . لكن فلسفة الراحة ، كما سنرى ذلك منذ الصفحات الاولى ، ليستْ فلسفة لكل راحة . فليس بمستطاع الفلسفة ان تسعى وراء الطمأنينة بكل هدوء . انها تحتاج الى براهين ما ورائية لكي تسلِّم بالراحة بوصفها حقاً من حقوق الفكر : ويلزمُها عدَّةُ تجارب ومساجلاتٌ طويلة حتى تتقبَّل الراحة بوصفها احد عناصر الصيرورة . اذاً سيكون من واجب القارىء ان يغفر الطابع التوتري المشدود ، لكتاب يكثر من استعمال النصائح والامثلة المألوفة لكي يمضي مباشرة الى الاقتناع بان الراحة مكتوبة في قلب الكائن ، وانه ينبغي علينا ان نشعر بها في صميم كياننا بالذات ، وحتى في مستوى الواقع الزماني الذي يستند اليه وعينا وشخصُنا .

لكن بعدما يستميحُنا القارىء عذراً ، ويغفر لفيلسوف تعوزُه البشاشة . سيكون من واجبه ايضاً ان يواجه تحرُّراً آخر من الاوهام . ففي الحقيقة ، لم نتمكّن في هذا الكتاب من الاعتقاد انه من واجبنا وصف الافق / المنظور الذي يؤدي الى الحياة السرية والهادئة . ولربما كان يلزمُ لذلك صفحاتٌ وصفحات وعلمُ نفس كامل يتناول الأهواءَ

التي فقدنا ذوقَ دراستها ، لإننا نرى لزاماً علينا ان نمتهن التنديد بها . وعليه ، يمكننا الافادة من العصر السعيد حيث عاد الانسانُ الى ذاته ، وحيث ينشغِلُ التفكير بتنظيم اللافعل اكثر من اشغاله بخدمة مستلزمات خارجيَّة واجتماعية . واما كل ما يتصل بالابتعاد عن العالم ، وبالدفاع عن الحياة المكرَّرة ، وتوكيد التوحُّد الخلقي ، فقد تركنا دراسته جانباً ، نظراً لإنه بدائيٌ جداً . فليخطُ كلٌ منا خطاه الاولى ، على منواله الخاص ، فوق الطريق المفضي الى ينبوع سيلوي Siloe ، الى ينابيع الشخص ذاتها ! وليتحرَّر كلٌ منا على طريقته ، من المثيرات العرضيَّة التي تجتذبه خارج ذاته ! ففي الجزء اللاشخصي من الشخص يجب على الفيلسوف ان يكتشف مناطق الراحة واسباب الراحة التي سيكوِّن بواسطتها منظومة فلسفيّة للراحة . وان الكائن سيتحرَّرُ ، بالرويَّة الفلسفيّة ، من البارقة الحياتية التي تجرُّه بعيداً عن الغايات الفرديَّة ، والتي تنفقُ ذاتها في افعال محدودة . وسوف يظهر لنا العقلُ ، معاداً الى مهمته النظريّة ، كأنه قوّةٌ تنشيء الترفية وتثبّتُهُ . واما الوعيُ المحض فسوف يتجلّى لنا كقوةٍ ارتقابٍ وترصُّد ، كحرّيةٍ ورغبةٍ في عدم الاقدام على اي شيء .

على هذا النحو ، توصَّلنا بوجه طبيعي تماماً ، الى فحص القوى النافية للروح . وهذا النفي ، فحصناهُ من جذوره على الفور ، فوجدناه يعترفُ بان الروح كان يمكنُـهُ صدمَ الحياة ، ومعارضةَ العادات المتأصّلة ، وجعل الزمان بطريقةٍ ما ، ينعكسُ على ذاته فيحدثُ تجدُّدات في الوجود ، وعودات الى الشروط الاوليّة . لماذا لا نعتبر ان الافعال السلبية والافعال الايجابية مهمّةٌ ايضاً ؟ بما اننا كنا نزعم المضي بأسرع ما يمكن الى الصميم الماورائي للمسألة ، فقد كان لا بد من تأسيس جدلية

الوجود في الزَّمان . والحال ، منذ ان تمرَّسنا قليلاً ، من طريق التأمل ، في فراغ الزمن المعاش من امتلائه الفيضي ، تمرّسنا في سلسلةٍ شتى تصاميم الظواهر الزمنية ، لاحظنا ان هذه الظواهر ما كانت تدوم جميعها بالطريقة نفسها وان مفهوم الاشياء ما كان يمكنه التطابق الا مع نظرةٍ إجماليّة تختصر التنوُّع الزّمني للظواهر اختصاراً سيئاً . فعالم النبات الذي قد يحصرُ علمَهُ في القول ان جميع الازهار تذبلُ ربما يكون المنافس الخليقَ بالفيلسوف الذي يؤسس مذهبَهُ وهو يكرِّرُ : كل شيء يجري والزمان يهربُ . ولقد رأينا بسرعةٍ انه لا يوجد ايُّ تساوقٍ بين هذا الجريان للأشياء وهروب الزمان المجرَّد ، وانَّه كان ينبغي درسُ كل من الظواهر الزمنيّة وفقاً لوتيرة / إيقاع مناسب ، وبمقتضى وجهة نظر خاصة . كما رأينا ان علم الظواهر (الفنومنولوجيا) المنظور اليه في سياقه ونطاقه ، ومن اي مخطط من مخطّطاته وبشرطِ الحفاظ على مستوى الفحص ذاته ، قد تضمَّن دائماً ثنائيّة الحوادث والآماد . والخلاصة ان الزَّمان ، مأخوذاً في تفاصيل مجراه ، هو دائماً زمان دقيق وعيني مملوء بالثغرات .

ربما يجب ان تكون مهمّتنا الاولى ـ مقابل اطروحة التواصل البرغسونيّة ـ ان ننشىء ميتا فيزيقياً وجود هذه الثغرات في الزمان . اذاً ، كان يلزمنا البدء بمناقشة البحث البرغسوني الشهير حول فكرة العدم ، والشروع في تعيين التوازن بين الانتقال من الوجود الى العدم ومن العدم الى الوجود . ولقد كانت هذه القاعدة ضروريّة لإرساء التعاقب بين الراحة والفعل .

هذا السجال ليس عبثياً في رأينا ، لإننا حين نعتمدُ على تصوُّر جدلي للزمان ، انما نُسهِّلُ كما شرعنا في تبيان ذلك من خلال سلسلة من

الفصول ، حلَّ المسائل المطروحة من طرف العليّة النفسانيّة او بوجه ادقّ من طرف العليّات / السببيّات النفسانيّة . واننا حين نفحصُ شتى تصاميم تسلسل الحياة النفسية ، ورقةً ورقةً ، نلاحظُ الانقطاعات في النتاج النفساني . فاذا كان ثمّةَ تواصلٌ . فهو غير موجود ابداً في التصميم الذي يجُرى فيه فحصٌ خاص . مثال ذلك ان « التواصل » في فعالية الدوافع الذهنيّة لا يكمن في التصميم الذهني ؛ اننا نفترضها في تصميم الاهواء والغرائز والمصالح . اذاً التسلسلات النفسانيَّة هي في الغالبِ فرضياتٌ . والخلاصةُ في رأينا ان التواصل النفساني يطرحُ مسألةً ويبدو لنا من الممتنع عدم الاعتراف بضرورة تأسيس حياة مركّبة على تعددية للأزمان ليس لها الوتيرة نفسُها ولا متانة التسلسل ذاتها ، ولا حتى قوة التواصل عينها.

بالطبع اذا تمكّنا ان ننقل للقاريء اقتناعنا بأنَّ التواصل النفساني ليس معطىً وانما هو مُنجزٌ فسيبقى من واجبنا ان نبيّنَ كيف ينبني زمانٌ ، وكيف تتأسس ديموماتُ الوجودِ على مستوى شتى صفاته ومحمولاته .

هناك مذاهبُ شتّى شجعّتنا في هذه المهمة الصعبة . تشجّعنا اولاً بمذهبٍ حيٍ يُعلِّم على امتداد طرقات بورغون ، في طرف الكروم . فأمام هذا الريف المُؤنسَن ، جعلنا السيد غاستون رونبيل نفهم التوافق البطيء بين الاشياء والأزمان ، بين فعل المكان في الزمان ورد فعل الزمان على المكان . وان السهل المحروث يرسمُ لنا صوراً من الزمان شديد ، الوضوحِ مثل صور المكان : وهو يبيّنُ لنا وتيرة الجهود الانسانيّة . ان الثَّلمَ هو المحور الزمنيّ للعمل وان راحة المساء هي حدُّ الحقل . ولكم يسيءُ التعبيرَ عن هذه القوالب الزمنية زمانٌ منسكبٌ من موجة متواصلة ومنتظمة ! وكم يجب ان يظهرَ مفهوم الوتيرة اشدَّ

واقعيّة . من حيث هو أساسٌ مرتكزٌ للفعالية الزمنية !

ويعلّمنا السيد غاستون رونبيل ايضاً عن الماضي التاريخي : ما الذي يستمر ، ما الذي يدوم ؟ هذا وحدهُ هو الذي يملك اسباب معاودة البدءِ . وهكذا الى جانب الزمان من خلال الاشياء ، هناك الزمان من خلال العقل . والحالُ كذلك هو على الدوام : فكل زمانٍ حقيقي هو في جوهره متعدّد الاشكال : وإنّ الفعل الحقيقي للزّمان يتطلّب غنى التطابقات ، وتآلف المجهودات الإيقاعية . وإننا لن نكون كائناتٍ مكوَّنةً بشدة وبقوة ، تعيش في راحة مضمونةٍ تماماً ، ما لم نعرف كيف نعيشُ وفقاً لإيقاعنا الذاتي ، مستعيدين كما يحلو لنا لدى اقل تعب وأدنى شعور باليأس ، الدافع المثير لأصولنا . وهذه ما تمثّله تُّرهة سيلوي الجميلة التي تعلّمنا كيفَ نستعيدُ ، بشجاعة وارادة وعقل ، نفسَنا من اعماق الماضي . ولقد درسنا هذه التُّرهة / الاسطورة في كتابٍ خاص(1) . اذاً ، لن نعودَ الى ذلك : لكنَّهُ طبع فكرنا بطابعهِ القوي الى حد انه توجَّبَ عليناااستذكارهُ في استهلال هذا العمل الجديد .

فاذا ما يدوم اكثر هو الذي يعاود بدءه بشكل افضل ، فسوف يتوجّب علينا بذلك ان نجد في طريقنا مفهوم الايقاع / الوتيرة كمفهوم زمني اساسي . وهكذا توصّلنا الى طرح إطروحةٍ متناقضة جداً في ظاهرها لكننا سنبذل قصارانا لجعلها شرعيّةً . وسببُ ذلك ان ظواهر الزّمان مبنيّة مع هذه الايقاعات ، دون ان تكون هذه الايقاعات قائمة ، ضرورةً على اساس زمني وحيد الشكل ومنتظم . ومن هذه

---

(1) L'intuition de l'instant , Etude sur la Siloé de M . Gaston Roupnel , Stock , 1932 .

الزاوية استطعنا التوصل الى بضع صفحات مكثّفة مستفيدين بوجه الخصوص من التعاليم الواردة في مؤلفات السيدين موريس عما نوئيل وليونيل لا ندري وبيوس سرفيان . ولقد اخترنا هذه المؤلفات لكي ندافع عن اطروحة غيبيّة وذلك بالذات لإنها لا تنشدُ اية غاية غيبيّة . فبدى لنا انها قد تكون قادرةً على مساعدتنا ، بشكل طبيعي اكثر ، في استخلاص السمة الرمزيّة الجوهرية التي يتّسم بها تواصلُ الظواهر الزمنيّة . اذاً ، لاجل الديمومة يجب الوثوق في الإيقاعات / الوتائر ، اي يجب الاستنادُ الى منظومات الآنات . ولا مناص للحوادث الخارقة ان تجد في نفوسنا ترجيعاتٍ من شأنها ان تطبعنا في العمق بطابعها . وفي نهاية المطاف سيمكننا ان نجعل من هذا القول الشائع « الحياة تآلف وتناغم » حقيقة جريئة . فبدون تناغم ، بدون جدلية منتظمة ، بدون وتيرة / ايقاع ، لا يمكن للحياة وللفكر ان يكونا مستقرين واكيدين : ان الراحة تموّجٌ سعيدٌ .

منذ عدة سنوات تلقينا اخيراً عملاً سرياً هاماً لم يكن قد ظهر ، حسب معلوماتنا في المكتبات بعد . هذا العمل يحمل هذا العنوان الجميل ، المشرق والموحي: التحليل الايقاعي La Rythmanalyse (1) ولدى ممارسته ، توثّقت لدينا القناعة ان في علم النفس مجالاً ومكاناً لتحليل ايقاعي بنفس الطريقة التي يُحكى فيها عن تحليل نفساني . فلا بد من شفاءِ النفس المعذّبة ـ وبخاصة النفس التي تشكو من الزمن ، من السأم ـ بواسطة حياةٍ موزونة / ايقاعية ، وبفكر ايقاعي ، وبانتباه

(1) مؤلفة لوسيو البرتو بينهيرو دوسانتوس ، استاذ الفلسفة في جامعة بورتو (البرازيل) ، والكتاب من منشورات « جمعية علم النفس والفلسفة في ريودي جانيرو » ، 1931 .

وراحة ايقاعيين . ويقتضي اولاً تحرير النفس من الديمومات الزائغة ، من الاوقات السيئة ، ويقتضي تفكيكها زمنياً . ففي عصر نوڤالي وجان ـ بول ـ ريتشر ولافاتير ، كانت الموضة تفكيك نظام النفسانيات المتحجّرة في اشكالٍ من الحياة العاطفيّة العرضيّة ، لا قوّة لها في الواقع لتوصل الى حيواتٍ جمالية وادبيّة (1) . لكن هذا التفكك في النظام ، المبتدىء على الصعيدِ العاطفي ، ما يزال في نظرنا فاضحاً وفاحشاً . وهنا ايضاً حاولنا ان نتابع ، لاحقاً ، فلسفتنا الخاصة بالسلبية ، وان نصبّ جهودَنا التفكيكيّة حتى تطول النسيج الزماني ، فنخرّف الإيقاعات السيئة ، ونهدّيء من الايقاعات الاكراهيّة ، ونحرّض الايقاعات الشديدة الوهَن ، ونبحثُ عن توليفات الوجود في تآلف الصيرورة ، واخيراً نحرّك الحياة كلها الحياة المتموّجة بحكمة من خلال الطوابع اللّطيفة للحرية الفكرية . واحياناً اكتشفنا في ساعات سعيدة ونادرة جداً ، ايقاعات طبيعية ولطيفةً وهادئةً اكثر . وخرجنا من جلسات التحليل الايقاعي هذه مطمئنين . كانت راحتنا تفرح ، تتروحنُ ، تتشعرَنُ ونحن نعيشُ هذه المنوعات الزمانية الحسنة الانتظام . واذا لم نكن مهيأين تماماً لمثل هذه الانفعالات بسبب ثقافتنا الفقيرة المجرّدة ، فقد تبدّى لنا ان التأملات التحليلية الايقاعية قد جلبت لنا نوعاً من الصدى الفلسفي للأفراح الشعرية . فجأةً . نجد مقاطع ، اتفاقات وتطابقات بودليرية تماماً بين الفكر المحض والشعر المحض . فنحن لن ننتقل من معنى الى آخر . بل سننتقل من الحواس الى النفس . اذاً ربما لا يكون الشعر عَرَضاً ، تفصيلاً ، ترفيهاً عن الوجود ؟ وهل يمكنه ان يكون

---

(1) انظر مثلاً اطروحة السيد سبنلي الرائعة حول نوڤالي التي تقوّم المدى الفلسفي والاخلاقي لـ « تفكك النظام » .

اصل التطور الخلّاق بالذات ؟ وهل يكون للانسان مصيرٌ شعريٌ ؟ هل وجودهُ على الارض لكي يغني جدلية الافراح والمتاعب ؟ ان وراء ذلك كله نظاماً كاملاً من الاسئلة والقضايا التي لا نملك صفـةَ تعميقهـا ، اذاً ، حصرنا مهمّتنا في الحد الادنى . وفي فصل قصير يختم كتابنـا ، اوجزنا اهم اطروحات كتاب السيد بينهيرو دو سانتوس . محوّلين ايّاها تحويلاً لطيفاً في اتجاه فلسفةٍ مثالية حيث يمكن لإيقاع الافكار والأناشيد ان يوجّه شيئاً فشيئاً إيقاع الاشياء .

الفَصْل الأوّل

التراخي والعدم

آه . من سيخبرُني كيفَ حُفِظَ شخصي من خلال الوجـود ، وايّ شيء حملني ، جامداً ، مليئاً بالحياة ومثقلاً بالروح ، من ضفة العدم الى ضفته الاخرى ؟ » .

بول ڤاليري ، آ . ب . ث .

I

ان فلسفـة برغسـون هي فلسفـة الامتـلاء وبسيكولوجيتـه هي بسيكولوجية الممتلىء . فهذه البسيكولوجية من الغنى والدّقـة والحـركة بحيث لا يمكنُ تناقضُها ؛ فهي تمنح الفاعلية للراحة والديمومة للدور : وهي تتكفّل بأداءٍ كامل لنياباتٍ تجعل المسرح النفساني مليئاً دائماً وتكون في الآن ذاته وسائل نجاح متكاملة . في هذه الظروف لا يمكن الحياة ان تتخوّفَ من فشل مُطلق . والانسانُ ذاته ـ الذي طالما غامر وخاطر وهو يتوجّه الى العقل ـ احتفظ على الاقل بما يكفيه من الغرائـز لكي يواجـه الجهل والضلال . فهو بين قرارين متنوّرين يسيرُ بطمأنينة المُروبص . حتى انه يسير بشكل اسرع عندما لا يعلمُ الى اين يسير ، عندما يَولج امره للبارقة الحياتية التـي تتـوج جنسـه ، وعندمـا يبتعـد عن العزلـة الشخصية . وعليه تكون حياتنا من الإمتلاء بحيث انها تفعـلُ حتـى

عندما لا نفعلُ شيئاً . فهناك باستمرار وبطريقةٍ ما شيء معينٌ خلفنا ، هناك دائماً الحياة وراء حياتنا ، والبارقة الحياتية تحت دوافعنا . كما أن ماضينا بأسره يسهرُ وراء حاضرنا ، وبما أن الأنا قديمٌ وعميقٌ وغنـيٌ وملِيءٌ فهو يملك فعلاً واقعياً حقاً . ومصدرُ اصالته من اصله . فهـي ذكرى ، وهي ليست اكتشافاً ابداً . فنحـن مرتبطـون بنواتنـا وفعلنـا الحاضر لا يمكنه ان يكون منقطعاً ومجانياً : فلا بدّ له من الإفصاح الدائم عن انانا بوصفه صفـةً تعبّـر عن جوهـر . من هذه المواجهـة ، تملك البرغسونية السهولة الممنوحة لكل فلسفـة جوهـرانيّة ، كما تملك يُسْرَ وفتنة كل عقيدة استبطان .

لا ريب ان برغسون يمنع نفسه من وصف الماضي في مادة ، لكنّه مع ذلك يصوّر الحاضر في الماضي . وهـكذا تتجلّ النفسُ كشيء وراء مدّ ظواهره ؛ وهي حقاً ليست معـاصرةً لسيولـة الاشياء والظواهـر . وان البرغسونية التي اتُّهمت بالجمـود لم تستقـر مع ذلك حتـى في سيلان الزمان . لقد ابقت مكاناً للتضامن بين الماضي والمستقبل ، ابقت لزوجة الزمان ، التي تجعلُ من الماضي جوهراً للحاضر . او بكلام آخر لا يكون الآن الحاضر سوى ظاهرة الماضي ، وعلى هذا المنوال ، في علم النفس البرغسوني ، يفسحُ الزّمانُ الممتلِيء ، العميق ، المتواصـلُ ، الغنـي ، مكاناً للجوهر الروحي . وفي ايّ من الظـروف لا تستـطيع النفس ان تنفصل عن الزمان : فهي دائماً ، شأن كل سعداء العالم ، مملوكة لإنها تملك . وربما يكون التوقّف عن السيلان معناهُ التوقفُ عن الوجود ؛ فحين نغادرُ قطار العالم ، قد نغادرُ الحياة . ان التجمُّد معناهُ الموت . هكذا ، يعتقد ان القطع قد تمّ مع التصوُّر الجوهري للنفس ، وتمّ صنع الكائن الحميم من قماشٍ كامل في زمان غير قابل للتحطُّم . ان الفلسفة

النفسية Panpsy chisme لم تعـد سوى فلسفـة زمنيَّة Pan chronisme . ولم يعد تواصلُ الجوهر المفكِّر سوى تواصل الجوهـر الزّماني . ان الزمانَ حيّ والحياةُ زمانيّة . ولم يحدث ابداً قبل برغسون ان تمّ وضع التعادل بين الوجود والصيرورة على هذا النحو .

الا انه ، كما سنرى لاحقاً بشكل مطوَّل . تعتبر القيمـة الخلاّقة محصورةً ، في نظر البرغسونيّة ، في واقعة التواصل الأساسي ذاتها . فلا بد من ترك وقت للزّمان حتى ينجزَ عمله . وبشكل خاص لا يستطيعُ الحاضرُ ان يفعل شيئاً . بما ان الحاضر ينجزُ الماضي مثلما التلميذ ينجزُ حل مسألة مطروحة عليه من قبل معلّم ، فإن الحاضر لا يستطيعُ خلقَ شيء . فهو لا يستطيع إضافة الوجـود الى الوجـود . وفي هذا المجـال تكوَّنت البرغسونيّة ايضاً وفقاً لحدس الامتلاء . فبنظر هذه المدرسة ، تسير الجدلية دائماً ومباشرةً من الوجود الى الوجود دون افساح المجال امام العدم . ولقد اصاب جانكليفتش عندما اقترح ان يوضع البحثُ الشهير عن فكرة العدم في اساس الفلسفة البرغسونيّة . نعلم ان برغسون يرى ان فكرة العدم هي في النهاية اغنى من فكرة الوجود وذلك للسبب الآتي وهو ان فكرة العدم قد لا تتدخّل ولا تتبلورُ الا بزيادة وظيفـة اضـافية للإعدام على شتى الوظائف التي نطرح الوجود بواسطتها ونصفُهُ . اذا ، فكرةُ العدم في نظر برغسون تعتبـرُ وظيفيّاً اغنـى من فكرة الوجـود . وعليه . بخصوص معرفتنا لذلك ، لا يمكن لإي جوهر ان يكون فارغاً او فيه فراغ ، ولا يمكن لاية معزوفة ان تكون مقطوعةً بصمت مطلق . . وعلى نحوٍ ما ، تغدو جميع امكانات الفـكر والفعـل البشريين حتماً من مواصفات لا محمولات الجوهر المُعتبر ، مع الإحاطة بعقيدةٍ ذكيّةٍ للعزو السلبي . وفي الواقع ، هل نتوصّل من ثمّ الى إنكار صفة منسوبة الى

الجوهر اولاً ؟ عندئذٍ ربما نعبّر عن عدم حسابنا اكثر مما نعبّر بالحريّ عن عجز في الجوهر . ان الجوهر المنظور اليه هكذا بوصفه جملة امكانات ، يعتبر غير قابلٍ للنفاد . فالممكن لا يفشلُ ابداً من حيث هو ممكنٌ لإنه يظلُّ ممكناً ، وكذلك المرجّح ، بصرف النظر عن النكسات او النجاحات ، المرجّحُ الموزون جيّداً من حيث هو مرّجح انما يحتفظُ دائماً بقيمته الصحيحة . اذا ، للممكن وللمرجّح تواصلٌ كاملٌ ، وبهذا يكونان بشكل دقيقٍ جداً من الصفات الروحية للجوهر كما يتبدّى للتحليل ، في مسألة المعرفة . ولن تُفهم جيّداً دلالةُ ومدى النقد البرغسوني الدقيق ، الا اذا وقفنا بعناية في المضمار المثالي لمعرفة الوجود ، دون ان نهبط بسرعة الى المجال الوجودي (الانطولوجي) . عندئذٍ سنرى كل اهمية الحكم الإشكالي . ففي هذه النظرات ، يكونُ الممكنُ ذكرىً واملاً . فهو ما عرفناه بالأمس وما نأمل استرداده . وهو بذلك جديرٌ ان لم نقُل بسدٍّ منافذ الوجود . فعلى الاقل جدير بملء التفاصِلات / والانقطاعات في معرفة الوجود . وعلى هذا النحو يحضُرُ الحوار المتصل ابداً بين الروح والاشياء ، وهكذا تتكوّن القاطرةُ المتواصلةُ التي تجعلنا نشعرُ بالجوهر في ذاتنا ، على مستوى الحدس الحميم ، على الرغم من تناقضات الاختبار الخارجي . فعندما لا اعترفُ بالواقع ، فذلك لانني مُستَغرَقَ في الذكريات التي طبَعَها الواقع ذاته في نفسي ، ولإنني استدرتُ نحو ذاتي . وليس هناك ، في نظر برغسون ، ايّ تموّج ، اية لعبة ، اي انقطاع ، في تعاقب المعرفة الحميمة والمعرفة الخارجية . انني افعل او افكّر ؛ اكون شيئاً او فيلسوفاً . وانني ، من خلال هذا التناقض بالذات ، اكونُ متواصلاً .

ان بسيكولوجية تناقص التوتر النفساني ، حسب اطروحة

برغسون ، ربما تستوجبُ الملاحظات نفسها التي استوجبتها بسيكولوجية الدثور / الانعدام ، نظراً لإن الشعور بان توتراً يخفضُ ويبقى مع ذلك متماثلاً مع ذاته ، هو شعور صنعي وخادع مثل الفكرة التي يمكننا تكوينها عن عدم مطلق . فالنقصان ، بنظر برغسون ، يعني دائماً تغييراً في الطبيعة . وعليه تتغطّى الماهيَّة الجوهرية بما لا يتناهى من الصفات ، بتنوّع كبير ، ويكون لكل درجات الوصف قوة وصفية متساوية . وعلى الفور تنتقل روعةُ دقائق ولطائف التحليل النفساني الى مرتبة غنى النفس . فيسجّلُ عالم النفس انفعاليةَ تحليله الدقيق في حساب القيمة الحسية لمشاعرنا . ان التدقيقَ بمثابة اللّون في نظره . وعندئذٍ نشعرُ بان النفسَ البرغسونيّة لا يمكنها التوقُّف عن الشعور والتفكير ، وبأنَّ المشاعر والأفكار تتجدَّدُ على سطحها بلا هوادة ، وتدغدغ ، في موجة الزمان ، مثلما يدغدغ ماءُ النهر المُشمِس .

وان ما يخلقُ به ايضاً ان يزيدَ من هذا الشعور بالامتلاء الذي تمنحنا اياه البسيكولوجية البرغسونيّة ، انما هو الطابع التكاملي لبعض التعارضات بالضبط . فلا يكون غيابُ شكلٍ ما يعني آلياً حضور شكلٍ مختلفٍ فحسب ، بل ان العجز في اداء مهمةٍ يقود بكل تأكيد الى إطلاق العنان لمهمةٍ تسير بعكس اتجاه الاساليب القديمة المهزومة . وبدون هذا التصويب الفوري لمهمة بأخرى ، ربما يبدو ان الوجود قد يبطلُ ان يكون مفيداً ، مجدياً لذاته . فمن شأن نكسة جوهرية ان تكسر الوجود . ان تقطع صيرورته المتضافرة كلياً مع الوجود . اذاً يجبُ ان تبقى النكسة جزئيةً ، سطحية ، قابلةً للتصويب . ولا يجوز لها ان تحول دون النجاح المتواصل والعميق للوجود . إن هذا النجاح الغيبي بالمعنى الدقيق للكلمة ، يكون مكفولاً تماماً بحيث ان النكسة في سبيل تكون

معوَّضة كلياً بالنجاح في سبيل آخر . وثمة في النظرية العامة للبارقة الحياتية مذهبٌ كاملٌ عن التعويضات الوجودية ، يسوّغُ للفرد وللنوع بشكل خاص اشد المبادرات تعاسة وبؤساً . فلا شيء اكثر برغسونيةً من هذه الفكرة عن تعدُّد الوسائل المختلفة لبلوغ الغاية نفسها . ان هذا التعدّد يمنحُ قيمة ايجابية مكفولة لكل محاولة ، لكل بحث ، لكل تطلُّع . ولا يكون خطرُ الحياة مطلقاً ولا مشروطاً ابداً . وان برغسون ، الذي طوَّر تحليلات بالغة اللطافة والدّقة حول الخطر الذي يعانيه العقل ، علَّم باستمرار ان هذا الخطر يلعبُ دورَهُ تحت ضغط الظروف ، في النضال لاجل الحياة ، محتفظاً بارتكاز على الماضي مثلما يرتكزُ على اساس متين ، وسائراً وراءَ الرغبة في بلوغ الراحة ، الأمن ، الهدوء ، مع الطموح السرّي للوجود حتى ينال مزيداً من الزّمن . كما علَّم دائماً بان الغريزة كانت وراء العقل ، تحتفظ بوجودها . ومن شأن الغريزة ان تفرض الحذر في الواقع ، وهو حذر بنوع ما مُتنبه ، وهذه وظيفة ايجابية للحياة النفسية ، قادرة على وضع الوجود موضع الترقُّب دون تحطيمه . ولا ريب ان برغسون حين يعودُ الى تجاسرات البارقة الحياتية ، يبينّ بجلاءٍ ان اعظمَ نجاح يكونُ من جانب اعظم مخاطرة ، ولكننا نؤكد مجدَّداً انّ للمخاطرة ، في نظره ، سبباً ، وانّ لها هدفاً ، ومهمةً ، كذلك للمخاطرة تاريخُها ، تطوّرها ، منطقها ، وألف ضمانة من النوع التجريبي والعقلاني التي تثبّتُ تواصلَ الحياة الملأى بالمغامرات . وان كل هذه الاطروحات ، كما نراها ، لا تذهبُ مع ذلك الى الجوهر الميتافيزيقي للمخاطرة . وان الفيلسوف لم يكتب شيئاً حول الخطر وفي الخطر ، حول الخطر المطلق والكلي ، حول الخطر بلا غاية وبلا سبب ، حول هذه اللعبة الغريبة والمثيرة التي تجرُّنا الى تحطيم

امنّنا ، سعادتنا ، وحُبنا ، حول الدوار الذي يجتذبنـا الى الخطـر ، الى الجديد ، الى الموت ، الى الدثور . وبالتالي فإن فلسفة البارقة الحياتية لم تستطع ان تعطي معناها الكامل لما سنطلقُ عليه اسم النجـاح المحض كياني للوجود ، نعني للخلق المتجدّد للوجود بذاته ، في الفعل الروحي للوعي في صورته المجانية كلياً ، بوصفه مقاومةً لنداء الانتحار ، بوصفه انتصاراً على غواية الدثـور والعـدم . ان البرغسـونية وضعـت نفسهـا منهجياً امام تطور الانواع : فوجد الفعل الحـرُّ للفـرد ، الـذي بيَّنـت البرغسونية معناه ومكانته افضل من اي مدرسة اخرى . انه بطريقةٍ ما فعل مُلغىً من مجمل تطور النوع ، وفي نهاية الامر ،يبدو الفعل الحرُّ ، في البرغسونية انه يفتقر الى هذه السببيَّة الفكرية الخالصة التي تجمع بلا خفض او طرح : انـه يظـلُّ حدثـاً عارضـاً . وان اطروحـة التطـور الخلاّق ، المؤسسة على هذا التطور الطويل المظلم والموحش الـذي هو التطور البيولوجي الاحيائي ، المحض ، استبعـدت إذاً ما يتوافـقُ مع ارادة التهديم ، مع الصراع لأجل الصراع . وفي المقام الاول ، نسبت لِلوجود تواصلاً تطورياً ، وللنوع حياةً متواصلةً من البذرة ، وللمصير الحي بارقة لا تتوقف ابداً ، لإن انقطاعاً يكسر بكل تأكيدٍ بارقةً اكثر مما يكسر شيئاً . اذا هذه دائماً وفي كل مكان هي الفكرة الاساسية التي تقودُ الفكرَ البرغسوني : الوجود ، الحركة ، النوع ، الزمان . لا يمكنُها ان تتقبل النواقص والثغرات ، ولا يمكنها ان تكون موضع انكار وتجاهل من جانب الدثور ، الراحة ، النقطة ، اللحظة ، اوعلى الاقل ، تكون هذه النافيات محكومةً بأنّ تظلَّ غير مباشرة ولفظيَّة ، سطحيَّة وثانويّة .

باختصار ، سواءً كان هذا في حدسنا للزمن ان في تصوّراتنا للوجود او ايضاً في اداء مهامنـا ، فإننـا مقبلـون ، في نظـر البرغسـونية ، على

تواصلٍ فوري وعميق لا يمكنهُ ان ينقطع الا سطحياً ، من الخارج ، من الجانب ، من اللغـة التـي تدَّعـي انهـا قصفُـهُ . ان الانقطاعـات التجزئة ، النفي ، لا تظهر الاّ كأساليب لتسهيل العرض : وهي نفسانياً تقعُ في الفكرِ المفصح عنه ، لا في صميم النفسانية ذاتها . ولم يحاول برغسون جعل الجدلية تردُّ بأفعالها على صعيد الوجود ، ولا حتـى على صعيد المعرفة الحدسية والعميقة ؛ فظـنَّ ان الجـدلية لم تكن تتجـاوز محاورة النفس والواقع وان التجربة التي تنطلق من الاشياء الى الأنا . كانت لعبة صـور تحتفظَ بتناسق ملموس .

هاكم اذاً ، كما نرى . كيفية التمـكن من رسـم السمات المميزة باختصـار للترابـط الميتافيزيقـي بـين اللاوجـود والوجـود في صميم البرغسونيّة . ويجب علينا الآن ان ننتقل الى انتقاد هذه المدرسـة حول هذه النقطة الخاصة . وبما ان النقد يُضاءُ بحدوده ، بعبارته ، فلنقُلْ على الفور ان البرغسونيّة قد نتقبّل منها كل شيء ما عدا التواصل . وحتى اننا نقـول ، لكي نكون اكثـر دقّـة ، ان التواصـل من وجهتنـا ـ او التواصلات ـ ايضاً ، يمكنهـا ان تتجلىً بوصفهـا سماتٍ ومـزايا للحياة النفسيّة ، ولكننـا لا نستـطيع مع ذلك ان نسلّـم بهـذه السمات كأنهـا مكتملة ، راسـخة ، ثابتة ودائمـة . فلا بد من اسنادهـا ، بحيث ان تواصل الزمان لا يتجلىً ، في نهـاية المطاف ، امامنا كأنه معطىً مباشر بل يمثل امامنا كمسألة . وإننا نرغب عندئذ في تطـوير برغسـونية غـير تواصلية . فنبينّ ضرورة حسبانِ الزمان البرغسوني لكي نمنحهُ مزيداً من السيلان ، مزيداً من الاعـداد والأرقـام ، مزيداً من الدقّـة ايضـاً في التوافق الذي تمثّله ظواهرُ الفكر مع السمات الكميّة للواقع .

II

لا ريب ان انتقاداتنا الاولى يجب ان تنصبّ على نسق الخطاب ، حتى على صعيد الادلّة البرغسونيّة . ومن ثمّ سيمكننا الإنتقال الى الابحاث النفسانية الوضعية / الايجابية ؛ فنتساءَل عندئذٍ عما اذا كانت البرغسونية قد خصّصت مكانة صحيحة للسلبية النفسانية ، للقسر ، للقهر . وعندما سنكون على هذا النحو قد عمّقنا بسيكولوجية الدثور / العدم ، سنسعى للقول بان الدثور يفترضُ العدم كحدٍ له ، وبالطريقة ذاتها فان الوصف يفترضُ الهيولى كحامل له . وسنرى ، من الزاوية الوظيفية التي سنضع نفسنا فيها . انه لا يوجدُ شيءٌ يضارع في طبيعيّته وفي ضرورته الانتقالُ الى الحدّ وطرح تراخي الوظيفة ، راحة الوظيفة ، لاعمل الوظيفة ، لانه يجب على الوظيفة ، بكل جلاء ، ان تتوقف عن العمل في اغلب الاحيان . عندئذٍ سنشعرُ بجدوى تصعيد مبدأ النفي / السلب حتى الواقع الزمني ذاته . وسنرى ان ثمة اختلافاً اساسياً في صميم الزمن المعاش بالذات ، وانه يجب تنشيط وتيرة الخلق والهدم ، العمل والراحة . وحده الكسلُ متآلف ؛ ولا يمكن الاحتفاظ بشيء الا بمعاودة الكسب ؛ كما لا يمكنُ البقاء الاّ بالاستئناف ، اضف الى ذلك ، من الوجهة الطرائقية (الميتودولوجية) وحدها ، هناك فائدة دائمةٌ من إجراء تقارب بين جدليّة الكيانات المتنوّعة والجدلية الانسانية للوجود واللاوجود . واننا سندفع المجهود الفلسفي اذاً الى هذه الجدلية بين الوجود والعدم ، ونحن مقتنعين من جهة ثانية انه ليس عارضاً تاريخياً كان قد وجّه فلاسفة اليونان الأوائل شطْرَ هذه المسألة . فلا مناص للفكر المحض من البدءِ برفضٍ للحياة . وان الفكر النيرّ الاول هو فكر العدم .

على صعيد الخطاب تعني الاطروحة التي يدافع عنها برغسون في التطور الخلاّق انه لا توجدُ افعالٌ سلبية حقاً ، وبالتالي لا يمكن للكلمات النافية ان تكون ذوات معنى الا بالكلمات الموجبة التي تنكرها ، ذلك ان كل فعل وكل اختبار يُترجمان حكماً ومن الوهلة الاولى في المجلى الايجابي . والحال ، فإن هذا الاستناد المتميّز الايجابي يسيء ، في اعتقادنا ، للتوافق التام بين الكلمات عندما ننقلها ، كما هو من المناسب الى لغة الفعل . ان مدركاً يتكوّنُ من خلال تجربة اختبار ، ويُحلَّلُ بواسطة الافعال . وبهذا المعنى يمكنُنا القولُ مثلاً ان كلمة فراغ المستمدة معناها من فعل فرغَ ، تتوافق مع فعل ايجابي . ومن شأن حدسٍ متنوّر جداً ان يستنتج اذا بأنّ الفراغ هو فقط التلاشي المصوَّر او المتحقّق لمادةٍ خاصة دون ان يمكننا ابداً الكلام عن حدس مباشر للفراغ . وعليه ، يكونُ كل غياب بمثابة وعي لانطلاقه . هذه هي الاطروحة البرغسونية في الصميم . والحال اذا كان صحيحاً انه لا يمكن افراغ الا ما نجده ممتلئاً اولاً ، فمن الصحيح كذلك القول انه لا يمكن ملؤ إلاّ ما يوجد فارغاً اولاً . واذا رغبنا في ان تكون دراسة الممتليء واضحةً وغنيةً ، يلزم دائماً ان تكون هذه الدراسةُ الحكاية الظرفية المناسبة لعملية الملء . وباختصار يبدو لنا انه يوجد توافق / ترابط بين الفارغ والملآن . فالأول لا يكون واضحاً بدون الثاني ، وبشكل خاص لا يتوضّحُ مفهوم بدون الآخر . واذا حُظِر علينا حدسُ الفراغ ، يكون من حقنا ان نرفض حدس الامتلاء .

إننا لم نقتنع بالاعتراضات الحديثة التي قدّمها برغسون في مواجهة الوضوح السهل للطرائق الفكرية(1) . فنرى علاقات الحدس والعقل في

---

(1) راجع برغسون. La pensée et le mouvant, p. 40, 41, 42

ضوءِ اشدّ تركيباً من رؤية التعارض المحض . فنراها تتدخل باستمرار متعاونةً . فهناك حدوسٌ في اساس مفاهيمنا : هذه الحدوس تكون مضطربة ـ وخطأً نظنها طبيعيةً وغنيّة . وهناك حدوس في إقامة العلاقة بين مفاهيمنا : وهذه الحدوس ، الثانوية اساساً ، تكون اكثر وضوحاً ـ وخطأً نظنُّها مصطنعةً وفقيرةً . فلنجيرٌ بسرعة بسيكولوجية روحٍ علميّةٍ معذّبة بفكرة الفراغ . لقد قرأت التاريخ الطويل لمذاهب الفراغ ؛ ومارست تقنيّة معذّبةٍ بفكرة الفراغ . لقد قرأت التاريخ الطويل لمذاهب الفراغ ؛ ومارست تقنيّة الفراغ الصعبة ، الفراغ القلق دائماً بإمكانات هربٍ جزئي : ولا ريب انها تعلمُ كم هو آسرٌ مفهوم الفراغ ، لإنها فجأةً وفي الحين الذي نظنُّ فيه اننا تمكّنا من تعريف فراغ المادة ، نرى ان هذا الفراغ مسكون بالإشعاع . اذاً النفس أشدُّ استعداداً من أي شخص آخر لفهم نظرية ترغب في أن يكون الفراغُ من وجهةٍ نظر خاصة هو الملآن فوراً من وجهة نظرٍ أخرى . لكن الروح العلمية لا تكتفي بهذه الآلية . فتشعر بمسألة جديدة : فتبحث او ستبحثُ عن بلوغ الفراغ في وجهتي نظر مجتمعتين ؛ وستحاول إبعاد المادة والإشعاع . عندئذ ، يغتني مفهومُها للفراغ ، ويتنوّع وبذلك يتوّضحُ . لإنه ما من عالم سيطالبُ بوضوح قبْليa priori لافكاره الاختباريّة . فهو شديد الحذر مثل الفيلسوف الحدسي . يمتاز بصبرٍ مماثل . واليكم من جهة ثانية كل ما يلزم للمصالحة بينهما في اعتبار واحد : مثلما قال برغسون تماماً ، يستلزمُ الحدسُ الفلسفيُّ تأملاً يُتَابَعُ مطوَّلاً . ان هذا التأمل الصعب ، الذي يجب تعلُّمه والذي يمكن تعلمُه بلا ريب ، ليس بعيداً عن ان يكون منهجاً استدلالياً حدسيّاً . هذا كل ما يلزُمنا لكي نسمع لانفسنا بأن نضم ، في المقام الأول ، بسيكولوجية تنوير المفاهيم الى التحديد

المنطقي لهذه المفاهيم . حينئذٍ يستتب التوازن بين التحـديد المفهومـي المتبادل بين الفارغ والملآن ، ويمكننا ان نوازن بين المفهومين النقيضين للفـارغ والملآن ، ليس بوصـفهما منطلقـين ، بل بوصـفهما عوامـل اختصار .

وبالطبع ان ذات التوافق المفصَّـل ، الاستـدلالي ، يستتـب بـين الوجود والعدم عندما نرغب تماماً في معايشة التأرجح الجدلي بين التحقق والدثور . فاذا زعمنا اننا نعتمدُ على جدلية منطقيّة . جدلية مباشرة ، آخذين على الفور الوجود والعدم بوصفهما اشياء جاهزة ، فسوف نقع تحت ضربات النقد البرغسوني . وبالواقع ، هنـاك نقصٌ فادح ومثيرٌ جداً في التـوازن بـين المفهومـين المأخـوذين كبديلـين لواقعـين ! الا يتكشَّفُ ، بشكل جليّ ، ان العدم لا يمكنُه ان يكون شيئاً ؟ وان الراحة لا يمكنها ان تكون نوعاً من الحركة ؟ ثم اليسَ من البينّ ايضاً ان الوجود خيرٌ متحقِّقٌ ، وانه اصلبُ الاشياء وامتنُها ؟

لكننا لن نسترسل في الجري وراء اختيارٍ قبْلي وسوف ندفع خصومَنا باستمرار الى ان يضطروا هم ايضاً لطرح الوجـود ، استـدلالياً ، على مراحل . فبأي حقٍ يؤكد على الوجود بوصفه كتلةً ، خارج التجربـة وفوقها ؟ اننا نطالبُ بالبرهان الوجودي الكامل ، البرهان الاستـدلالي على الوجود ، الاختبار الوجودي المفصَّل . ونريد ان نلامس بأصبعنـا الجروحَ واليدَ . ان معجزة الوجود تماثل في غرابتها معجزة البعث . فلم نعد نكتفي بعلامةٍ حتى نعتقد في الواقع بأن خصومنا لا يكتفون بنكسةٍ حتى يعتقدوا بدمار الوجود . واننا سنجعل من هذا الاشتراط الوجودي عصباً لمساجلتنا . زدْ على ذلك اعتقادنا اننا بهذه الطريقة نطرحُ المسألة في مضمارها الحقيقي: اليستْ المعرفة جدالاً وسجالاً في اساسها وجوهرها ؟

III

عندما قارن برغسون بين الحُكمين : هذه الطاولة بيضاء ـ هذه الطاولة غير بيضاء ـ انما شدَّد من جهةٍ على الطابع المحدَّد والمباشر للحكم الأول ، ومن جهة ثانية شدّد على الطابع اللامتعينّ واللامباشر للحكم الثاني . وبذلك يضعُ الحكم الثاني تحت برج مساجلة كلاميَّة محكوم عليها بأن تظل عاجزة أمام الحدسِ الأول والحاسم . والحال ينبغي ، في رأينا ، ابدال جميع قيم التحقُّق ، فنمنح للأحكام السلبية القوة الحاسمة بشكل خاص . بكلام آخر ، نرى ان جميع الاحكام الفاعلة القوية ـ اي الاحكام التي تعينّ التزام الوعي ـ هي احكام سلبيَّة ؛ فهي ذرائعُ حاسمة في سجالٍ شديد الوطيس . وبالتالي ليس المطلوبُ ان نكرر ان الطاولة بيضاء ؛ بل المطلوب أن نكتشف أو ان نستكشف أنَّ الطاولةَ بيضاء . وليس بمستطاعنا أن نكمل ابداً باجراء استطلاع نفساني مثمر اذا اخذنا مثلاً لا يثير درسُهُ أي سجال أو مجادلة . اذاً لا تأخذوا امثلتكم من هذه الأقوال الرخوة العادية المقترنة بذكرياتٍ كسولة . ولتحاولوا اكتناه الروح / العقل في فعله الأساسي ، إلا وهو الحكم .

هل ستتخذون ، حينئذٍ ، حكماً اكتشافياً ؟ هل اكتشفتم الأضاليا الزرقاء ؟ معنى ذلك الاعتراف بانكم تتخيّلون مسبقاً امتناع هذا اللون في هذه الزهرة . ان حكمكم الاكتشافي ، حكمكم الاندهاشي ، حكمكم التعجُّبي ليس اذاً اكثر مباشرةً من اي حكم سلبي آخر . انه مسبوقٌ بالحكم العكسي ، بالاعتقاد المعكوس الفقير وغير العقلي : ليس هناك اضالياً زرقاء . . .

اتأخذون ، الآن ، حكماً ايجابياً يترجم لكم معرفة قديمة ؟ من الثابت ان هذا الحكم لا يكون فعلاً نفسانياً إلاَّ اذا كان صريحاً : فلا يجوز مغمغته ولوكه بين الشفتين ، او اجتلابه من طاحونة الكلام . ولا تنسوا اننا نتناول ادلّة الوجود ، وبكلام افضل براهين الارتباط الفعلي بين الوجود وذاته ؛ انه الوجود الموضوعي والوجود الذاتي على حدٍ سواء ، إنه وجودُكم ، عقلكم بكليّته هو الذي تدخلونه في المساجلة . لإنَّ ثمة سجالاً بسبب كلامكم الفعَّال ؛ ونظراً لبذلكم قوىً عصبيَّةً ، قليلاً من نفسكم ومن وقتكم الحيينَ ، فإن هناك شيئاً ما او شخصاً ما يعترضكم : انهم يكذبونكم ؛ وأنتم تؤكلون قولكم .

لكن ربما تفتكرون في العزلة والوحدة فتبدو لكم اقوالكم ممتلئةً وهادئةً ، قويّةً وأولى ؟ عندها تنتصرون بسهولة على الخصم الممكن الذى تتخيلونه دائماً لكن لأجل تشخيص النفي الاولي تمتم غاليله ، بعد اقتياده الى سجنه ، بعد ان جعلوه يكظم « اخطاءه » : « ومع ذلك فهي تدور » . لقد تمتم ذلك في نَفَسٍ من العذاب ، مع حقد الهزيمة ، في مساجلةٍ مخنوقة . لكن فكرَه كله كانَ ردّة فعل على الإنكارات الرسمية السابقة .

ادخلوا ايضاً في قلب طفلٍ عنيدٍ ؛ اجعلوه يسكت ، اجعلوه يكظم رغبته ، وهذه الرغبة ستعودُ معزَّزةً بالمقاومة ، متغذّيةً بالنفي ، في حكم ايجابي لطيف وقويٍّ . فلا يؤكد نفسانياً ، دائماً وفي كل مكان ، إلاَّ ما جرى إنكاره ، ما يتصوَّرُ بأنَّهُ قابلٌ للنفي . ان النفي هو السديم الذي يتكوَّنُ منه الحكمُ الايجابي الفعلي .

ربما يكون هناك اخيراً طريقةٌ لإضفاء الشرعية على اولوية الحكم

التقريري الايجابي ، لكنَّهُ ربمـا يكون برغسـونياً قليلاً جداً ، لإنـه قد يشكل اساساً لنوعٍ من الضرورة المنطقيّة : فلربما يقال ينبغي ان تبدأ المعرفة بأقوال وان تترجم فى اشكال تقـريرية مشاعـر قويمـة وأوليّة .
وبالاجمال تعني هـذه الحجة التخّلـي عن علم النفس الفعلي . علـم النفس القائم على الأدلة والتجارب . وفي الواقـع لا يعـود بامـكان البسيكولوجية العلمية ان تتحدَّث عن شعور اولي مثلما لا يستطيع علم الفلك الاستناد الى ما ورد في سفر التكوين . فنحن لا نفكـرُ بواسطة مشاعرنا الاولى ، ولا نحبُ بحساسية اصليـة ، ولا نريدُ بإرادةٍ اولى وهيوليَّة . ان بين الطفولة وبيننا المسافة نفسها ما بين الحلم والفعـل .
وبعد كل شيء ربما تكونُ غرابةُ الفكرة الاولى قائمةً على شك اوليّ ، يكون منهجياً بقدر ما يكون طبيعياً اكثر . فجأةً يبدو الحقُّ فوق ارضيَّة من الأخطاء والأباطيل ؛ ويبدو المفرد فوق اساسٍ من الرتابة ، والغواية فوق قاعٍ من اللامبالاة ؛ والتقريري فوق ارض من المتنافيات . ومنذ ان يغدو للقول معنى نفسانـي ، يكون ذلك دليلاً على انـه يـرد على المتنافيات او الجهالات السابقة . وتكون وتـيرة القـول وقفـاً على عدد واهمية المتنافيات التي يتحدَّاها .

في المحصَّلـة ، ليس القــولُ مرادفــاً قطعياً للمعرفــة الوضــعيَّة الايجابية . وهو ليس قطعياً ميزةً للامتلاء والطمأنينة . وإننـا لننخـدعُ عندما نطرحه كأنه قولٌ فوري وأوليّ . اننا لا نستطيع تأييد برغسـون عندما يريد ان يحلَّ بتوازن جدليّة الاحكام الموجبة والسالبـة ، فيمـلأ الفكر ، بطريقةٍ ما ، بالقيم الايجـابية التقـريرية ، الممتلئة والكاملـة بدورها . بل الأحرى اننا سنقطع التوازن في اتجاهٍ معاكس ، مهما تكُنْ دهشتنا من القيمة النافية السالبـة ، لكل معرفـة راهنـة فعـلاً . ففـي

الواقع ، يجب ادراك الحياة النفسانية في افعالها ، في امواجها ، وليس في مصدرها الإفتراضي والشحيح دائماً . فكل معرفة تؤخذ في لحظة تكوّنها هي معرفة سجاليّة ؛ ولا مناص لها من التحطيم اولاً حتى تفسح المجال امام بناءاتها . وغالباً ما يكونُ التحطيم كلياً ويكون البناء ناقصاً دائماً . ان الايجابية الواضحة الوحيدة لمعرفةٍ ما تبرز في وعي التصويبات اللازمة ، في الفرح الناشيء عن فرض فكرة . وبدون ان نذهب حتى الى الاصل السجالي للمعرفة ، يمكنُ لكل علم نفس السجال والجدال والنقاش المهذّب ان يبيّنَ لنا التموُّجاتِ عينها ، تموّجات الفكر الجدلي الملطَّفة والأكثر تباطؤاً . هنا ايضاً ينبغي رسم صورة خلفية ، بصبرٍ وتؤدة ، للفكر الايجابي والنيرّ . ولقد سجّل شو بنهاور ذلك بملاحظة عبقرية(1) : « لكي نجعل شخصاً آخر يسلّم بالتناقض الذي نواجه به افكارَهُ ، ليس لدينا ما هو انسب من هذه العبارة : لقد كنتُ في الماضي من هذا الرأي ايضاً ، ولكن « الخ » . انه التظاهر بالقبول في سبيل الدحض ، النقض الافضل ، فالمحادث « يقيَّدُ » لكي يُصغي . ان في ذلك سلوكاً تواصلياً يشير بشكلٍ كافٍ الى الانقطاع الفعلي . زدْ على ذلك ، ان حكماً ايجابياً تظاهرياً الا يعتبرُ من اعظم نجاحات السلبية البسيكولوجيَّة ؟ ثم ان اعطاءه قيمة ايجابية مليئة اليس نوعاً من الخداع وتقليداً للجهل العالم الذي يتظاهر به استاذُ الرياضيّات الذي يعلن ثقته للحظة في فرضيات متعارضة تقودُه الى استنتاج ممتنع الى خلف .

نملك اخيراً طريقة اخرى ، بالغة التناقض ، لدحض الاطروحة البرغسونيّة ، هي طريقةُ تعميمها . وعليه فان اضافة فكرة هدّامة

(1) شوبنهارو : فلسفة وعلم الطبيعة ، ترجمة ديتريتش ، ص145 .
Shopenhauer : philosophie et science de la nature , trad , dietrich , p 145 .

يقترحها برغسون للإحاطة بالفكرة الخاصة جداً عن العدم تبدو لنا بمثابة القاعدة لكل المفاهيم . وليس بامكاننا ان نحدّد بشكل افضل المدى البسيكولوجي لمفهوم خاص إلاّ اذا صوّرنا التحديد المفهومي الذي تكون على امتداده . والحال فإن هذا التحديد المفهومي هو تاريخ رفضنا اكثر مما هو تاريخ انقيادنا . وينبغي لمفهوم صافٍ ان يحمل آثار كل ما رفضنا ان نضعَهُ فيه . وبوجه عام ، يجب في اصل التحديد المفهومي ان تمحى الصباغات المشبوهة ، الملتبسة والمتقلّبة ، لظاهرةٍ ما ، حتى يصار الى رسم سماتها الثابتة . وان كل معرفة بيّنة تؤدي الى اندثار الظواهر ، وتراتب المظاهر ، وتؤدي بنوعٍ ما الى ان تُنسب لها مُعاملات الواقع او معامِلات اللاواقع اذا شئتم . وبذلك يجري تحليلُ الواقع من خلال المتنافيات . فما التفكير سوى غض الطرف عن بعض التجارب . واغراقها بطيبة خاطر في ظلال العدم . واذا عُورضنا بالقول ان هذه التجارب الايجابية الممحوة تستمر مع ذلك ، فجوابنا سيكون انها تستمر دون ان تلعب دوراً في معرفتنا الراهنة . عندئذٍ سنعاود استئناف المسألة واضعين انفسنا في المواجهة الوظيفية للأمور . وسنرى انه من هذه الزاوية الوظيفية المحض ، وليس من الزاوية الوجودية ، يكونُ لتصنيف الاحكام الى موجبة وسالبة ، قيمة بسيكولوجية فعليّة .

IV

من الثابت تماماً ان المفهوم ليس له معنىً ما لم يتجسّد في حكم . هذه نظريةٌ طوّرها علمُ النفس الحديث تطويراً وافراً ، ولسنا بحاجة الا لكي نستخلص منها الاستنتاجات الميتافيزيقيّة . وكما يقول جان واهل[1]

(1) Jean wahl , vers le concret , p 176 نحو الملموس . ص176 .

بطريقة مكثّفة وذكيّة : « بقدر ما يسير العقل نحو وضوح اكبر ، يحوِّل الظواهر الى عوامل » . عبثاً يحاولون ، لا ادري بأية هرميَّة منطقيَّة للمفاهيم ، ان يضعوا في وعاءٍ جامد مفاهيم لطيفة ، بسيطة ، تتميَّز بوضوحٍ داخلي ، يرقص فوقها شبحُ مفهومِ الوجود . فوجوب الوضوح لا يكتفي بجلاءٍ مباشر . ان المفاهيم تتكاثرُ ، تتنوَّعُ وهي تطبَّقُ ، وهي تتحوَّل عواملُ فكريَّة . وان الوجود الواضح يدينُ لنا بتجارب وأدلة كثيرة ؛ ولكننا لا نتقبَّله إلا بعد تأهيل متنوّع ومتحرّك ، مجرَّب ومصوَّب . وعليه فان الموجود يجب نفسانياً ان يتحوَّل . فلا يمكن التفكير بالوجود دون اقترانه بصيرورة عرفانيّة علمية . وان الوجود المعقول ، اذا اخذناهُ في توليفه الاخير ، يجب ان يكون عنصراً من عناصر الصيرورة . وسنحاول تبيانَ هذا العنصر الوظيفي في صميم العَمل ، في صميم الفعل .

بما انَّ فكرنا يعرب عن اعمال واقعية ومحتملة على السواء ، فإنه يبلغ ذروتَهُ في لحظة القرار بالذات . وبوجه خاص ، ليس هناك ايُّ تساوقٍ بين فكرة الفعل والتطور العملي للفعل . اذاً ، يشكّل انقباضُ فعلٍ ما حول اللحظة الحاسمة وحدة هذا الفعل ومطلَقهُ في آن واحد . وسوف تكتملُ الحركةُ كما نستطيعُ ، وهي مرتكزةٌ على اواليّاتٍ تحتية غير مراقبة ؛ وان المهم في السلوك الزمني هو ابتداء الحركة - وبالحري المهم هو السماح لها بالبدء . وبهذا الإذن ، يكون كلُّ فعلٍ هو فعلنا . والحال . فإن هذا الإذن ، انعكاس الفعلِ ، يُنظر اليه برمّته وكأنه تحقيقٌ لامكانيّة ، يتنامى في مُناخٍ اخفَّ والطفَ من الفعل الواقعي . ويكون التحقّق اقلّ كثافةً من الواقع . هناك اذاً ، فوقَ الزمانِ المعاشِ ، الزمان المعقول . وهذا الزمانُ المعقول اشدُّ انطلاقاً ، واكثر حريةً ، وايسرُ

قطعاً ووصلاً . وفي هذا الزمان المريَّض Temps mathématisé تكمنُ ابتكارات الوجود . وفيه تتحولُ الظاهرةُ الى عامل . واننا نُسيء وصفَ هذا الزمان حين نقول إنه مجرَّد ، لأن الفكر يفعلُ في هذا الزمان ويهيء تعيُّنات الوجود الملموسة .

لكن الإذن بالفعل من شأنه ان يتمركز تمركزاً اسهل من تمركز الفعل ذاته . اذا سنقترح اولاً مركزة العلاقات المُعلنة في حكم ، حول الفعل Verbe بدلاً من البحث عن جذورها في المحمول او الفاعل . وبهذا نعتقدُ اننا اوفياء للتعاليم البرغسونيَّة(1) . وسنقترح ثانياً ، في صميم الفعل ، في مركزه ان نقودَ العمل كلَّه الى مجلاه الحاسم والنفعي الذي يمكنُ افتراضُه آنياً كلياً اذا لم نقرِّبه من النمو الفعلي ، البطيء والمتنوِّع . بهذا نكسرُ التواصلَ البرغسوني لصالح هرم من الآنات . اذا ، بدلاً من ان تستمد اللغة جذورَها من مظهر كوني للأشياء . فانها تستمد في نظرنا وظيفتها الروحانية الحقيقية من مظهر افعالنا واعمالنا الزماني والمنتظم . إنها تُرجمان تفضيلاتنا . ومن ثمَّ سنشدِّدُ على القوة المنظِّمة للحياة الروحيّة فنلحُ بمقتضى نصيحة بول فاليري على « فن الوقت الدقيق ، فن الزمان ، توزيعه ونظامه ـ انفاقهُ على امورٍ مختارة بعناية ، لكي تغذِّيه بصفةٍ خاصة(2) . سنرى على هذا النحو ان تناسق زماننا مكوَّنٌ من توافق اختياراتنا ، وقائم على النظام الذي يوثِّق مفاضلاتنا . لكن هذا التطور بأسره لن يكون له معنًى الا اذا تمكّنا من استخلاص

---

(1) « خلافاً للتقاليد الألفيّة في الفلسفة ، لا يفكّرُ هيغل بالصفات والمحمولات ، بل يفكّرُ بالانفعال » راجع :

koyré , Hegel a Iéna , revue d'histoire et de philosopfie religieuses , 1935 , P ,445 .

(2) بول فاليري ، السيد تست ، ص28 .

جوهر مفهوم الاذن بالفعل . وهذا الاذن يتعلق بالفعل من خلال جدلية النعم والكلا . فيبدو مضافاً ، ثانوياً بالنسبة الى كل مذهب استبطـان يزعم انه يطـولُ مبـاشرةً فكراً متساوقـاً مع الحياة بالضرورة ، ضاربـاً جذورَهُ في الحياة ، ويواكبُ الحياةَ في مسيرها . ولن يكون الامرُ كذلك بالنسبة الى نظرية تقول بفكر الحياة المتحرر ، الفكر المعلّق فوق الحياة ، القادر ايضاً على تعليق الحياة . عندئذٍ سنفهم ان كل حكمٍ موضـوعٌ للمحاكمة ، وان هذه المحاكمة هي التي تحضِّرُ وتُقدِّر السببية النفسـانيّة والبيولوجية (الإحيائية) الصحيحة . ان القرار الاستثنائي يوجّهُ تطور الوجود العاقـل . وعلى مستـوى الحكم ، يكون الطابـعُ الايجابـي او السلبي اقتراناً وظيفياً ، وهذا الاقتران جوهري . ومثالُ ذلك ان الحكم الأكثر حسياً ووثوقاً وثباتاً هو انتصارٌ على الخوف والشكل والضـلال . وهو بالضرورة حكم ثانوي. كما رأى ذلك ڤون هارتمان بشكل مميز(1) « حتى ان إرادة البقاء في الحالة الراهنة يفترضُ أن هذه الحالـة يمكنها ان تبطل ، وان الخوفَ من هذه الامكانية يتحقّق : فنجد وراء ذلك نفياً وسلباً . وبدون فكرة الانقطاع والتوقف تكون ارادة التواصل ممتنعة » . هكذا يسير الفـكر : نعـم مقابـل كلا ، وكلا مقابـل نعـم ، بشـكل خاص . حتى ان وحدة موضوع تنجمُ عن اشتراكنا المطلق ، وينجـم تنوُّعهُ عن رفضنا او تشتتنا . ولن يكون بالإمكان ابداً تزويد موضوع بالوحدة دون اخذه في نطاق وحدة الفعل ، ولن يستطاع ابـداً تنـويع المعرفة التي تكوّنها عن موضوع بدون مضاعفة الأفعال التي يلتزم بها الموضوع وتصوّر هذه الافعال كأنها منفصلة مستقلّة . وبالضرورة يكون مخطط التحليل الزمنـي لفعل معقد مخطّطاً منقطعاً .

Von Hartmaun , Philosophie de l'inconscient , trad Nolen , t . I , p. 130 (1)

وبالواقع ، لا توجدُ وسائل اخرى لتحليل فعلٍ ما إلاّ بمعاودته . وعندئذٍ ينبغي ان يُعاودَ من خلال « تفكيك » ، أي تعداد وترتيب القرارات التي تكوِّنه . زدْ على ذلك انه يعتبر من الأوهام جعل الزمان يؤدي دوراً جوهرياً في فعل مركّب . ويكون من العبث اطالة الأفعال لفهمها على نحوٍ افضل ، لإننا لا نطولُ بشيءٍ ولا نلامسُ من خلال هذه الإطالة الدور الأساسي للفعل . والقولُ ان فعلاً يدوم معناه دائماً رفض وصف تفاصيله . واذا أكملنا تحليلَ فعلٍ يدوم ، سنرى ان هذا التحليل يفصحُ عن نفسه في عباراتٍ مستقلّة ، مركّزة على لحظات من المفردات اللطيفة . وحين ننظرُ الى هذه الأعمال المركبة من هذه الزاوية . فانها لا تستطيع ان تكون متلازمة ولا متواصلة . وبخصوص ما يجزيء الفكر انه ليس استخدام اجسام صلبة في المكان ، بل هو تفتيت القرارات في الزمان . فمنذ ان يُرادَ فعلٌ ما ، منذ ان يكون واعياً ، ومنذ ان يلزمَ احتياطات الطاقة النفسانيّة ، لا يمكنه ان يجري متواصلاً . فهو مسبوقٌ بالتردد ، وهو مُرْتَقَبٌ ، متمايز ، مستثار ، فضلاً عن كثير من اللطائف التي تظهر عزلتَهُ وتجليه في تموُّج جدلي . وبالتالي ، عندما يتوجَّبُ وصل الافعال ، سنرى من هذه الزاوية تفوُّقَ الروحِ على الحياة ؛ وسنرى الضرورة التي تكون فيها الحياةُ ذاتها ، للحفاظ على نفسها ، ولمجانبة كل ما يفكّكها . عندئذ سنعترفُ بـ حكمة الوظيفة . واننا حين نبحث على هذا النحو عن رابطة الحياة في وفاق الوظائف / الادوار المتعاقبة . وليس في تسلسل طاقيّ محض ، سنعترفُ باكراً بواقع نظام اللحظات الحاسمة . وسوف ننقادُ الى القول بان النظام ليس في الزمان ، وانما الزّمانُ هو تكريسُ نظام مفيذ ، وفعّال نفسانياً . ولا ريب اننا نستطيع التسليم مع برغسون بان اختلال النظام في المكان

ليس الا نظاماً غير متوقَّع وان جدلية النظام واللانظام ليس لها قاعدة مكانيَّة . الا ان انقلاباً زمنياً يكسرُ الحياةَ والفكرَ في تفاصيلهما واصلهما . اننا نموتُ امتناعاً . وهذه المرَّة ، يكونُ ، اللانظامُ واقعةً بالفعل ؛ انه عاملُ دثور وانعدام . ولكي نفكّر ، نشعر ، نعيش لا بد من إسباغ النظام على اعمالنا ، وذلك بجمعنا اللحظات / الآنات في صدق الإيقاعات ، وبتوحيدنا الاسباب لتكوين اقتناع حيويّ . لكن هذه نقطةٌ سندرسها بالتفصيل . والآن لا نريدُ سوى إعداد معارضتنا للأطروحة البرغسونيّة التي تزعم انها تضربُ جذور اللغة في الاجسام الصلبة وانها تجعل من العقل تلميذاً للهندسة المترّية . وسنحاول فيما بعد استخلاص القيمة المُحقَّقة للنظام المأخوذ بوصفه عاملاً اوَّل . اذن سنبحثُ عن اسس التواصل في جهة العمل الحكيم .

لا يكونُ العملُ ايجابياً على الدوام ، ويمكننا حتى على صعيد العمل النفساني ، في مجال الوظائف النفسانيّة ، اكتناهَ جدليّةٍ تبدِّلُ ايضاً مكانَ جدلية الوجود والعدم .

وقبل فحصنا هذه الجدلية الوظيفية ، من الضروري ايضاً أن نبينً ، عند برغسون ، انَّ امتلاء الوجود يقابلهُ العملُ الثابتُ للوظائف .

وبالواقع اننا ، من الناحية النفسانية ، نندهش حين نقرأ المؤلفات البرغسونيّة ، من العدد الصغير للملاحظات التي يحظى فيها القسرُ والمنع بعناصر تحليليَّة . فالارادة فيها ارادة ايجابية دائماً ، وارادة الحياة متواصلة فيها على الدوام ، كما هو الحالُ عند شوبنهاور . انها بارقةٌ حقاً . فالوجودُ يريد خلق الحركة . وهو لا يريد خلق الراحة .

لا ريب ان هناك وقفات ونكسات ؛ لكن سبب النكسة ، في نظر برغسون ، يكونُ خارجياً على الدوام . إنه المادة التي تتعارضُ مع الحياة ، التي تسقط مجدَّداً على الحياة المنطلقة فيتخفَّف من انطلاقتها او تحنيها . واذا كانت الحياة قادرةً على النمو في اي وسط معقول ، وتغذَّت من العُصارات الأساسية ، فإنها قد تكملُ تألّقها دفعةً واحدة . هكذا تنكسرُ الحياةُ او تنقسمُ فوقَ العقَبة . انها صراعٌ يجب فيه دائماً اللجوء الى الحيلة او الى الإلتواء . انها صورة قديمة ولدت مع الانسان العامل المسحوق تحت عبء اعماله .

لكن هذه المادة التي تعرضُ لنا عقباتٍ ثابتة وكثيرة ، هذه المادة التي ندور حولها ، التي نتمثّلها ونلفظها في مجهوداتنا الفلسفيّة لكي نفهم العائم ، هل لها في البرغسونية حقاً سمات كافية للإجابة على التنوّع المتناقض غالباً . في وظائفها ومهامها ؟ إن الامر لا يبدو كذلك . وخلافاً لذلك ، نشعر ان المادة ، في نظر برغسون متساوية تماماً مع النكسة التي تسبّبها . انها هيولى تحرّرنا من الأوهام ، وهي هيولى حساباتنا الخاطئة واخطائنا . واننا نصادفها بعد الفشل ، ولا نصادفها قبله ابداً . فهي تعينّ جوهر الراحة بعد التعب ، ولا تكونُ الراحةُ ابداً مبنيّةً بعناية على توازنٍ واقعي .

لماذا لا نتناول عندئذٍ الفشلَ بذاته . في تناقض اسباب الفعل ، في عدم اداء وظيفة كان يفترض بها ان تؤدّى ؟ ربما سيكون لدينا على هذا النحو مثالٌ عن اللاانظام الأساسي ، اختلال النظام الزماني . اختلال النظام الروحاني .

يضافُ الى ذلك انّه يكفي حفرُ بسيكولوجية التردُّد لكي يُعرّى نسيج النعم والكلاَّ . الحياةُ تعارضُ الحياةَ ، الجسرُ يلتهمُ ذاتَهُ والنفس

تفرِضُ نفسَها . ليستُ المادة هي العقبة . وما الاشياء سوى مناسبات لغواياتنا ؛ ان الغوايةَ فينا كتناقضٍ اخلاقي وعقلاني . كما ان المخافةً فينا ، قبل الخطر بكل وضوح . وكيف يمكنُ بدونها فهمُ الخطر ؟ وان اشد المخاوف يتولّد من الطمأنينة ذاتها . كان يقول شوبنهاور ؛ عندما لا يقلقني شيء ، فإن هذا بالذات يبدو مثيراً لقلقي . يكفي التخفيف قليلاً من مادية الحياة العاطفيّة حتى نرى المخافة تتموّج .

وحين لا نجسّدُ مسألةَ التكيُّف سنصلُ الى النتائج ذاتها . وعليه ، فإن المخافة المدركة في مستوى النفسية البشريّة ، في جهودنا المبذولة لأجل تحوّلنا كائناتٍ عاقلة ومتعلّمة ، نلاحظُ ان التكيُّف يخرج من حوادث حياتيّة . فهو بالحريّ ثمرةُ تطفُّل وحب استطلاع ، ثمرة اعتناء دقيق بإتمام تناغم الوجود ، وخلق التنوُّع في الوجود . لكن لهذا السبب ومن هذه المواجهة يكون حب الاستطلاع محدوداً فوراً بحدود اللامبالاة ، اللامصلحة : فالوجود يريد ان يتغيرَّ . ان الوجود الذي نجح لا يرغبُ في بقائِه على ارض نجاحه . وان حب الاستطلاع يرغي ويزبد . ومن ثم ، يقف في مواجهة فرح الوجود نوعٌ من الحاجة الى الهدم ، ونوع من حب الاستطلاع المقلوب ، المعكوس . يكفينا التدليلُ على الجانب النافي في الحياة الروحية حتى تضاء وتنجلي سماتٌ بيولوجية وبسيكولوجية كثيرة . فنشعرُ كيف يتبعثر ظلُّ الموت في الحياة ، وكيف ان نقاطاً سوداء كثيرة تطبعُ كل ما يريد ان يموتَ فينا . ونفهم ان التحليل النفسي خصّص حديثاً مكانةً هامةً لغريزة الموت ، لحب الموت ، لحاجة الضياع التي تمنح معنىً جديداً ، جدلياً جداً ، ولحاجة اللعب .

واذا كان لا بد لكل هذه الملاحظات البسيكولوجية ان تظهر ، مع ذلك ، ثانويةً وغير فاعلة ، واذا كنا لا نرى ان ما يدورُ على سطح

الوجود يرجّع صداه حتى في اصله ، فاننا نحتفظ احتياطياً بحجةٍ تبدو لنا حاسمةً . والحال ، على صعيد الفيزيولوجيا بالذات تكونُ ضرورةُ جمودِ الوظيفة واضحة وطبيعية بحيث اننا لا نفتكر في الإشارة اليها . ومن وجهة الطاقة ، تكون جميع الوظائف محدودةً بحدود العمل . وعبثاً تفترضُ وظائفُ صماء ، نائمة ، كامنة . فالتباطؤُ المحضُ هو دليل كافٍ على انعدام التواصل ! واذا انطلقنا من الوظيفة في عملها المُركَّبْ سنضطُر لكي نرى في الواقع ان الفعل حينْ يتباطأ يتخلىً كلّياً عن بعض سماته . وفي الحقيقة ان هذا التباطؤ هو هبوط على امتداد سلُم حقيقي له عدّة درجات تباينية . وفي خَر الدركات يأتي بكل وضوح دورُ الجدلية الاكثر حسماً ، قانونُ الكل او لا شيء الذي بين ريڤيرRivers اهميته بشك مطوّل في كتابه حول اللاوعي .

VI

نعتقدُ انَّ هذه الملاحظات السريعة كافيةٌ للتشديد على دور الجدلية في الظواهر النفسانيَّة لكن اليكم السبب الذي جعلنا نستذكرُ هذا الجانب الجدلي في كتاب ميتافيزيقي : فهذه الجدليّات ليست من النوع المنطقي ، كما قد يُغوى المرءُ بالظّن ، إذا تابعنا المدارس التقليدية . انها من النوع / السياق الزّمني . فهي تعاقباتٌ بعمق . وليس بامكان وظيفةٍ ما ان تكون دائمة ، ولا بد من ان تخلفها مرحلة لا وظيفة ، لا عمل ، لإن الطاقة تنخفضُ منذ ان تُنفق . وان متناقضات السلوك حين تؤخذ على مستوى ظواهر الحياة فلا بد من تحديدها دائماً بحدود التعاقب .

والحال ، فإن التنافر يكون كبيراً جداً بين الحدود اذا كان التعاقب هو الانقطاع فعلاً . فغالباً ما يقضي برغسون على هذا التنافر وعلى الفور

يظهر التعاقبُ كأنَّه تغيرٌ مائع وغامض . ومثال ذلك ان برغسون يعتبر الحدس النفساني . بصورة قبليَّة ، كأنه خيطٌ متَّصلٌ ، فارضاً وحدةً اساسية على الخارج ، وكأن التجربة لا يمكنها ابداً ان تكون متناقضة ، دراميَّة / احتدامية (1) . « ان فكراً يتبع بكل بساطة خيط التجربة . . قد يرى وقائع تعقبها وقائع ، وحالات تعقبها حالات ، واشياء تخلقُها اشياء » . ويبدو من البداهة ان الاشياء تظل كامنةً تحت الوقائع ، والأحوال وراء الصيرورة . ومع ذلك كيف لا نرى انعزال الجواهر ، المجمَّدة على نحوٍ ما حول صيغة ابعادها ! حتى في سياق الفكر الاشد تآلفاً وتماسكاً ، لا يمكننا الانتقالُ من جوهر الى آخر بواسطةِ فكرٍ متواصل وبوجهٍ اعمّ ، كيف لا نرى ان كل تمايز في المظهر وفي الهيئة هو علامة انقطاعات مطلقة . بحيث ان المتفاصل في ظاهرٍ ما هو على الفور ومباشرةً الظاهرُ من التفاصل / الانقطاع .

ان برغسون يذهبُ الى ابعد من ذلك في حدسه للتآلف الكلي . فيسلِّم ، كما قلنا في عرضنا السريع لاطروحات التواصل البرغسوني ، بوجود حركة تبادل متواصلة بين القطبين المتميِّزين للفاعل والقابل ، معتبراً ان غياب احدهما يعني آلياً حضور الآخر . وإننا لا ننقطع عن التفكير في ذاتنا الا لكي نفتكر بالأشياء ، وكذلك فإن هجر الاشياء يعني حكماً العودة الى ذاتنا . وعندئذٍ نكون قد افترضنا مسبقاً الفكر كوجودٍ دائم ، كهيولى زمانيَّة . وربما تمنع النظرة الاشد وظيفية ، الاشد ظاهريَّة . نفسها من اخفاء الثنائية البالغة الوضوح بين الاستبطان والفكر الموضوعي . فعلى صعيد الوظائف ، في تبادل الوظائف ، يكون التفاصل هو المعطى الاول . وسوف نبينّ بعدة طرق ان اقتران فكرة

Bergson : l'evolution créatrice , p. 318 (1)

التواصل بفكرة التعاقب هو اقترانٌ مجانيٌ ، لا برهـان عليه ، يتجـاوز دائماً وفي كل مكان مجال الاختباري الطبيعي والنفساني على حدٍ سواء .
واذا رغبنا حقاً في عدم درس التواصل الا عندما نستنتج ، فاننا سنلاحظ انه لا يتدخّلُ الاّ بطريقة واقعية ، متأخرة ، لزوميَّة . ولا يعطينـا هذا الشعور بالتواصل البدائي المزعوم سوى استرخاء الفعل . لكن الاختبار الدقيق وحدس اللانظام الذهني يقودانا الى وتيرة نعم و لا ، الى الحياة المجرَّبة ، الثانوية ، المرفوضة ، المستعادة . ويمكنُ القول ايضاً إنه من خلال تموضعات شتّى سنكتشفُ جدلية الوجـود والعـدم الاسـاسية ، منتشرة مع الزَّمان . اذا سنعطي لهذه الصيغة البرغسونية ـ الزَّمان تردُّد ـ معناها الكامل الوجودي والزمني معاً .

VII

هل سيُنقذ المتواصل الزَّمني بتحديد الزمن كشكل قبْلي ؟ ان هذا المنهج يعني على نحو ما اننا نجوهرُ الزَّمان من تحت ، في فراغه وخلوّه ، خلافاً للمنهج البرغسوني الذي يجوهره مع مرور الوقت ، من فوق ، في امتلائه .

من السهل جداً ان يُرى الحدسُ الشكليّ مباشرةً هو محض امتناع وخلف وبالتالي ، فان ارتقاب مجرى الزمان مكتوب في الـذاكرة ، ولا تظهر قبْليَّته الا لاحقاً ، كضرورة منطقيّة .وفي الواقع اثبت كانط Kant القبْلي في برهان من النوع المنطقي . ان ثمة نتيجة تحليلية تشكو دائماً من مسألة غير محلولة : كيف يتمُّ تآلفُ الحـدث والشـكل ، وكيف يظهـر عُنْصرٌ كثيفٌ في هذا الوسط الشّفاف ؟

عندئذٍ نعتقدُ انه لا بدّ من اتخاذ شيء اكثر من مجرد الامكان الزَّمني

المتميّز بشكل قبْليّ . يجب اتخاذ البديل الزمني الذي يحُلّلُ من خلال هاتين الملاحظتين : اما ان شيئاً لا يحدث في هذه اللحظة ، وإما ان شيئاً ما يحدث في هذه اللحظة . عندئذٍ يكونُ الزمان موصولاً كامكانية ، كعدم . وهو منقطع كوجود . بكلام آخر ، ننطلقُ من ثنائية زمنية ، لا من وحدة . وإننا نسنُد هذه الثنائية على الوظيفة اكثر مما نسندها على الوجود . فعندما يقول لنا برغسون ان الجدليّة ليست سوى تراخي الحدس ، نردّ عليه بأن هذا التراخي ضروري لتجدُّد الحدس ، وان الحدس والتراخي يقدّمان لنا ، في مستوى التأمل ، البرهان على التعاقب الزّمني الأساسي .

نعلمُ جيّداً ان هذه الوظيفة الجدليّة ، المعبَّر عنها على هذا النحو ، تكونُ بوجه خاص قابلة للانجراح وان الانتقادات البرغسونيّة ستغدو ميسرّةً . وعليه ، سيُعترض علينا بالقول في هذه الصورة يبدو من الواضح تماماً ان العدم ليس كما اراده برغسون سوى نفي التراخي البشري : فالقولُ ان شيئاً لا يحدثُ ، معناهُ القول بكل وضوح ان شيئاً لا يحدث في نسق وقائع محدّدة بشكل ذاتي تقريباً . واليكم اذاً الحجة البرغسونية المتجدّدة . لكننا سنرد على هذا الاعتراض دائماً بالرّد نفسه : في نسق الوظائف ، ما من شيء يكون شيئاً آخر . فعندما لا نردُّ على رسالة مزعجة ، لا يهمّ في الواقع ان نفتكرَ بشيء ما . ففي مملكة يمكن ان نضاعف الرقابة على المتآمرين ، ولن يُمنع الحكمُ من ان يقطعه نوم المعلّم السيد ، وان يكون قوامُه الدائم نسيجاً من السلطة والفوضى ؛ عندئذٍ سيقال ايضاً ، حسبما يُنتقد او يُمدح ، حسبما نكون اجتماعياً برغسونيين او لا نكون : ان الملكيّة هي حكومة مبعثرة ، او ان الملكية هي سلطة مستعدّة دائماً للظهور . لكن سيتوجب دائماً الاعتراف ان

التواصل هو تواصل مُفترَض ، وانَّه يلتجيء الى المكنة ، وانه متنافر مع الذي يُظهرُه .

بالطبع ، لن نكتفي بهذا الرَّد ، وسوف نرغب في تجسيد الزَّمان مادياً ، وفي الفواصل الزمنيّة التي تقيس تخلّفاتنا ، سيرُغَبُ في إدلاج اشياء مثقلة بالزَّمان ، وسوف نُشدُّ الى ملكوت المكان المكروه ؛ وسوف تُبينُّ لنا المادة الهادئة ، الجامدة ، الثابتة ، التي تنتظرُ دائماً ، التي تُوجد في حالة من الخلود الهاديء . وسوف تنزلق البرغسونية المتواصلة ، بشكل غير محسوس ومحتوم ، الى نتيجة غير متوقَّعة : ما تزال المادة تملأ الزمان بشكل مؤكد اكثر مما تملأ المكان . خلسةً يجري إبدال عبارة الديمومة في الزمان من عبارة البقاء في المكان ، وان الحدسْ الكثيف للامتلاء هو الذي يعطي الشعور الغامض بالامتلاء . هو ذا الثمن الذي يجب دفعه لأجل التواصل القائم بين المعرفة الموضوعيّة والمعرفة الذاتية .

منذ اللحظة التي يصارُ فيها الى احياء التموضُعِ الدقيق الجليّ - بوصفه الطريقة الوحيدة للحكم على النظام ، التعاقب ، الزمن في علاقاتها مع واقعٍ ما - سندرك ان هذا التموضع ينتشرُ في تفاصل الجدليّات ، مع مفاجآت التجارب والتأمّلات المتناقضة . بين الطمأنينة والدقة ، هناك علاقة جدليّة يمكن تسميتها علاقة اللايقين النفساني : هل تريدون ان تكونوا واثقين من ايجاد موضوعٍ ، في تموضُعٍ مؤكّد ، فتعزونَ اليه وجوداً مطلقاً ، دائماً ، مستقلاً تماماً عن زمانكم الخاص ؟ هل تحكمون بتحديد هذا الموضوع عموماً ، من حيث هو مجموع ، بوصفه رمزاً لوظيفةٍ واحدة . عندها بلا ريب سيمكنكمُ القول ان قبعتكم موجودة بكل تأكيد فوق المشجب ، وانها باقية فوقه ، وانها

تنتظركم حين تخرجون . واذا جرى تبديل مكانها ، عرضاً ، فانكم على الاقل قد تجدونها في خزانتكم ؛ فليس هناك اختلال نظامي اساسي يمكنه تحطيم وجودها وقطع زمانها . لكن هل تريدون النزول الى التفاصيل وايضاح المعرفة العلميّة لمادة معقولة وليس المعرفة الذرائعيّة لموضوع خاص ؟ انكم مضطرّون هذه المرّة لتخيُّل التجارب ، واستثارة العلاقات ، تنشيط عالم الذرات المتنوع . فالمادة ، حين تتفتت بتأثير اعمالكم الدقيقة ، يؤول بها المطافُ الى عدم التجاوب مع استطلاعاتكم وابحاثكم الا بالتباس وغموض . فيغدو وجودُها الدقيق فريداً مثل وجودكم الفردي . ان التطابقات بين الفاعل والقابل ، الذات والموضوع ، سوف تتذرّر . ولن تدوم . فالمادة المعقولة والدقيقة ، لا تعود موجودة دائماً في متناول التجربة . وينبغي عليكم ان تنتظروا ان تنتج احداثها . انتم الآن في حالة من الارتقاب المحض ، والعدم لم يعُدْ ارتقاباً مخدوعاً ، والغياب لم يعد انتقالاً من مكان الى آخر . وفي الواقع ، ان المظهر الجزئي لا يحدث الا في عُقدة اقترانات وتطابقات ، فهو لا يظهر على امتداد الخيط . وخارج هذه التطابقات ، لا مجال لاية تجربة .

ان هذا الخواء في نمو المظاهر الجزئية نقترح ان نستنتجه اولاً بكل صراحة ، ان نعتبره واقعةً . ومن ثمّ نقوم بخطوةٍ اضافية : نضع هذا الخواء في حساب الوقائع ، تماماً بالطريقة نفسها التي يعتمدها الفيزياء المعاصر في وضع اللاتعيين في حساب الوقائع . وبذلك نعتقد اننا نخضع للحكمة الميتافيزيقية طائعين . وبالتالي ،اننا لا نعترف بحق فرض المتواصل عندما نلاحظ بلا انقطاع وفي كل مكان المتفاصل ؛ اننا نرفض تقرير امتلاء الهيولى لإن كلاً من اجزائها وسماتها يتبدّى في المرقّط

المتنوّع . فمهما يكُن تسلسل الحوادث المدروسة ، نلاحظُ ان هذه الحوادث محاطة بزمان لم يحدث فيه شيء . اجمعوا قدر ما تشاؤون من السلاسل ، فلا شيء يثبت انكم تبلغون تواصل الزمان . فمن غير الحكمة افتراض هذا التواصل ، لا سيما عندما نتذكر وجود مجاميع رياضيّة ، على الرغم من كونها متفاصلة ، تملك قوّة التواصل . زدْ على ذلك ، اننا لا نملك حتى حق جمع كل السلاسل ، فنضيف في معظم الاحيان المعلومَ الى المجهول . ان واجبنا الفلسفي هو بالحريّ البقاء في مسلسل خاص من الاحداث ، والبحث عن ترابطات متآلفة قدر الإمكان ، فنربط مثلاً العقل بالعقل ربطاً مباشراً ، دون المرور بالوسيط البيولوجي .

والحال ، على صعيد خاص ، على صعيد وظيفة خاصة ، لا يعود ثمة شك ، فالجدلية وليس التواصل ، هي المخطّط الأساسي . وكما يقول ريفيرRivers : « ان تعاقب ردّي فعل متعاكسين يجعل من الضروري كبت احدهما »(1) . بكلام آخر ان اللعبة التناقضية للوظائف هي ضرورة وظيفيّة . ولا بد لفلسفة الراحة / السكون ان تعرف هذه الثنائيّات . فمن واجبها الحفاظ على بقائها بين التوازن والإيقاع . ولا مناص لنشاطٍ خاصٍ من ان يتضمّن ثغراتٍ محدَّدة المواقع ، وان يجد على نحوٍ ما تناقضاً متآلفاً مع ذاته . فالراحة التي يمكنها التسليم بنشاطات مضادة ، يجب ان ترفض النشاطات الملفّقة . لكن لم يحن الوقتُ بعد لتناولنا هذه الاستنتاجات . فلنبق حالياً في مواجهة مسألتنا الزمنيّة . اليكم اذاً كيف سنختصر نتائج مناقشتنا للعلاقات بين الوجود والعدم .

---

(1) Rivers : l'Instinct et l'inconscient , trad p . 87

ان النفس ، مأخوذةً في اي سمة من سماتها ، ومأخوذة في مجمل سماتها ، لا تواصلُ الشعور والتفكير ولا تواصل التأمل والإرادة . فهي لا تواصلُ الوجود . فلماذا المضي للبحث بعيداً عن العدم . ولماذا الذهاب الى التفتيش عنه في الاشياء ؟ انه فينا ، منتشراً على امتداد ايامنا ، كاسراً في كل لحظةٍ حبّنا ، ايماننا ، مشيئتنا ، وفكرنا . ان تردّدنا الزمني هو تردّد وجودي . فليس بمستطاع الاختبار الوضعي للعدم في ذاتنا الا ان يسهم في تنوير تجربتنا للتعاقب . والتجربة تعلّمنا بالتالي ان تعاقباً متنافراً بكل وضوح ، مطبوعاً بكل جلاء بالمستجدّات والمدهشات والانقطاعات ، انما تتخلّله الفراغات . انها تعلّمنا بسيكولوجية التوافق والتطابق . لكن عندئذٍ نسأل اين تكمنُ المسألة الحقيقية النفسانية للزمان ؟ واين ينبغي البحث عن الواقع الزمني ؟ اليس هو في هذه العقد التي تطبع التوافقات ؟ الا يوجد تنوّع في قوانين التعاقب ؟ واذا كان ثمة تنوّع في قوانين التعاقب ، كيف لا نستنتجُ تعدُّداً في الأزمان ؟

قبل الوصول الى ميتافيزيقيا الزّمان ، لا مناص اذاً من فحص الأزمنة الخاصة فلنتوجّه اولاً شطر علم النفس المحض ، علم النفس الزّمني الخالص . ومن ثم سنستأنف تناول مسألة التعاقب الموضوعي ، ونحن نفحصُ تنوُّعات السببية .

الفَصْـل الثّاني

بسيكولوجيا الظواهر الزمنيّة

I

المعرفة ، في نظر بيار جانيه ، هي دائماً تعليمٌ . زدْ على ذلك انه لا اهميّة للاتصال المعرفي او لعدمه ، طالما ان الفكرَ هو بذاته « طريقة في مخاطبة الذات ، طريقة في تعليم ذاتي للذات »[1] . والحال ، مهما يكنْ موضوع التعليم ، فإنه يعني دائماً ايحاء نسقٍ محدَّدٍ تماماً لأفعال مفصولةٍ مع اعلان نجاحٍ موضوعي او نفساني للأفعـال الحسنـة التنسيق . ان الافعال الموعودة في التعليم ، نرتقبها دون ان نكون متشدّدين كثيراً في شأن الفواصل الزمنية بينها ، لكننا مع ذلك نطرح الفواصل ، ونعتني طيلة الفاصل الزّمني بالحفاظ على الافعال الموعودة وصونها من كل تقلّبٍ وتغيرٌ . هذا ، اذا ، بأختصار هو المسارُ الذي يجمع العلم الدوغمائـي بالمعرفة المبيَّنة والجليَّة ، المعرفة التي يؤكدها الوعـيُ حقـاً ؛ انـه مسـارُ التعليم الحقيقي بالذات .

بهـذا المعنـى ، لا تحظى معرفـة الزمـان ، طبعـاً ، بأي امتياز او فضل . فهي لا يمكن ان تكونَ مباشرة وحدسيَّة والاّ فقـد تحـكم على نفسها بالاّ تكون سوى معرفـة سطحية وناقصـة . ولـكي تغتنـي هذه

(1) Pierre Janet , l'évolution de la mémaire et de la notion de temps 1928 , p. 22.

المعرفة ، شيمة كل المعارف الاخرى ، لا بد لها من إظهار ذاتها . والحال ، لا مناص للزمان من ان يُعلَّم ، وان شروط تعليمه هي التي تشكّلُ ليس تفاصيلَ اختبارنا فحسب ، بل تشكّلُ ايضاً مراحلَ الظاهرة النفسانية الزمانية ذاتها . ان الزمان هو ما نعلمُه عنه.. وبهذا المعنى قال بيار جانيه بكل وضوح(1) : « اذا تكلمنا على معرفة الزّمان ، فلا بدّ لنا من الوصول الى تقديم طرائق للمدافعة عن الذات في مواجهة الزمان ، وطرائق لاستخدامه » . ليس لنا الحق في إنجاز جهلنا وفي الإسناد المتسرِّع جداً لنمو الظاهرة الزمنية الحميمة على قاطرة موضوعيّة . وبالتالي ، يعتبرُ حدسُنا للزّمان عابراً جداً ، بالغ الغموض ، حتى نتخلىَ بوقتٍ مبكّرٍ جداً عن البيّناتِ الكبرى للزّمان المعقول ، للزمان المُعلّم . اخيراً ، ان الوجهة التي اختارها بيار جانيه ، والتي يمكنها ان تبدو مصطنعة للوهلة الاولى ، تظهرُ امام التأمل كأنها علامةُ حكمةٍ فلسفيةٍ عظيمة . . « حسب المنهج الصحيح ، لا ينبغي مَنْحُ حق الكلام عن معرفة لا تكونُ قابلةً للإبلاغ والإيصال .

يضافُ الى ذلك وجوبُ الملاحظة ان السمة الاولى التي يصادفها عالم نفساني مجرِّبٌ في فحصه الظواهر الزمانيّة ، تحمل طابع الثنائية الاساسية في الزّمان . وعليه ، منذ التجربة الاولى ، يظهرُ الزّمان لبيار جانيه بمثابة عقبة اوعون ؛ ويجب الامتناع عنه او استعماله وفقاً لكوننا في الزمان الفارغ او في الآن المُحقّق . نفسانياً ، من البينّ تماماً انه يوجدُ سلوكٌ ثنائي امام ظواهر الزّمان . ان الوجود يخسر دورياً ويربح في الزّمان ؛ ففيه يتحقّقُ الوعي او فيه ينحّلُ . اذاً ، من الممتنع تماماً معاناة

(1) Op. cit, p. 19.

الزمان بكليّته من خلال الحاضر ، وتعليمُ الزّمان بواسطة حدس مباشر فقط .

كما أنَّ الزّمان لا يمكنُ ان نتعلّمه مباشرةً من خلال ماضينا باعتباره كتلةً ذات شكل واحد . وحين نظرنا من زاوية بيار جانيه ، سرعان ما توصّلنا الى الاعتراف في الواقع بأنَّ الذكرى لا تُعلَّم دون استناد جدلي الى الحاضر ؟ فلا يمكنُ إحياءُ الماضي الا بتقييده بموضوعةٍ شعورية حاضرة بالضرورة . بكلامٍ آخر ، حتى نشعر اننا عشنا زمناً ـ وهو شعور غامضٌ دائماً بشكل خاص ـ لا بد لنا من معاودة وضع ذكرياتنا ، شيمةَ الاحداث الفعليّة ، في وسطٍ من الامل او القلق ، في تماوجٍ جدلي . فلا ذكريات بدون هذا الزلزال الزمنيّ ، بدون هذا الشعور الحيوي . حتى في هذا الماضي الذي نعتقده ممتلئاً ، فإن الذكر ، السّرد ، المسارة ، تعيد وضع الفراغ في الأزمنة غير الفاعلة ؛ اننا حين نتذكّر ، بلا انقطاع ، انما نخلط الزمان غير المجدي وغير الفعّال بالزّمان الذي افادَ واعطى . ولا تكون جدليّة السعادة والتعاسة مستحوذةً الى هذا الحد إلاّ عندما تكونُ متوافقةً مع الجدلية الزّمانيّة . عندئذٍ نعلمُ انَّ الزمانَ هو الذي يأخذُ وهو الذي يعطي . وفجأة نعي ان الزمان سيأخذ ايضاً . ان معاودة عيش الزمان الغابر معناهُ تعلُّمنا قلق الموت . ولكم هي جميلة وصحيحة هذه الصفحة التي يكشف لنا فيها رينه بوارييه الوعي المفاجيء لهذه المقتطعات من العدم والموت ، الموضوعة خلال حياتنا(1) : ان الارتقابَ ذريعة لنا لاجل معاناة الماضي . صحيح انه رغبةٌ خائبة ، إثارةٌ وشعور بالعجز ، لكنّهُ ايضاً شعورٌ مرير بالزمان الذي نحطّم .

---

(1) René POIRIER , Essai sur quelques remarques des notions d'espace et de temps , p .64.

فتغدو كل لحظةٍ من اللحظات التي يستخدمُها موضوعاً للحسرة والتأسف . اذ بين الماضي الحيّ والمستقبل تنتشر منطقةٌ من حياة ميّتة ، فلا يكون الاسفُ والشعورُ بالخسارة شديدين في اي مكان آخر مثلما يكون حالها هنا . على هذا النحو يكونُ الزّمانُ حسيّاً بالنسبة الينا . ويكونُ محسوساً اكثر في حالات القلق والافتكار بالموت لا نعني القلق من هذه الآلام او من هذا التخليّ ، بل نعني القلق من ان لا نعود شيئاً يذكر ، وان يتهدَّمَ على هذا النحو ، عالم بأسره . فمن لم يشعر بهذه الفكرة التي تدخلُ النفسَ ، كشفرةٍ قاطعةٍ ؟ ويكون القطعُ بالغَ السرعة بحيثُ لا يكونُ مؤلماً ؛ لكنّما القلبُ يدركُه في الأعماق ، ويشعرُ انّه مغلوبٌ ومنقوصٌ ؛ والحال ، من يفتكرُ بالموت حقاً . لا يمكنه فعل ذلك الا شاحباً . انها فكرة وجيزة ، وشبه سريّة ، حادّة مثل صوت السنونو ، او مثل همس القوس بين يدى اوديسيوس Odysseus ، عندما يسمعه الزّاعمون ، فلا يخفتُ الا بتصلبٍ بطيء او بأملٍ كبير . لإنّه يمكنُ للمرء ان يتسامح في ان لا يعود هو ذاته ، لكن من يستطيع التسامح في ان لا يعود شيئاً ، اذا شعر ذات مرّةٍ بكل الآم ذلك ؟ مثلما ينفرُ جوادٌ امام جثّةِ جوادٍ آخر ، تنفرُ النفس امام هذا الدثور» . اننا حين نتعلم كل ما يمكنُ للزمانِ ان يقطَعهُ ، فإن تأملاتٍ كهذه تقودُنا الى تحديد الزّمان بوصفه سلسلةَ انقطاعات . اننا لم نعدْ حقاً قادرين على ان ننسب للزّمان تواصلاً احديَّ الشكل عندما نستشعر نواقصَ الوجودِ بمثل هذه القوة .

وبطريقةٍ الطف . يضعُنا الاسفُ على مناسبات وفرصٍ ضائعة امام ثنائياتٍ زمانيَّة فعندما نرغبُ في التعبير عن ماضينا ، وفي إعلام الآخر بشخصنا ، إنما يستحوذُ الحنينُ الى الأيام التي لم نستطع ان

نعيشها ، على عقلنا التاريخي ويهزّه في العمق . ولربما سنرغبُ في روايةِ سلسلة متواصلة من افعالنا وحياتنا . لكن نفسنا لم تحتفظ بالذكرى المخلصة لعمرنا ولا بالمقياس الصحيح للسفر الطويل على مدى السنوات : فهي لم تحتفظ الا بذكرى الحوادث التي انشأتنا وخلقتنا في اللحظات الحاسمة من ماضينا . وفي سريرتنا ، تنخفض جميعُ الحوادث الى جذرها في لحظة . اذاً ليس تاريخُنا الشخصي سوى رواية افعالنا واعمالنا المفكّكة ، واننا حين نرويها ، انما نرويها زاعمين اننا نمنحها تواصلها بالمبرّرات العقلية لا بالزمان ، ومثال ذلك ان تجربتنا لزماننا الماضي الخاص يستندُ الى محاورَ عقلانيّة حقيقية ؛ وبدون هذه الصقالة سينهارُ زمانُنا . وبالتالي ، سنبينّ ان الذاكرة لا تقدِّم لنا النسق الزّمني مباشرة ؛ فهي بحاجةٍ الى ان تتقوّى بعناصر انتظام اخرى . فلا يجوزُ لنا ان نخلط بين ذكرى ماضينا وذكرى زماننا . فبواسطة ماضينا نعرفُ الى ابعد حد ، وحتى في المعنى الذي اوضحه بيار جانيه ، ما قُمنا به في الزّمن او ما صدمنا في الزمن . وإننا لا نحفظ أيًّا اثر من الديناميكية الزّمنية ، من مجرى الزمن . فمعرفتُنا لذاتنا معناها معاودتُنا الوجود وسط هذا الغبار من الاحداث الشخصية . وشخصُنا يرتكزُ على جملةٍ من القرارات المجرّبة .

وربما تؤدي معرفة الزمن المقبل الى تسجيلِ الملاحظات نفسها ؛ فهي لا يمكنُ تكوُّنها الاّ بتناقلها ؛ ولا يمكنُ تناقُلها الاّ بالاستلهام من منهج بيار جانيه المتواضع والعميق معاً ، مترجمِينَ بارقتنا وحيويتنا في لغة الافعال المرتقبة والمسالك المبرمجة دائماً برمجةً نسبية . ان المستقبل نصف المنظور يكون حينئذ البرنامج البسيط للأفعال الموعودة . وفي الواقع لا يمكنُنا الإفتكارُ على صعيد مستقبلنا الشخصي الا بأفعالنا .

فمن الممتنع القيام بتجربة سلبية خالصة . فإذا تصوَّرنا عقباتٍ انما نتصوّرها دائماً من خلال ردّة الفعل التي تستثيرها فينا ؛ وبشكلٍ دائم نتناولُ الزمان المقبل في لحظاته الوضعيَّة . وعليه يكونُ كل حدس للمستقبل بمثابة وعد بأعمال لا يُحيط بزمان هذه الأعمال ؛ فينحصرُ هذا الحدس في تخيُّل تعاقب وتناسق الآنات الفاعلة . ان توقّع المستقبل معناهُ تحديد قاطرته ، متناسين فواصل الكسل والتعب والتسلية : ومعناه عزل مراكز سببيّاته ، معترفين على هذا النحو بأنَّ السببية النفسانية ، كما سنتناولها مطوّلاً فيما بعد ، تعمل بقفزات ، فنقفز فوقَ الاوقات غير المجدية .

عبثاً سنحاولُ التفريق بين فهم سيرورة وبين عيشها : ففيما نسميه عيش الزمان لا بد من التفريق الدائم بين ما نعلمه وما نجهله ، لإنه في القول عيش الزمان يكمنُ زعمٌ بوجود معرفة للزمان صماء ومباشرة . والحال فإن المرءَ لا يعيش جهلاً مثلما لا يرى الدياجير . وإن مساررة عالم النفس الذي يقول لنا : « في ذاتي ، اشعر ان الزمان يجري بلا حادث ، ودون انقطاع » .لا نستطيع انْ نحدّد بالاستناد الى ذواتنا سوى الاحتكاك بين ظلمتين ، سوى سمفونية صمتين . ان عالماً نفسانياً كهذا يبدو لنا مثل هؤلاء الحاملين لخفايا واسرار تعدُنا بكنز فلا تنقل لنا سوى كتاب طلاسم . كلا ! لا بد للاستناد الى تجربة حميمة من القدرة على الخلاص من طابعها الغامض ؛ ولا مناص من إكثار الامثلة وتنويعها . كذلك فإن المسارات تمتازُ بالفرادة ، فيظهر إمكان حدوث التجربة الزمنيّة ، وتنعزل مراكزُ التبلور النفساني . امام التجربة اللطيفة تغتني الاحداثُ الجارية .

. . والآن ، بينما القَدَرْ يقتربُ

والساعات لا تكادُ تتنفَّسُ

تتحوَّل رمالُ الزمان

الى حُبيبات من ذهب(1) .

إنه طابعٌ خاص جداً بالنظر الحميم ، وحكم قيمي يطرأ وينير الحكم التجريبي المحض . فمن الممتنع ان نعرف الزمان دون الحكم عليه . وبفضل هذا الحكم نكوِّنُ المسالك . وحين ندرسُ المسالك يمكننا بالفعل تطوير علم نفس الظواهر الزمنيّة .

II

بعد تقويمنا لأثر الآنات الفاعلة ، ندرك على نحو افضل الطابع العمقي للنتائج التي يمكنها ان تسير وتتجرجر نسبياً وراء القرار . إن آماد الأفعال التكوينية يمكنُ تمديدُها او تقصيرها ، فهذه الآمادُ لا تهزُّ الطابع الجوهري للمسالك . وهي ليست مرتبطة بالعمل ، فما هي سوى سلاسله الحادثة والمتغايرة ، بدون موضوعيَّة كميَّة . ان هذا الافتقار الى الموضوعية الكمية هو الدليلُ على نسبيَّة جوهريَّة . فلماذا نجعلُ منه علامةَ نقصٍ في العقل الإنساني ، وثمناً لمنهج في الفحص العقلي يمكن ان يكون غير متناسب مع موضوعه . فإزاء عمل مدروس جيداً في مشروع صريح تماماً . انما يسودُ نسقُ الافعال التكوينية على كل شيء . وتعتبر فكرة طول الزمان ثانويةً . فمن الممكن دائماً لتعاونات ان تُقصرٍ ازمنة تنفيذيةً طويلة جداً . ان هذه التعاونات تمنح للزمان بُعْداً جديداً ، بُعداً في العمق ، في الكثافة ، يعطي من خلال توافقاتٍ حسنةٍ

---

(1) E. POE, Poésie , Politiani , trad Mourey , P 109

الانتظام فعاليةً ونفاذاً للقرارات الآنيّة . حتى انه يوجد ارتباطٌ عكسي بين الطول النفساني لزمان وبين امتلائه . فكلّما كان الزمان مفروشاً ، بدا اقصر . ولا مفرّ من اعطاء هذه الملاحظة العادية مكانة اولى في علم النفس الزماني . فهي قد تكون اساساً لمفهوم جوهري ، وعندئذٍ سنرى الفضل الكامن وراء الكلام عن الغنى والكثافة ، بدلاً من الكلام عن الوقت . فمع هذا المفهوم للكثافة يمكن ان نقوِّم تماماً تلك الساعات المنتظمة والهادئة ، ذات المجهودات المنتظمة جيّداً ، التي توحي بالزمان الطبيعي . واننا نسندُ الى هذه الوتائر الحسنة الايقاع ، في حياة هادئة وناشطة في آن ، وفقاً لجدليةٍ معقلنة ، نسند طول مرحلة جامدة ، استراحة سيئة التكوين ، مطبوعة بالاختلالات والصيرورات التي لا شكل لها . وفي الواقع ، لا نجدُ في الزمان طولاً الا عندما نجده طويلاً جداً .

ان وتيرة الفعل واللافعل تبدو لنا ، اذا ، غير قابلة للانفصال عن كل معرفة للزمان . ولا بدّ بين حدثين مفيدين ومخصبين ، من ان يلعب جدل اللاجدوى . فلا يمكن ادراك الزمان إلاّ في تعقـدّه وتركيبه . فهو ، مهما يكن فقيراً ، إنما يطرح نفسه على الاقل من خلال تعارضه مع الحدود والتخوم . وليس لنا الحق في تناوله كأنه معطىً وحيد الشكل وبسيط .

لكنّنا لا ندّعي إحراز الاقتناع دُفعةً واحدةً . فنحن ، حالياً ، لا نرغبُ الا في توكيد نقطةٍ في اطروحتنا : هي ان الزمان معقّدٌ ميتافيزيقياً وان المراكز الحاسمة في الزمان هي انقطاعاته وفواصله ولكي يحُطّم نظرُنا ورصدُنا لا يكفي القول ان الانقطاعات الظاهرة تحمل في طياتها تواصلاً

قائماً بذاته . فلا مناص لنا بالتالي من البقاء على صعيد الوعي . منذئذٍ تبدو المسالك الزمنية المتفاصلة هي المسالك الألطف والابسط ، وتكون المسالك الزمنية المتواصلة هي الاشدّ سطحيّة .

واننا حين نفحص المسألة على هذا النحو من زاوية المسالك الزمنيّة سنرى على الفور ان الاستخدام المنهجي للزمان يتمُّ اكتسابُه بصعوبة ، ويتمُّ بصعوبةٍ تعليمُهُ . وحينئذٍ يتبينَّ معنى الاكتفاء الغالب بمعارف زمنيّة عامة والتباسيّة . ومن ثمَّ ، يقسّم بيار جانيه المسالك النفسانيّة الى فئتين مختلفتين جداً : المسالك الاوليّة والمسالك الثانويّة ، ويبينّ ان علم نفس الظواهر الزمنية لا يمكنه ان يفسح مجالاً في المسالك الاولية(1) : لا اعتقدُ انه بالامكان ايجاد عمل اولي واحد ذي علاقة مع الزّمن . . . وحتى يكون ثمّة تكيُّفٌ مع الزّمن لا بدَّ من شيءٍ جديد ، مضاف . عندئذٍ ينوَجد ما نسمّيه الاعمال الثانويّة » . وعليه يكون كل استعمال للوقت استعمالاً صعباً ، عشوائياً ، انه مخاطرة . فبدلاً من ان يكون الوقت الحميم ملكنا الملموس ، يكون عملنا ويكون مسبوقاً دائماً بفعلٍ مركزهُ الآن واللحظة . وان هذا البدائي هو الذي ينبغي له ان يتكيّفَ اولاً مع الشروط المكانية تكيُّفاً صحيحاً إجمالاً . ولا بُدَّ من ان نقرن زماننا بالأشياء حتى يكون فاعلاً وواقعياً .

ولسوف نُعارضُ ايضاً بالقول ان فعلاً آلياً يجرُّ وراءه وقتاً مدعواً للاكتمال . لكن في ذلك وقتاً منهدم البنية لا يهمُّه مصير الفعل الاصلي وانما يتوزَّعُ على ايقاعاتٍ دنيا ، في عواقب محض فيزيولوجية او فيزيائية . ان هذا الوقت المنهدم في مورّثاته Durie catagenique لا

---

(1) P. Janet : loc . cit , P. 53

يجمعهُ جامعٌ مع الوقت الابتنائي Durée anagéniqne الذي يجب ان يُصانَ ويغذّى . انـه ليس مُقوِّمـاً حقيقياً للفعـل ؛ فهـو على الصـعيد النفساني الذي نضعهُ فيه ، لا يؤدي اي دور ؛ ومن الممكن تصفيته . وفي كل حال ، ان هذا الوقت الذي يهلك ، ويتجرجر ويتابع ، ليس مسلكاً ؛ وليس بالامكان تعليمهُ ؛ اذن لا يمكنُ ان نعرفه حقَّ المعرفة .

إذاً ، لكي نتابع ، حقاً ، فعلاً متكيّفاً في الاصل مع المكان ، لا مناص من القيام بمجهودٍ جديد واضافة عملٍ ثانٍ . ان في ذلك احدى حججنا الرئيسية التي نعتقد انه من واجبنا التشديد عليها . وإننا لنجدُ ايضاً سنداً جديداً في اطروحات بيار جانيه . ومن ثمَّ يرى بيار جانيه ان المجهود هو ظاهرة مضافة ، لا يستطيعها سوى الكائنات المتطورة فقط . فيكون المجهودُ تابعاً للمـخ ، وتابعاً ايضـاً للعقـل . وليس التواصـل طبيعياً في مستوى الانعكاس . ان المخ حين يقدّم الاسبـابَ والعلل ، يضيفُ مساراً متواصـلاً ، ويضـع الاسبـاب المسـارية وراء الأسبـاب الفصالية . ومما يشجّع هو هذا الاقتران ما بين الاسباب . فلا يُواظبُ على العمل الا بحكمٍ قيمي ، وفقاً لسلوك ثانوي . كتـب بيار جانيه(1) : « في الوقت كما في امتداد الافعال ثمة ظاهرة المجهود . انه لشيءٌ عجيب لكنه يستحق الملاحظة . فالافعال تصبح صعبة لمجرّد انها تستمر زمنياً . فالقيام بعملٍ ما خلالَ ربع ساعة لا يعني الشيء نفسه عندما نقوم به خلال نصف ساعة . . . ان الزمان يضيفُ صعوبةً . ولم تردّ الكائنات الاولى على هذه الصعوبة ؛ فأوقفت العمل ؛ وليصل من يستطيع . . لكنما الحيوان في اعلى درجات النمـو يضيف مجهـوداً ويواصـل العمـل

P . Janet , loc , cit p55. (1)

ابـدياً . ويمكننـا القـول ان بدء الزمـان ، الفعـل الاول الــذي بذل بخصوص الزمان ، هو مجهودُ التواصل ، جهـد الاستمـرار » . هكذا تفتحُ المشيئةُ الواضحة والمستنيرة الزمانَ كأنه افق : فتضع سلسلـة من الاعمال الاضـافية وراءَ الحافـز الاول : وتتجلى كقـوة توليف محـددةٍ لتوافقٍ عضوي . واننا نحصلُ على الوقت بجعل المزيد من العضلات تعمل تدريجياً . ومن شأن تحليل مواصلة مجهودٍ ما ان يؤدي الى تكرار شبـه تام للدراسـة الدقيقـة التـي طوَّرهـا برغسـون بخصـوص كثافـة المجهود . ثمة تعدّدية في نمو التواصل مثلما هناك تعدّدية في كثافة المجهود المتواصلة . ويمكنُ ان نرى ان هذا التوتر وهذا التواصـل متجانسـان بطريقةٍ ما وان الحاصل الحسابي لمجموع الجهود الخاصة التـي تتـراكم لتعطي توتراً معيناً انما تتوزع على امتـداد تعاقـب لكي تعطينـا وقتـاً . وبالطبع حين ننظر الى الوقت عن كثب ، سنرى ان امتداداً كهذا مكوَّنٌ من دوافع منفصلة . فلا بد لكل بسيكولوجية مجهود ان تتوصّل ليس فقط الى تعميم هندسة المجهود ، كما يشير الى ذلك برغسون الذي يقرأ التوتر في حجم العضلات العاملة تدريجياً ، بل ينبغي لها التوصل ايضاً الى حسابية المجهود فتُحسَبُ العضلاتُ المستنفرة تدريجياً .

على هذا النحو نتوصّل شيئاً فشيئاً الى الفصـل التـام من الوجهـة الوظيفية المحض بين الإرادة التي تسبِّب الفعلَ والإرادة التي تواصلُهُ . وقبل إضافة ارادة الديمومة ، ليس ثمة مجال لكي نعتبـر سوى الفعـل الانعكاسي المنصَّب على اللحظة ، الذي يستمـد كل معنـاه من بعض التوافق المكاني ـ الزماني . وفي المقابل ، فإن الفكر ، التأمل ، الارادة النيِّرة ، الطابع الحادّ ، تمنح الوقتَ لفعل ثانوي وتعلّمُ كيف تُضاف اليه

افعالٌ ثانوية مناسبة . اذن ندرك الوقت في طابعه السلوكي ، في طابعه الإنجازي .

III

يضاف الى ذلك انه توجد في كتـاب بيار جانيه صفحـاتٌ عديدة حول علم نفس البداية انه علمُ نفس خاص جداً يمكنه ان يقدّم مفتاحاً لكثيرمن المسائل . وربما يكون الروح في جوهره من عوامل البدايات . فيميّز بيار جانيه اولاً بين ما يمكن ان نسميه البدايات العظمى ، تلك التي تفتتح زماناً لكنها في الصميم لا تنتسبُ الى ما يدوم . ان وضع وزير للحجر الاول ليس له قاسمٌ مشترك مع البناء الذي انشأه العمّال . ولم يكن الامر هكذا على الدوام . ان بعض فواتح القداديس الـدينية هي تحضيرات نفسانية حقيقية للحياة الصوتية ، لمواصلة الانفعال الديني . ولقد درس مارسيل موس من هذه الزاوية احتفالات الطهـارة . فمـن الوجهة المحض نفسانية ، لا يمكننـا ان نعطـي اهمية كبـيرة لتـكريس البدايات هذا . وبحق استنتج بيار جانيه قائلاً[1] : « ان حركات البدء والختام تلعب دوراً كبيراً ، بالغ الأهميّة » . ويشير الى انه لا يوجدُ عند البدائيين « اعمال ابتداء واعمال اختتام » . فالبدائيّون يكتفون بالاعمال الانفجارية اي بالاعمال التي لا تتواصلُ حقاً بالمعنى النفساني للكلمة ، لإن عواقبها هي في احسن الاحوال من النـوع الفيزيولوجـي . كذلك يضيعُ عند العصابيين سلوكُ التواصل . حيث ينبغي ان يتمايز المجهود المبتدىء والمجهود المتواصل . « هو ذا الطابع الاكبر للعمل الصرْعي ،

---

(1) P. Janet, loc. cit., P. 62-63

هذا العمل المتفجّر الذي لا يتوقّعه شيءٌ ، والـذي لا يتوقعه الفاعـل ذاته ، العمل الذي لا بداية له والذي ينتهي دون ان نعرف لماذا » .

هكذا ينبغي لكل زمـان حسـن التـكوين ان تكون له بدايةٌ مميّزة بوضوح . في هذه البدايات الرائعة والاحتفـالية ، كيف لا ترى سببيّة العقل المستبدلة من سببية الوقت المزعومة ، هنا تُلحظ اهمية الزمن المُراد على الزمن المُعاش . وحتى نشدّد جيّداً على العزلة السببيّة والزمنيّة للفعل الاولي ، فليسمَحْ لنا ، إذاً ، بالتعبير عن ذلك في صورة تناقضيّة : ان ما يسيّر القاطرة هو صفير رئيس المحطـة . والحياة الـداعية هي ايضـاً فعالية اشارات . انها فعالية رئيس . وان حدساً واضحاً لهو امرٌ وقيادة .

لـكن فلننظـر ، الآن ، في مسـالك مثـل الاندفـاع ، الحماس ، الغواية ، حيث تبدو بداية الفعل مسبّبة بشكل طبيعي لتتمة الفعـل . وسنرى ان هذه البداية تكون مع ذلك قليلة التوافق مع ما يليها . يقول بيار جانيه : « عندما نقومُ بعمل . نبذل من الجهد والقوة في ما نقوم به ، ولكن هناك وفـرة كبيرة دائماً وان القوة التـي نبذلهـا إضافـةٍ عمّاً يلـزم ستلعبُ دوراً في الحركات المتتـالية ؛ هذا ما يسمـى بكلمـة واحـدة : الاندفاع »[1] . اذاً ، الاندفاعُ من هذه الزاوية هو نوعٌ من النقص في ادخار المجهود وحين ينطلق المرءُ يظنُّ انه يتعلّق بزمان جاهز ؛ لكن في الواقع ثمّة افتقارٌ الى قيادة الزمان والى تكوين زمان . ان الاندفاع يحملُ السلبيّةَ الى الفعل على نحو متعارض . ويمكن التأكّد من ذلك : فمن يندفع يضلّ . وعندما سنصل الى تصوير الحياة الايقاعية . الوتيرية ، المتـصلة تمـاماً بالجدليّة الزمـانية للاستراحـات والافعـال ، سنـرى ان

P. Janet, loc. cit., p. 65 (1)

الاندفاع سلوك زماني بالغ البساطة والدّقة ، وذلك لإن هذا السلوك يستبعد امكانية الاستئناف ، حرية البدايات ، التجمع الفاعل والمتعدّد الاشكال للحظات المنتجة .

اذا فلنلخّص هنا حكمنا على عقيدة البدايات ، حقاً اكتشف بيار جانيه سلوكاً زمانياً خاصاً ذا اهمية كبيرة جداً . وحتى نُعلّم مداهُ كاملاً ، ونمتلك مقاليدهُ حقاً لا مناص من عزل البداية واتخاذها كحدث محض . بكلامٍ آخر ، اننا بحاجةٍ الى مفهوم الآنيّة لكي نفهم علم نفس البداية . هناك مسالك عديدة مختلفة في الواقع عن البداية لا تسلّط عليها الاضواء إلاّ بالاستناد الى علم نفس البداية . وهكذا لا يكون لدينا علمٌ جديرٌ بالاندفاع إلاّ بردّهِ الى دافعه الاول . وفي كل حال ، يجب الاستنتاج بأن المسالك التي تبدأ الزمان ليست بمسالك عاديّة بسيطة لإنه من الممكن ان نفصل عنها بعض الحوادث الحاسمة التي تستحقّ من عدّة جوانب ان توصف بأنها حوادث اوليّة .

IV

ربما يكونُ التقريبُ بين هذا السلوك وعلم نفس التغير هو الامر الخليق بتسليط الضوء مداورةً على سلوك البداية . فما يزال البدء والتغيرُ بعيدين عن التطابق اذ من الممكن ان نعلّمَ بدايةً ما بكل وضوح ؛ وليس بالامكان ابداً غير الايحاء بتغييرٍ ما . وفي الصميم ليس سلوكُ التغيير الأساسي معروفاً بعد حق المعرفة لدى علماء النفس . وان امنية بيار جانيه الصريحة حول هذه النقطة ذات دلالة كبيرة لإنه يبيّنُ لنا اننا نجهل علم النفس الزمني جهلاً مطبقاً . فهو يختم درسه الثالث على هذا النحو : « ان التغيرّ هو المُنطلق لعلوم الزمان كافة . اذاً لا مفرَّ من

وجود سلوك تغييري . ونحن لا نعرفه » . ويرفض بيار جانيه الانسياق وراء غيويو Guyau وفوييه Fouillée عندما يتكلم هذان الكاتبان عن تحسُّس بالتغيُّر . فيعترضُ قائلاً : « ان التحسس . . هو حالة جمودية . . امامنا على الطاولة لون احمر والى جانبه لونٌ اخضر ؛ ولدينا إحساسنا ، احدهما احمر والآخر اخضر . فاذا انتقلنا من الاول الى الثاني تتكوّن لدينا مشاعرُ اخرى ، لكننا لا نحسُّ الا بأحدهما او بالآخر »[1] ومرة اخرى يستحيلُ سد الفراغ داخل التبدُّل والتغيُّر . وتقضي الحكمة المنهجيّة الحقيقية النظر في الانقطاع والتفاصل منذ ان يتأكد لدينا حدوثُ تغيرٍ ما . في الواقع وفي هذه المناسبة تكونُ النزعةُ العادية هي بخلاف ذلك نزعة الى النظر في التواصل الكامن . وبما انّ المتغيّرات تفتقرُ الى التساوق ، يسودُ الظنّ بأنّه من الممكن ايجاد العناصر الوسيطة في مختلف الميادين التي توقفُ التغيرُ . وفي بعض الاحيان تكون هذه العناصر المضافة عوامل غموض اذا جاز القولُ . وعلى هذا النحو نكون قد وضعنا رداءَ الكآبة فوق الخريف حتى تتمكن الاوراق ، بلطف وبلا احساس ومن خلال موتها ، من الانتقال من اللون الاخضر الى الذهبي . اننا نخلط الانواع حتى نبرّر الوانَ المشاهد . لكن في الواقع ، تقوم الانتقالاتُ دائماً بإعلاء الميادين التي يكون المطلوبُ الربط فيما بينها . فتضعُ التباسَ مشاعرِها في ظل التحديدات المتفاصلة روحياً وفكرياً . وبالتالي لا يمكن ان نولي اهميةً كبيرةً لهذه الملاحظة التي ابداها بيار جانيه : « يكونُ التغيير . . على صلة شبه دائمة بالمشاعر ، وفي اغلب الاحيان مع شعور الكآبة . فالشعور في صميمه يكون بالغ الكآبة ؛ وهو غالباً ما يكون شعوراً بالزوال في كل اشكاله » . هكذا

(1) P. Janet, loc. cit, P. 95

نذوّبُ جميع احداث حياتنا في تواصل مجهوداتنا ؛ واننا لنترجمُ في لغة التواصل الانفعالية ما يُفصَحُ عنه بشكلٍ أدقّ في الرواية الخالصة والحاسمة للحوادث الموضوعيّة . فليس التواصلُ سوى انفعالنا ، اضطرابنا ، كآبتنا ، وربما لا يكونُ دورُ الانفعال سوى اظهار الجديد المعادي دائماً . هكذا يُمكن الاستنتاجُ مع بيار جانيه ، ناظرين للأمور من زاوية المسالك الزمنيّة : « ان الشعور هو ضَبْطُ للفعل »(1) .

V

ليس هناك سوى التغيير الذي من شأنه ان يجعلنا نتوصّل الى سلوك متفاصل وبامكاننا ايجاد حالات نفسانية اوضح وادقّ تسمح بتعليمنا سلوكاً دثورياً حقيقياً . والحقيقة ان بيار جانيه ألحّ على المسالك المتباينة ، وعلى انقطاعات الفعل الذي تُؤجِّل تتمتّه الى المستقبل . والحالَ ، فإنّ مباينةَ فعلٍ ما معناها تعليقُ سببيّته واجتزاء وظيفته الاساسية من الزمان المتواصل . فلم تعد الموجة تدفع الموجة . فنحن احرار في تقرير الامر الطاريء .

وليس هذا بسلوكٍ معزول : فهو يتقاطعُ مع مسالك تبدو للوهلة الاولى بعيدةً عنه . ومثال ذلك ان الذاكرة ، حسب نظرية بيار جانيه ، تكون تحت تأثير المسالك المتباينة . فيدّعي بيار جانيه . بحق ، ان الذاكرة ملكَةٌ متأخرة . غير مباشرة . متّصلة بالعقل ، ذات علاقة بالتنظيم الاجتماعي : « عادةً يقول برغسون بأنّ للرجل المعزول ذاكرة . وانا لست من هذا الرأي . فالرجل المنفرد لا يملك ذاكرة ولا يحتاج

(1) P. Janet id. ibid., p. 99

اليها »[1] . ويضيف : « ان عمل الذاكرة هو عمل نادرٌ نسبياً . . فأنا لا استطيع الزَّعم ان لنا ذاكرةً كلّيةً ، واننا نحيط في هذه الذاكرة بكل ما رأيناه . ان هذا خيالي على الإطلاق ؛ وفي ذلك يكمن المبدأ الميتافيزيقي الذي ملأ الذاكرة الخالصة ، وهو افتراض اعتباطي كلياً » . فسوف نرى الذاكرة تتكوّنُ في زمنٍ مفتكرٍ به حقاً ، في زمن تواتريّ . وعليه ، تبدو الذاكرةُ مستنيرةً بالخيارات ، مؤكدةً ذاتها في اطاراتها وليس في مادتها . انها تمارس التخطّي الزمني للفعل التبايني . وبكلامٍ آخر . نستذكرُ فعلاً بشكلٍ اشد تأكيداً حين نربطهُ بما يليه ، اكثر مما يكون الامر حين نربطه بما يسبقه . ولا مفرَّ من المضي حتى هذا الاستنتاج المتناقض اذا سلّمنا بأن كل فكرٍ متنوِّر ـ إذاً مُعلّمٍ ـ يجب ان يعتمد على المسالك . والحال لا تكون المسالك ممكنةً الا اذا اناطت ذاتها بمستقبل وصرَّحت بغائيّتها . ان الزمنَ المعاشَ يمدُّنا بمادة الذكريات . لكنّه لا يزوّدنا باطارها ، ولا يسمحُ لنا بتوقيت الذكريات وتنسيقها . وهي ابعد ما تكون عن الذاكرة الخالصة . تظلُّ احلاماً مخلوطةً بالأوهام . والحال ، بما اننا نستطيع اجراء التفريغ امام عملنا ـ بكلام آخر نستطيع إبانته ؛ بكلام آخر ايضاً ، نستطيع كسر سببيّته الانهداميّة ـ فإننا نملكَ وسيلة تأطير ذكرياتنا . وبشكل متواصل نسترجع الفكرة العميقة الخاصة بالأطر الاجتماعية للذاكرة التي عرضها هالبفاكس Halbwachs في كتابٍ رائع . لكنَّ ما يكوّن الاطار الاجتماعي للذاكرة ، ليس تعلياً تاريخياً فحسب ، وانما ما يكوّنها بالحريّ هي ارادة المستقبل الاجتماعي . وتكون كل فكرة اجتماعية متجهةً شطرَ المستقبل . ان كل اشكال الماضي يلزمها ، حتى تولد افكاراً اجتماعية حقاً ، ان تترجم في لغة المستقبل

---

(1) P. Janet, loc, cit, p. 218 - 255.

البشري . منذئذٍ يمتنعُ ، حتى على الصعيد الفردي ، الاستناد حصراً وتخصيصاً الى حدس حميم ، الى معرفة قد يكتُبها الماضي سلبياً في نفسنا . ولهذا فإن بيار جانيه لا يتردّد في الكتابة(1) : « ان الفعل التبايني هو في نظري المنطلق الحقيقي للذاكرة » .

اننا في الفعل التبايني نعي بكل وضوح معنى السلبية . لإن النفي يغدو هنا سلوكاً . اننا نمارس الفراغ حقاً امام الفعل التبايني . ولا ريب ان برغسون قد يقول اننا نعاجل الى ملء هذا الفراغ ونحن نقوم باعمال اخرى . لكن الجدليّة ليست متوفّرة الى هذا الحد ، ويمكنُ ان نلحظ موقف الرفض الذي ينتظمُ بوصفه رفضاً .

ان مسألة استرجاع الذكريات قد تتنوَّرُ ايضاً حين نولي مزيداً من الاهتمام بـ اللحظة حيث تتحدَّدُ الذكرياتُ فعلاً وواقعاً . عندئذٍ سنرى دور تناسق الحوادث الجديدة ، الترشيد العقلي شبه الآني للأحداث المتصلة في ذكرى معقّدة . وقبل ان نهتمَّ بحفظ الذكريات ، لا مفرَّ من درس تحدّدها لإنها تُحفظ في الإطار ذاته الذي تتحدَّدُ فيه ، بوصفها كليّاتٍ عقلانيّة نسبياً . وعلى هذا النحو يقترحُ بيار جانيه ، بحق ، اضافة مسألة فقدان الذاكرة الى مسألة اللاذاكرة ، وبكلام آخر تعليق اهميته على انعدام الذاكرة اكبر من فقدان الذاكرة(2) . عندئذٍ ربما ندركُ دور الفكر الاحتدامي في تثبيت ذكرياتنا . فلا نحيطُ إلاّ بما جعلته اللغةُ محتدماً ؛ ويعتبر كلُّ حكم آخر عابراً(3) . فبدون تثبيت منطوق ،

---

(1) P. Janet , loc . cit . p . 232

(2) P. Janet , loc . cit , p. 225

(3) كما يقول جوروزالم (Urtheilsfunction, p.9) : « ان اللغة تزيد دائماً من احتدام ابسط الاحكام » .

مفصح عنه ، احتدامي ، لا تستطيع الذاكرةُ ان تستند الى اطرها . فلا بدَّ للفكر من بناء الزمن حول حَدَثٍ في الوقت ذاته الذي ينشأ فيه الحدثُ حتى نسترجع هذا الحدث في ذكرى الزمان الغائب . فبدون العقل ، تكونُ الذاكرةُ ناقصة وعاجزةً .

حينَ ندرسُ الشروط الزمنيّة لتثبيت الذكريات ، نـرى ايضـاً قوّة الاختزان الاستذكاري لحدث مرتقب ومنشـود . ويبـدو انَّ الارتقـابَ يُحدِثُ فينا الفراغَ وانه يعدّ العدَّةَ لاستئناف الوجود ، فيساعد على اكتناه القـدر ؛ وباختصـار ، يصنـع الارتقـابُ الاطـر الـزمنيّة لاستقبـال الذكريات . فعندما يقع الحدثُ المرتقبُ بكل وضوح ـ مفارقة جديدة ـ انما يتراءى لنا في شكل جديد تماماً . ولا يحدث شيءُ مثلما كان متوقعاً ؛ عندها يأتي الحـدث ليشبـع ارتقابنـا ويخيّبـه ، ليبـرّر تواصـل الإطـار العقلاني الفارغ وليفـرض تفـاصـلَ الذكـريـات الاختباريّة . وان كل اولئك الـذين يجيدونَ الاستمتـاعَ بالانتظـار حتـى وان كان محزنـاً سيعرفون بأي فنٍ يُصنع الاندهاش والشعرُ والاحتدام . ان الانتظـار يصنع المفاجأة والارتقاب . فيا له من فرح يثيرهُ اللقاءُ ! يكفي المرء ان يحبّ ، ان يخشى كل شيء ، ان ينتظرَ في اشد انواع القلق جنوناً ، حتى يبدو القلق المتأخـر فجـأة بأنـه هو الاجمـل ، الاضمـن ، والاحـبُّ . فالانتظارُ حين يصهرُ الزمانَ ويحفرهُ انما يجعل الحب أعمق . إنه يضعُ الحب الأشد رسوخاً داخل جدليةِ اللحظات والأوقات . فيعيد للحب الوفي فتنةَ التجدُّد . عندئذٍ تتثبّتُ في الذاكرةِ الاحداثَ المرتقبةُ بقلقٍ ؛ وترتدي معنىً في حياتنا . هكذا تكونُ الذكرياتُ الكبـرى هي انتهـاءُ الاحتدام ، انفكاكهُ في يوم ، في ساعة ، انها المكافـأة على رفض اولي لحياة شيء آخر خلاف ما نرغبه . وان المرء حين يباينُ الافعال الرديئة ،

وحين يتحمّسُ لتوقُّع ما هو غير منظور ، انما يناقض نفسَـهُ لكي يكون متناقضاً مع غنى السعادة . وإننا حين نناقضُ أنفسنا . يتثبّت الحدثُ في وجودنـا . ويكون الاستيعـابُ الجـدلي هو بالـذات قاعـدة تثبيت الذكريات . فلا وجود لذاكرة عاطفية بلا احتدام أولي ، بلا مفاجأة من جانب الأضداد

ان هذه الاطروحة حول التأطر الاولي للذكريات التي عملنا على تطويرها اولاً في المجال العاطفي الأقل مؤاتاةً لوجهة نظرنا ، تبـدو اكثـر وضوحاً وصفاءً في مجال الذاكرة العقلية حقاً . ان كل استذكار يقترن بعملية تخـطيطية تعزلـه حينا تنطلـق من تاريخ الحـوادث . وان هذا الترسيم هو اشبه ما يكون بشبكة رسم عقلانية او بمخطط واسع لسرد ماضينا . هذا المخطط يُظَنُّ انه يربط الوقائع ؛ وهو يفصلها في الحقيقة . مثال ذلك اننا حين نبيّنُ انَّ حدثين هما في تسلسلٍ منطقي ، يعطي السرْدُ الدليل على ان الثاني ناجم عن سلوك تبايني إنطلاقاً من الأول . كذلك حتى ندرك جيداً الزمان المنفتح امامنا ، يلزمنا ان نعيش وعـودَ المستقبل بالفكر ؛ ولا بد من احـلال قرار مخطـط الحياة محـل الشعـور الغامض جداً والضئيل بما هو مُعاش . فالمرء يشعرُ بالوقت بقـدر عدد المشاريع . ان الخيرات الحقّة ، تلك التي نعتقدها جوهريّة ، هي تلك التي يمكن تأجيلها الى المستقبل . ان هذا الارجاء لا يمكن انجازه استناداً الى مخطط تواصل مؤتلف ؛ لإن كل ما يكفلُ امنَه مردُّه الى العقل . اريدُ ان اؤجل مسرّتي الى الغد بكل طيبة خاطر اذا بيّنَ لي العقلُ ان مسرّتي ستكون افضلَ غداً . ان تنظيم الذاكرة متوازٍ مع هذا التنظيم للوقـت الحاضر . وتكون شروطَ الاستذكار هي عينُ الشروط الثبوتية البنّاءة . وان افراطاً في تحليل غير مقبول هو الذي يجعلُنا نفصلُ تثبيت الذكريات

عن استذكارها . ان الذكريات لا تثبتُ إلا اذا خضعت بادىء الامر لشروط التذكّر . اذاً ،إلاّ اذا خضعت بادىء الامر في الخيارات ، حين نصفي الحياة المضطربة ، حين نطرح وقائع من تيار الحياة لنضع فيه اسباباً وعللاً عقلانية . ان الوقائع تمكث في الذاكرة بفضل محاور فكرية . وتتميّز بعمقٍ فريد ، ثابت ، هذه الفكرة التي اطلقها بيار جانيه(1) : « ان ما انشأ الإنسانية هو السرْدُ ، وليس التسميع على الإطلاق » . ويمكن قول الشيء نفسه ، بأن الانسان لا يتذكّر بمجرد التكرار وانه لا مناص له من تركيب ماضيه . فالسمة هي حكاية النزوع في الأنا . يضاف الى ذلك ان بيار جانيه لفت الانتباه الى انه مع الاستذكار لا يكتمل عمل التذكر ابداً « فهو لا يتناهى عندما ينتهي الحدث ، لان الذاكرة تكتملُ في الصمت . ان الطفل الصغير يحضر الرواية التي سيرويها لأمه . . انه الاكتمال التدريجي للذكريات الذي يتمُّ رويداً رويداً . لهذا السبب فإنَّ الذكرى تكون بعد عدّة ايام افضل مما كانت عليه في البداية فهي افضل صنعاً واحسن انشاءً . ان ثمة بناءً أدبياً تمَّ ببطء مع اكتمالاتٍ متدحرجة »(2) . إذاً ، لا تتجمّعُ الحوادثَ على امتداد الوقت مثل حبّاتٍ مباشرة وطبيعية . فهي بحاجةٍ الى التراتب والانتظام في منظومة صنعية ـ منظومة عقلانية أو اجتماعية ـ تمنحها معنىً وتأريخاً . لهذا السبب فإن هذياناً غير ممنهج كفايةً لا يترك اثراً البتة . ولقد لاحظ بيار جانيه بحق(3) : « بعد الهذيان الصرْعي حتى المعقّد ، لا توجدُ ذاكرة . وليس مردُّ ذلك الى كونه معقّداً ، وانما لكون المرضى لم

(1) P.: JANET, loc . cit ., p. 261

(2) P . JANet, loc . cit., p, 266

(3) P . JANET. loc . CIT , P. 224.

يبتنوا فعل الذاكرة فهم بهيميون جداً في اثناء هذا الهذيان » .

هكذا تكونُ الذكرى عملاً صعباً في اغلب الاحيان ، فهي ليست معطىً . انها ليست شيئاً جاهزاً . وليس بالامكان تحقيقها الا بالانطلاق من قَصْدٍ راهن . فلا تنبثقُ صورةٌ بدون سبب ، بدون تجمّع الافكار وتداعيها . ويبدو انه قد يلزم لعلم نفسي اكمل ان يشدّد على الشروط العقلانية او الشرطية / الظرفية للعودة الى الماضي . وبشكل خاص ، ربما يستفيد التحليل النفساني من التشديد على الاهمية الراهنة للآلام الماضية . وفي اسلوب بيار جانيه بالذات تكونُ كل حكاية مزعومة لحلم هي سردُه ، روايته بالضبط وهذا ليس ببعيدٍ عن ان يكون تبريراً ، برهاناً . اذاً ، ربما يمكن تضعيف علم التحليل النفسي فيتساءل : لماذا حلم المريضُ هذا الحلمُ ؟ ويلزم ان يُضاف : لماذا يرويه ؟ هنا ، ربما نعودُ الى فحص الشروط الراهنة للمرض النفساني ، للذهان .

في نظر بيار جانيه ، بشكل خاص « تعتبر مسألة الاستذكار قبل كل شيء مسألة استثارة وتحفيز . والحال لماذا سينقطعُ فردُنا الذي باين الفعل ، عن مباينته ؟ . . ان مأثره الذاكرة ومعجزتها هي كونها انشأت فعلاً يستثارُ بخصوص شيءٍ ما غير واضح ، لم يحدث بعد . انه تحضير للانقياد والخضوعِ لإشارةٍ اخرى غير الإشارات العادية » . انها دوّامةٌ تنتظرُ فصّالها من خلال تطابق مقبل . اذاً ، الذاكرة لا تتحقّق تلقائياً ، باندفاعةٍ حميمة . ولا مناص من تفريقها وتمييزها عن الحلم وذلك بالضبط لإن الذاكرة الحقيقية تملكُ بنية زمانية فرعيّة لا يملكها الحلم . ان صورة الحالة مجانية . فهي ليست ذكرى خالصة لانها ذكرى ناقصة ، غير مؤرخة . فلا يوجدُ تاريخ وزمانٌ حيث لا يوجدُ بناءٌ : ولا

وجود لتأريخ بلا جدلية ، بلا فوارق . ان الوقت هو مجمّعُ سيامـات متنوّعة ، يسند بعضها البعض ، فاذا زعم المرءُ أنّه يعيشُ في ميدان وحيد ومؤتلف ، فسوف يدرك ان الزمن لا يعود قادراً على السير . انه ينطنط في احسن الاحوال . وفي الواقع يكونُ الزمن محتاجاً دائماً الى التغاير لكي يظهر متواصلاً . وهكذا ، يبدو متواصلاً من خلال اختلافه وتنافره ، في مجال آخر غير المجال الذي يُدَّعى لحظُه فيه .

دائماً وفي كل مكان تتبدّى الظواهر الزمنية من الوهلة الاولى كأنها في حالة تقدّم متفاصل . فهي تمدُّنا بسياقٍ من التعاقب . لا شيء اكثر ولا شيء اقل . وبوجهٍ خاص ، لا يكون ترابطها مباشراً ، فورياً . ففـي كثير من الجوانـب ، يكونُ التعاقـب حراً ؛ فهـو يتقبّـلُ انقطاعـاً في الأفعال ، واختلافات بيّنة كما سنرى ذلك حين نتفحّص عن كثب مسألة السببيّة وعلاقاتها بالزّمان .

الفَصْــل الثَالِث

الزَّمنُ الطبيعي والعلِّيةُ الطبيعية

I

في الواقع كل عليّةٍ تتجلىّ في تفاصـل الأحـوال. فيجـري تمثُّـلُ ظاهرةٍ بوصفها علّةً ، وتمثّل ظاهرة اخرى كأنها معلـول ، وذلك باحاطـة كل منها بسمةٍ تحدُّدها وتعزلُها ، مانحةً لكل واحدةٍ منهـا وحـدة اسـميّة ، ومظهرةً الطابع العضويِ الأساسي لكلٍ منها . فاذا دار الـكلام حول معلول محدود تماماً اريدَ بذلك استبعاد العرضي ، الحـادث . واذا دار الكلام حول علّة معيّنة انما يرادُ تصنيف المظاهر في الظاهرة ولا ريب ان برغسونياً سيرى في هذه التسـمية الجمـودية المضاعفـة مجـرَّد دليل على ضرورات لسانية ومكانية تسودُ عقلنا وذهننا . وسوف يستنجدُ بحدسٍ حميم لكي يتابع التواصل السببي بين ظاهرة واخرى . لكنَّ هذا الرابط المتواصل الحميم جداً لا يفصح عن ذاته ، بدوره ، إلاّ بكلمةٍ عامةٍ ، بدون برهان موضوعي . ولن يصل ابداً الى سيرورة العليّة . فمنذ ان يجري تحليلُ علّةٍ سيرورةٍ ، منذ ان يتوضّح تطوُّرها . انما تنقسـم هذه العلة السـيرورة الى احـوال متعاقبـة : وحـين يؤكّدُ ان هذه الاحـوال مترابطة ، تجري تصفية الزمان الذي يربطها بشكل مثير للتساؤل . فقد جُعلت العلّة ظاهرةً بالغة الكمال الى حد انه بات على العلّة ان تكتمل بمفردهاوان تجتلب المعلول في امد طويل نسـبياً ، بحيث لا يعـود ثمة اهمية لتعيينها .

نرجوا ان لا نتهم في وقت مبكّر جداً بالتجريد ! وان لا يُرى في ذلك بوجهٍ خاص انتساباً سرّياً الى الاطروحة البرغسونية عن زمان رياضّي قد لا يمثّل مدَّ الظواهر إلاّ بسلسلة من التقطيعات الأفقية ! كلا ، ليست العلة ولا المعلول مجرّد تقطيعات زمانية . هناك بنية زمانية لكل منهما . وهذه البنية تشكّل وقتاً لكل منهما . لكنَّ ما نؤكّدهُ هو ان هذا الوقتَ المتجمّد على نحو معينّ لكي يشكّل المعلول والعلّة كلاً على حدة ، ليس وقتاً فعّالاً إطلاقاً لربط المعلول بالعلّة . وليس لنا ان نحيط بالزّمن في العلّة ، ولا بالزّمن في المعلول حتى نربطهما زمنيّاً . ففي صميم العلّة ، لا يكون الوقتُ الاّ اعداداً وتحضيراً . وفي ما يتعدّى المعلول لا يكونُ الوقت سوى اهتلاكٍ وتخفيف . إنَّ ظاهرةً مديدة الاعداد لا تستجيبُ بشكلٍ اقوى من استجابة ظاهرة فجائية . ان العليّة الطبيعية لا تتكمّم بالوقت . فلا مفرَّ من التوصّل الى طرح الظاهرة العلّة والظاهرة المعلول بوصفهما حالتين مستقلتين ، وبما انَّ زمانهما الخاص غير فعّال ، فمن المناسب ان نفرغهما زمانياً على نحو ما . اننا فوق المنحنى الذي يؤدي الى عقلنة العليّة وترشيدها . لا شعورياً ، تتّخذ العلّةُ كأصل والمعلول كنتيجة . عندئذٍ يكونُ ترابطهما معاصراً ومتبايناً على السواء . فالعلّةُ والمعلولُ المعقولان يكونان جامدين في فرادتهما . ومنذ ان يجري استخراج احدهما من الآخر ، انما تُطرد اللاعقلانية من رابطتهما الزمانيّة : هذه الرابطة ليست سوى امكان ، سوى فصّال . واننا بشكلٍ شبه دائم نملك وسائل لتسريع المعلول عندما نكون قد ادركنا علتهُ من الادراك . فحينما نحضّرُ للمحاضرِ سكرّاً مسحوقاً ، سنعطيه الوسيلة للشرب ، كفصّالٍ ، دون ان ينتظرَ كأس الماء السكّري . ولا يوجدُ اي شيء موضوعي حقاً في الزمان سوى نسق التعاقب . وفي كل

حال ، حين نعود الى الميدان الراسخ للبرهان الفعلي ، في مجال الموضوعية المُناقَشة والتجربة البيّنة ، تكونُ الظواهرُ ماثلةً كأنها متعاقبة ومتفاصلة . والحكاية التاريخية للظواهر الطبيعية ملأى بالفترات الخالية التي يهملُها العالمُ بحقٍ : انها قابلة للإهمال ، إذاً لا مفرَّ من اهمالها .

II

سنرى في المقام الثاني ان التحقُّق من العليّة يمثلُ في مُناخ من المتنافيات ، في نوعٍ من الفراغ المنطقي ، الذي يزيد ايضاً من عزلة العلّة والمعلول .

فلنجْرِ هذه التجربة على مثال بسيط قدر الإمكان ، هناك حيثُ يكون الجانب الايجابي واضحاً وصريحاً للوهلة الاولى بشكل خاص . ان كانط يأخذ الحكم التالي مثالاً لتوليفٍ وثيق : إنَّ الشمس تدفىء هذه الصخرة . والحال تحت هذا الشكل الايجابي يتخفّى مجموعٌ لا يُحصى من الاحكام السلبيّة . وفي الحقيقة ، ليس الحكم التجريبي حكماً بَعْدياً فحسبُ ؛ بل هو حكم متأخر . إنَّهُ يختمُ مساجلةً . وان مبدأ العليّة يتلقّى هنا ، من خلال النفي على إطلاقه ، طابعه الضروري : لسنا متأكّدين الاّ مما ننكرُه وننفيه . ولنحاول هنا ايضاً متابعة سجال الرفض الذي يهيّءُ الانتساب الى العليّة .

قبل كل شيء ، وبوجهٍ عام ، يعني تطبيق مبدأ العليّة انكارَ فاعليّة جوهريّة . وبدلاً من ان تكون مقولة الجوهر ، كما يؤيدها شوبنهاور ، جواباً عن مقولة العليّة ، فإنَّ مقولة العليّة تنفي ، بوظيفتها ، الفعل السببيّ للجوهر . ان ظاهرةً تكون علّةً لظاهرةٍ اخرى . إن الأشياء

تتناقل العلّة ؛ إنهّا لا تستثيرُها . فالعلة الذاتية هي لغـوٌ او هي إلـه . وربما من خلال هذا السبيل تظهرُ العليَّة والمشاركة متناقضتين الى ابعد حدود الوضوح . وبقدر ما تكون صفةٌ ما معقولةً بوصفها اشتـراكاً في فاعليّته جوهرية ، تكون منفلتةً من نطاق التحليل السببيّ .

يضافُ الى ذلك ان إثباتَ فعل غريب ليس ايجابياً بعد تماماً او على الأقل ليس ايجابياً الا بقدر ما يكونُ غامضاً وعاماً . ومنذ ان يتوضّح هذا الابحاث يفسح في المجال امام لعبة المتنافيات . فلا تُميِّز سماتُ ظاهرةٍ ما إلاّ بالتباينات . وان طرح فعالية علةٍ ما معناهُ لحظُ انعدام فعالية شتـى الأسبــاب المفترضـــة . وعليه فإن التــأكيد بأنّ الشـــمس تدفىء هذه الصخرة . معناه الاثبات :

1) انها لا تتدفأ بذاتها ، بفاعلية جوهرية .

2) انها غير مدفأة بأي مصدرٍ آخر للحرارة .

زدْ على ذلك ان اطروحتنا ربما نكونُ اشدَّ كياسةً فيما لو استطعنـا تطويرها حول مثالٍ اكثر علميّة . لإننا قد نشعرُ عندئذٍ بالدور السجالي الضروري في الفــرضيات الباطلــة بيد ان هنــاك فائــدة طرائقية (ميتودولوجيّة) من تناول الموضوع بواسطة مثال مألـوف جداً كالـذي اختاره كانط . وفي الحقيقة ، ان المألوف يزيد من المظهر الايجابي الباطل الذي ترتديه تجربتنا . اننا سرعان ما ننسى تعلّم الاندهاش امام العالم البطيء والرتيب للتجربة البدائية ويتم التوصل الى التفكير رمـزياً لإن الظواهر الاجمالية تكون جامدة كالرموز . ويعتمـد على مجـاميع حسيّة متخيلين ان هذه المجاميع هي توليفـات . وفي هذه الـروحيَّة سنواجـه مجدداً بالاعتراض التالي : اليس هناك توليفُ للظواهر الضوئية والظواهر الحرارية عندما يضربُ شعاعٌ واحدٌ ايديناوأعيننا؟ او ايضاً في عبارة اكثر

واقعية ، اليس من البينّ ان تموُّج الشعاع هو ضوء وحرارةً في آن ؟ والحال ان هذا الاجتماع الحسّي ، اذ يضعنا على طريق الماهيّة ، انما يدعونا الى الجمود الفكري . وان اعلان الهوية ، حين يستبعد الفوارق ، انما ينهي التجربة . ومع ذلك فمن لا يرى ان تجربةً كهذه ما تزال في بدايتها فقط ؟ غير ان الجواب مبالغُ الوضوح الى حد انه يظهرُ جواباً حاسماً . انه بالغ السرعة لدرجة انه يبدو فورياً .

في المقابل يُفترض بنشاط تفكيري ان يقودنا الى الاستنتاج بأن توليفاً تجريبياً لا يمكنه ان يكون معطىً مباشراً . فالتوليف التجريبي ليس بَعْدياً فقط من الوجهة العقلانية ، من حيث مجانيّة التجربة . وانما هو بَعْديٌ ايضاً من حيث تدخل العقل السجالي . هناك فن جدليٌ كامل في اساس الجدال ، وهناك جدلية كاملة بين الباطل والصحيح تكمن وراء احكامنا الاختبارية . وان المحاولة التوليفية تركّز نجاحها دائماً على التناقض مع النكسات السابقة . من حيث الجوهر لا يمكنُ للعلّة ان تكون موضوعاً للحدس . لإن فكرة المعلول يفترضُ فيها ان تكون اشد تعقيداً من فكرة العلة ، فالمفارقة التجددية التي تتجلىً من العلّة الى المعلول يجب ان تكون موضوعاً لفكرٍ تقريري ، لفكر جدلي في جوهره . ولا شك انه يمكن للحدس ، بعد ذلك ، ان يحمل ضوءاً ؛ عندئذٍ تكون له قوّة عادة عقلانية ،لكنه لا يستطيع إضاءة البحث البدائي فقبل الحدس توجدُ الدهشة.

هكذا تتجلى العلّةُ من خلال تصفية الأخطاء . وفي هذه التصفية التي باتت واعيةً تكمن التربية الحقيقية للعلّيَّة .حتى انه ثمة فائدة لكي نفهم حقاً علّةَ ظاهرةٍ ما ، ونرفض اول وبصراحةٍ العلل المختلفة التي يمكن ورودها الى الفكر . ففي الواقع ، لم يوجد ابداً في تاريخ تعليمنا

وتربيتنا ظاهرة مباشرة امكنَ تسجيلها لحساب علّـةٍ واضحـة . فالعلّـة الواضحة هي دائماً علّةٌ مخفيّة . وسـوف تظهـرُ هذه الملاحظـة عظيمـة الاهمية بقدر ما نحسن الإحاطة بكون البحث السببي له دائماً ردّة فعل على المهمة الموصوفـة . وحـين نلحـظُ علّـة ، انمـا نميّزُ سماتٍ فاردة في الظاهرة المدروسة . ان كل علة فاعلة تغدو سبباً لتفسير بُنية فغالبـاً لا تدرَكُ البنيةُ إلاّ بالعلّة . وغالباً ما يكون انتشار العوامل الطبيعية هو الذي يرسمُ خطوطَ المادة . وهكذا تكون المادة علّة فاعلة وعلة شكلية على حدٍ سواء . اذاً ، ثمة نوعٌ من التوافق بين الشكل والتطور . وان التراتب الهندسي يحكمُ نسق التعاقب الزّمني . وعلى العكس . يستلزمُ الانضباطُ السببي نسقاً مكانياً . وتكون الظواهرية الكاملـة هي في آن ظواهـرية شكلية ، صورية ، وظواهريّة سببيّة .

اذاً ، لا يسيرُ الانتظامُ الظواهري دون إعدادٍ منطقـي للتجربـة ، وان قانوناً سببياً لا يعمـل بأمـانٍ الا بقـدر ما يكون محمياً في مواجهـة التغلّب . فلا اكتشافُ بلا حماية. وحتى نتابع العزل المنطقي بين العلة والمعلول ، لا بد من التأمل في قانون طبيعي معينٍ . وسوف ندرك ان الفكر اللفظي ، المتجمّع في ماهية جملة تافهة ، سيتجـزّأ الى صورتـين متمايزتين لدى القيام بأدنى مجهود توضيحي ، وستظهر هذه التجزئة بمثابة زمانين في مسارٍ له قبل وله بعد . مثال ذلك انني اذا اعلنت باديء الامر ان الحجر في سقوطه يكون منجذباً نحو الارض ، يكون عندي شعورٌ بظاهرة موحّدة . لكن الفكرَ الحدسيّ ، في هذه الاجابـة اللدوغمائية ، ليس فكراً فاعلاً في الواقع . ومنذ ان ارغب في ايضاح فكرتي ، سأجد نفسي في طريق برهانـي ولن اتأخـر عن رؤية زمـن التفسـير يتبلـور ويتجمّع حول مركزين متمايزين . ومن ثمَّ ، سأضاعفُ فكرة العمـل

الفعلي للأرض على الدافع بفكرة عمل بالقوة ، سابقة تماماً للعمل الفعلي . وسوف احلّل الواقع ـ ما تسميه اللغة المشتركة هكذا ـ بواسطة الممكن . وعندئذ سأدخلُ المفهوم الجمودي لحقل الجاذبية . وسأدرك اثر الارض في احتماله وامكانه اكثر منه في تطوره السببي الفعلي . وبوجهٍ خاص ، حين نعمق هذا المفهوم للحقل الوسيط كلياً ، سأجدني أكثر استعداداً لفهم الظاهرة المفصَّلة لسقوط الأجسام ، ولإدراك افضل لشروط تباين الظاهرة ، كما هو مثلاً حالُ الحساسية بتغيرٌ الانجذاب مع تغير الارتفاع ، التعريف الحقيقي للخط العمودي ، وهو التعريف الذي سأعطي بواسطته دوراً لمركز الأرض . أننا نرى بشكل كافٍ كيفَ تختنقُ العلة ، تنتظم وتتكاملُ . وعندما اكوّن قد درست الحقلَ على هذا النحو ، وعيَّنتُ شروطَ وحدود وحدته الشكلية ، عندئذٍ فقط سأدخلُ الحجر في هذا الحقل . ان الحقل سيغدو قوَّةً بفضل تعاون قوّة الدافع . وأن التوليف الذي يعطي المعلول سيتجلىً عندئذٍ بطريقةٍ ما مع بعد آخر للعلّة . فالعلة لن تعمل إلاَّ باضافةٍ ، بفضل تلاقي الشروط إذاً ، تحقُّقُ العِّلة لكي تعطي معلولها ، هو ظهور ، قيمة تأليفية . ان الفكر اللطيف ، المفصَّل ، المجرَّب ، المُعلَّم ، سيؤدي الى قيام تنافر واختلاف بين العلة والمعلول . وكلما كان التعليم أفضل ، كان التمييز أحسن . وسوف يجري تحليل استقطاب الجاذبية في « زمانين » وذلك باقامة العلاقة بين موضوعين : الدافع والأرض ، مع التمييز ايضاً بين زمان الممكن وزمان الواقع . وأن الممكن يفتح تحقيقاً برهانياً حيث يتصرَّف العقلُ السجالي بكل حرِّية . إن دراسة الدَّالأت الاحتمالية الرياضيَّة التي هي في أساس فيزياء الحقول الرياضية ، تتأسس ، شئناً ذلك أم

أبينا ، على فكرة القوة الميتافيزيقية . وأننا لنجد الطريقة الفكرية القديمة التي تتجلىّ في الانتقال من القوّة إلى الفعل ، مع تباين ميتافيزيقي في المنطلق بين الامكان والفعل ، بين العلّة والمعلول . وربما يكون بالامكان مع صهر عقيدة للعليَّة كهذه أن نكتشف الظهور الأدنى ، ذلك الذي يتجلىً في الزمان بوجهٍ خاص ، بوصفه الفعل الأول للزمان ، وبوصفه تدقيقاً خفيفاً للواقع الذي يعطي معلولاً نهائياً .

III

في كل ما تقدَّم ، لم نتناول مسألة العليّة الا من حيث تطبيقها ، او حتى ، بشكل ابسط ايضاً ، من حيث تفسيرها وعرضها . فقد اشرنا ، بوجه عام ، الى كيفية تعليم العلاقات السببيّة ؛ ولم نحدِّد ما هي هذه العلاقات بحد ذاتها . لا ريب ، في رأينا ، ان شروط التعليم هي ، بشكل رئيسي ، شروط الفكر الموضوعي . لكن ليس لنا في هذا المكان ان نطوّر هذه الأطروحة الشخصيّة فنحن نعلمُ ان لدى القارىء منذ أمد بعيد اعتراضاً احتياطياً : ماذا تهم طريقة تبيان هذه العليّة : ففيما يتعدّى تفاصل البراهين ، سيبقى دائماً هناك تواصل للعلّة الفعليَّة التي تعملُ في التواصل المزدوج للمكان وللزمان . وعلينا الآن ان نواجه هذا الاعتراض الرئيسي .

فلنلاحظ اولاً ان النظر في التطور السببي من خلال تواصل لا ينفد معناهُ تسجيلُ سرٍ في التطور ومعناه الغلوّ في غنى الصيرورة تماماً مثلما تغالي الواقعيّة الساذجة في غنى الهيولى . بكلامٍ آخر ، يُعطى للزمان فعلٌ كثيرٌ جداً عندما يُجعل حاملاً وجوهراً للفعل . فاذا كان الفعلُ الزمنيّ يشكّل حقاً الظاهرة فإننا لا نفهم المقاومة التي تبديها الاشكالُ في

مواجهة التشوية والتحـريف . وفي الواقـع ، يتوحَّـدُ الشـكل والعليّةُ ليسودا على الزمان والمكان . وكما يقول براريبه تماماً(1) : « عندئذ يكون الزمــانُ والمكانُ مخترقَــينْ بالعليّة . وتــكونُ هذه ضمنهمـا، وتغــيرّ شكلهما » . وعليه ، فان العليّة حين تحمل في اشكالها المتعدّدة اسباباً جمّة للعلاقات والأواصر والتعاقبات ، إنّما تجعل الزمانَ والمكانَ عضويين
زدْ على ذلك انه يمكن بهذه الوسيلة ان نرى كيف تعطينا العليّةُ معلومات وتعليمات حول الزمان المتباين . حقاً ، ليس هذا هو الاستنتاج الـذي اختاره بواريبه . فقد قادَهُ جهدُه التحليلي بالحريّ ، الى « اعادة الدور لمشاهدين لا يتأثرون بالزمان والمكان حيث تكون الاشياء ، والى اليأس من الصيرورة وادراكها العقلي » . لكن اليأس نفسه لا يطـول صانـع التوليفات العلميَّة ، العالم الذي يجمع شتى اشـكال العلّية فيؤول به المطافُ الى ان يركّب من قطعٍ شتّى ظواهرَ دقيقة ومتوقعّة . ان العلم المعاصر في حوزته متغيرّ الزمان وكذلك متغيرّ المكان ؛ وهو يعرف كيف يجعل الزمان فاعلاً او عادماً للفعل في خصوص كيفيات متمايزة . وشيئاً فشيئاً ، عندما ستكون تقنية الوتائر معروفة بطريقة افضل ، سنصلُ الى ملء الزمان بطريقة متفاصلة مثلما الذريَّةُ ملأت المكان .

فمن وجهة معينة ، لا بد لتقنية الصيرورة من الاقتدار على وقف فعل الزمان وحتى يكون هناك المعلول نفسه ، يلزم ان يكون هناك العلة ذاتها . ولكي يكون هناك العلة ذاتها ، ينبغي للزمان ان لا يؤثر على الظاهرة المحدَّدة جيّداً ؛ ولا مناص من الاقتدار على ردّ العلّـة الى ماهيّتها ، حتى يمكن ردّ المعلول الى هويّته . والحال ، لا يمكنُ لديمومةِ العلّة أن تتحقق بوضوح وتأكيد الا انطلاقاً من ظواهر معقلنة ، فلا يُحدَّد

(1) POIRIER, loc. cit., p. 17

تماماً الا ما نفهمه . وفي الحقيقة ليس هناك سوى العلة العضوية تماماً التي يمكنها ان تعطي معلولاً محدّداً تماماً . وبشكل دائم يُدرك مبدأ العليَّة بوصفه مبدأ سارياً بين صورتين متمايزتين وواضحتين تماماً ، وذلك بتصفية العوارض والتفاصيل معاً .

بكلام آخر ، هناك تراتب في الصيرورة مثلما هناك تراتب في جوهر الوجود . ان علّة ستحدّدُ معلولها بشكل منتظم على قدر ما تحقق مخططها العلمي الاساسي بشكل انقى واصفى . وان الاختبارات الفيزيائية التي تنجحُ افضل نجاح هي ليست الالطف والابسط ، وانما هي الاختبارات الاكثر عضويّة . انها تلك التي اتخّذت فيها الأختياطيّات الاختبارية بشكل منهجي وحيث جرى حصر التفصيل في دوره كتفصيل ، وحيث من المؤكد الطابعُ اللاسببي للتفصيل ، وعندما تقادُ بكل اعتناء معركةُ السجال حول التدبير الاحتياطي ، الوقائي ، نشعر اننا بعيدون عن العوارض والحوادث ؛ فنشعر بالقدرة على استثارة سلوك البدءِ العلمي وعلى تأجيل الظاهرة المعقلنة الى امدٍ محدود . يكفي ان نقارن الموجات المستعملة في الهاتف اللاسلكي مع الشرارات غير المنتظمة دائماً والعارضة ، الناجمة عن الآلات الكهربائيّة في القرن الثامن عشر حتى ندرك ماهيّةَ ظاهرةٍ خاضعة زمنيّاً . ويبدو النظامُ الحديثُ بطريقةٍ ما ، بوصفه نظاماً زمنياً مغلقاً ، ماثلاً في وتائره وايقاعاته مثلما يمثلُ شيءٌ ما في حدودهِ المكانية .

بعد ان يُتخَّذ على هذا النحو نوعٌ من التدبير النسبي حول الفعالية الزمنية لشتى اسباب ظاهرةٍ ما ، يكونُ من حقنا إعادة تكوين الصيرورة المعقّلة دون الاعتماد على زمانٍ مطلق ، خارج عن المنظومة ، يكون صالحاً لكل اجزاء المنظومة . ان كل جزءٍ من المنظومة يناسبُه ايقاع زماني

مميّز للمتغيّرات الآخذة في التطور . واذا كنا لا نراهُ فمردُّ ذلك الى كوننا في اغلب الاحيان نجري تجربتنا من وجهة نظر خاصة ، فلا نتناول سوى متغيّر خاص ، واننا نعتقدُ ترك كل الباقي « على حاله » . بيد انَّ الترابطات الزمنيّة تكون جليّةً في كثيرٍ من الاحوال وتهيء لمذهبٍ تعدُّدي في الزّمان .

في احيانٍ اخرى ، نذهب الى الطرف النقيض ، فندخل عندئذٍ تواصلَ تطور ما لنربط بين حالتين مختلفتين . وربما يلزمُ لهذا التواصل التطوّري تبيان التنافر في الأزمان التي تتعلّقُ بشتى سمات الظاهرة . وعليه ، يُتوقّع التواصلُ بين جانبين يتغيّران ببطء في ظاهرةٍ ما . لإنه ليس من الصعب ان تُرى تغيرات سريعة من وجهات نظر اخرى . وهذه التغيرات السريعة تقومُ بدور انتقالي ؛ انها مثالاتٌ للاحوال الانتقالية . لكن التطور التنافري ليس رابطةً حقيقية . ومما له مغزاهُ العميقُ ان يُرى التطور وكأنه فديةٌ لتركيب معقدٍ غير محُلّل . وعليه ، سيكون كافياً تعقيد المشاكل ، بإضافة اجزاء ضخمة الى الاجزاء اللطيفة والعديدة ، لكي يبدو متطوراً بتواصل . ان الطابع المتقطّع للحوادث ربما سيغدو عندئذٍ مُنصهراً ومُهتلكاً بكثرة عددها .

والحال ، ما هي المساعدة او الاضاءة التي ستلقاها تجربةٌ دقيقةٌ من مصادرة التواصل الزّمني ؟ ان زماناً لا يحلّله اي شيء سيمكن وصفه دائماً بأنه لا قيمة له الا من حيث هو « زمان قائم بذاته » . انه لن يكون زمانَ الظاهرة . وان الميكروفنومنولوجيا لا ينبغي لها السعي لتجاوز وصف نظام التعاقب ، او تعداد الحالات الممكنة وحسب . فهذا التعداد سيستوجب بعد ذلك زماناً احصائياً خالصاً لا تعود له فعالية سببيّة . هنا ندرك احد المبادىء الأساسية الشديدة الطرافة في العلم

المعاصر : احصاء مختلف حالات ذرة واحدة ،، في الزمان ، يكون تماماً هو ذاته احصاء مجموعة ذرَّات في لحظة خاصة . وحين نتأمل في هذا المبدأ ، لا بد ان نقتنع في الميكروفيزياء ، بان الزمان السالف لا يدفع الحاضر ، وان الماضي لا يضغط على المستقبل . وبما ان صورة تطور فرد واحد هي بكاملها صورة متماثلة مع صورة الحال في المجتمع . فان الشروط البنيوية يمكنُ تبادُلها مع شروط التطور . بكلام آخر ، هنا ايضاً ، تكونُ العليَّة عليَّة فاعلة مثلما تكون عليّةً شكلية . استنتاج آخر : ان صيرورة الذرة ، بمقتضى هذا المبدأ ، تنطبقُ بكل وضوح على عدد وليس على متواصل ؛ فصيرورةُ الذرة تنطنط لإن هذه الصيرورة تجد نظيرها في تعددية لا تحصى من الذرات في احوال مختلفة ، لاننا نجد الاحوال المتعاقبة للذرة وذلك بالانطلاق من ذرة الى اخرى . اذاً ، الجدلية الزمانية هي التطور البسيط المحض ، للجدلية الوجودية .

يضاف الى ذلك ان ثمة بين التجربة الاجمالية والتجربة الدقيقة انقطاعاً يقلبُ شروط الموضوعية رأساً على عقب . ولنوضح هذا الانقلاب . فالقولُ ان ظاهرةً إجمالية تتطورُ بين الحالة أ والحالة ب ، معناه ان بين أ و ب تفاصيل وحوادث اهملها لكنني قادرٌ دائماً على الاشارة اليها . لكن اذا اعتبرت البنية اللطيفة ، في حدود الإيضاح الاختباري ، فلا بد من الإحاطة بمصادرةٍ جديدة . ليس لتفصيل التفصيل من معنىً اختباري ؛ وعليه فإن تفصيل التفصيل يسقط في العدم المطلق للخطأ المنهجي ، الخطأ الذي تفرضه ضرورات الرصد والكشف . عندئذ يدور جدل الاكتشاف حول ايقاع الكل او لا شيء . فيحلُّ العددُ المتفاصلُ محل المعيار المتواصل . فلا يبقى شيء متواصل سوى الخطأ ؛ ذلك ان الخطأ مجرد هالة امكانات حول

المعيار . وتُعتبر التعيينات كميّات . وعندها يُفسر لماذا يتساقط الحبُّ هناك حيث ترتدي العليّة اشكالها المتناهية . اما اللاتعيين فهو نتيجة شبه فوريـة لطابع المعايير الكمي . ولا شيء يسمحُ لنا بنشر تواصل زمني لاجل تحليل المقاطع المتفاصلة . واذا فعلنا ذلك ، انما نأخذ الزمن من الخارج ، كوظيفة مناسبة ، كتوليف مفروض بشكل اعتباطي تقريبـاً على تشتت الظواهر . ومن المؤكد اننا لا نقرأ الزّمـن في تحليل واقعـي للظواهر .

حتى ان هناك نوعاً من التنـاقض في طرح تنـوُّعٍ في الظاهـرة لا ينضبُ معينُهُ في الوقت الذي تطرحُ فيه هوية استكشاف صارمة ، وفي الواقع بلغنا مستوىً من المعرفة تكون فيه المواضيع العلمية ما نقـوم به تماماً ، دون زيادةٍ ولا نقصان ، اننا نهيمن على الموضوعية . ان تاريخ الظاهرة المختبرية هو بالضبط تاريخ قياس الظاهرة . فالظاهرة معاصرة لمعيارها . والعليّة تتقوّى ، على نحوٍ ما ، بأدواتنا . وتغدو الموضـوعية اكثر نقاءً بقدر ما تخرج من السلبية لتغدو فاعلة بشكل اوضح ، وبقدر ما تنقطع عن التواصل لتغدو متفاصلةً بشكل ادقّ . اننا نحقق بدرجات فكرنا النظري . وينتهي بنا الامر الى انتزاع الظواهر المعقّدة من زماننا الخاص ـ وهو زمان مشوش دائماً ، ودائماً ملتبس ـ حتى نحلّلها في زمن فاعل ، في زمن منتظم ، في زمان ادواتنا . اننا نحسنُ ابطـاء وتسريع وتجميد الظواهر الزمنية الاشدّ تبايناً . واننـا نعـرف ، من طريق اداة قياس سرعة التردد Stroboscopie ، كيف نفصلُ ونستخلصُ الآنات الخاصة في ظاهـرة ايقـاعية . ونعـرف كيف نصنـع من هذه العنـاصر المنزوعة من سياقها تاريخاً صحيحاً وذلك بوصلها مع عناصرٍ مأخوذة من خارج النطاق الواقعي بأسره . ان التواصل الذي نبنيه على هذا النحو

هو ، بكل جلاء ، بدون ارتباط مع التواصل الواقعي بيد انه يملك كل صفات واسماء التواصل الفعلي . ولا مفرٌّ للفيلسوف من التأمل في البساطة التي يجري بواسطتها ابدال زمان الادوات ، هكذا ، من زمان الظواهر . ان بساطة التوافقات هذه بين الظاهرة « الواقعية » والظاهرة الأداتيَّة الستروبوسكوبية يجب ان توحي بفكرة تقول ان المهمة الأساسية للزمن هي بلا ريب مهمة « التوافق » لا اكثر ولا اقل . ان المطابقة بين نسقين معناه اعطاؤهما قانون التعاقب ذاته . وبعد انجاز التعاقب لا يعود الزمانُ مفيداً في شيء . لهذا فان التماثلات الزمنيّة التي ترسمها الستروبوسكوبية هي صورٌ صحيحة ودقيقة . انها تكسر الزمان . ومع ذلك تحتفظ بالسببيّة . واذا لاحظنا ، اخيراً ، من بعض الجوانب ان حواسنا هي اجهزة لسبر الأغوار سبراً منتظماً نسبياً وتقريبياً ، فسوف يمكننا بشكل اسهل ان نضع معرفة الزمان في حساب البناء . أن معرفتنا الاستعمالية للظواهر الزمنية ناجمة عن ستروبسكوبية لا واعية وكسولة . فالزمن هو الوجه الستروبسكوبي للتغير العام ؛ انه منطلقٌ وسط عناصر متحركة وعناصر ثابتة والاعتقاد بديمومة الاشياء معناهُ فتح العيون دائماً على المرحلة نفسها من مراحل ايقاعها .

هكذا ، تعلّمنا دراسة مفصّلة للعلاقات السببيّة ان نمارس الخيارات في تعاقب الظواهر . وان فعلنا على السمات الزمنية في ظاهرة ما اشد فعالية بكثير مما قد يبدو للوهلة الاولى . واذا عرفنا الجمع بين السمات المكانية والسمات الزمانية لظاهرة معينة ، نصل ، بوسائط مادية ، الى تأطير الظواهر الزمانية في إطار معينٌ . اننا نحبسُ الايقاع في صناديق الانغام . وعندما نرى ايقاعاً محفوظاً في هوائي هاتف لاسيلكي ، اذاعة او تلفزيون ، لا يمكننا ان نستبعد من الفكر صورةَ

فعل متبادل بين الهندسة والزمان ، عندئذٍ يكون من مصلحتنا ومن المفيد لنا ان نتناول الاشياء بوصفها نتاجات حقيقية لموجات ثابتة في محطات . وتكون المراحل وظائفَ زمانية ـ مكانية انها الوجه الزمني للأشياء المادية . وان الشيء حينما يتموَّج يكشفُ في آنٍ واحد بناءً زمنياً وبناءً مادياً .

إذا اضفنا الآن ان المراحل تترجم فوراً الى لغة الوتائر ، وان الوتائر تظهر بالنسبة الى بعضها البعض ، نرى ان ما هو مطلق وتواصلي في الزمن يفقد ألوانه ، ان لم يتلاشى . في كل حال ، ان تواصلية زمان مطلق قد تفيدُ في التأسيس للتمايز بين المراحل ، لكنها لا تعودُ هي هذه التواصلية الفورية التي يوفِّرها نظرٌ عام . ان السببيّة المدروسة انطلاقاً من الوتائر تلعب دورها فيما يتعدى التواصلية المفترضة في اساس زمان مرحلة . وبوجه خاص ، من الممكن ان ينحصر درسَ هذه السببية على مراحل وبوتائر ، كما نعتقد ، في نطاق دراسة إحصائية للحوادث الدورية . واننا نفترض مجاناً وعبثاً انتظام التموُّج المعزول بينما نستعمل في الواقع وتيرة ، موجة الاشعاعات المجتمعة . زد على ذلك انه يجب ان نلحظ ان معظم الظواهر المفسرَّة بالوتيرة انما تفسر بوتائر كثيرة العدد . وان الادوار الفلكية البطيئة لا تتدخل كعامل تفسيري . فالارض لا « تشعّ » ولا « تتموّج » اذا اعتبرناها من زاوية حركتها حول محددها . اذاً زمانُ علم الفلك ليس زماناً « منبنياً» بعد ، واذا اعتبرنا رتابة الدورة الارضية نفسر جيداً كوننا طبَّقنا عليها زماناً احدي الشكل ومتواصلاً . انه بالضبط الزمان الذي لا يحدثُ فيه شيء . انه تصميم ناقص ، لا يكفي لطرح واقعية الايقاع .

عندما نهبطُ الى الأشكال اللطيفة للعليّة المتعـدّدة . نشعرُ عندئـذٍ

بثمن التنظيمات الزمنية ، وهكذا يقلُّ ميلُنا الى اتخاذ العلل وكأنها مجـرَّد انقطاعات في صيرورة عامة . ان هذه العلل تشكّل مجاميع . وهي تفعل كمجموع ، متخطّية الفواصل غير المجدية ، بصرف النظر عن الصور التي تمثّل لنا الزمان كمدٍّ تكمن كل قوته وطاقته في حدوده . ان الطاقة السببية غير مركّزة في جبهة الموجة السببيّة . فالعلة تستوجبُ توافقات عضوية . وهي ذات بنية زمنيّة ، ذات فعل ايقاعي . وهي تنتسب الى طوبولوجيا زمانية ـ مكانية .

الى جانب الطابع العضوي للعلـة ، وبالاتصـال مع هذا الطابـع العضوي ، لا بد من افساح المجال ايضاً امام الطابع المشكالي والتفاصلي للتطـور المادي . عندئـذٍ يمكنُ للعلاقـات السـببيّة ان تزداد وضوحـاً بفحصها من الزاوية الحسابية . فلا مناص من الاهتمام بحسابية العليّة . وبهذا الصدد يحضّرُ لنا العلم الكوانتي الناشيء وسائل دراسية خاصـة يفترض فيها ان تتناسق عاجـلاً ام آجـلاً في دراسـة حسـابية للآنـات واللحظات الفعّالة .

الفَصْل الرَّابع

الزمنُ الذهنيُّ والعليّةُ الذهنيّة

I

حين نقلنا مسألة الفعالية الزمنيّة الى مجال العلم الطبيعي . انما اردنا فقط ان نواجه اعتراضاتٍ ممكنة وان نخضع لعادة فلسفية : وبالتالي نريد عامة ان يكون الزمن منذ الوهلة الاولى قوةَ موضوعية وان تعطينا الحركة اوضح معيار للزمن . فتراءى لنا ، حتى في هذا المجال بالـذات ، ان الارتباطات الزمنية لم تكن من القوة ووحدة الشكل والعمومية كما جرى التعبيرُ عن ذلك . ان خيط الزمان مغطّى بعقد . وان التواصل السهل للمسارات جرى تحطيمه كلياً بواسطة الميكروفيزياء . ولم يزل الواقع يرجف حول مقاييسنا المجرَّدة . ان الزمان يتأرجح بكميّاتٍ صغيرة .

لكنا لا نستطيع من خلال تأمل الظواهر الطبيعية الشعور الحقيقي بثنائية الزمن الميتافيزيقيّة . وبالتالي ، ما تزال الانكساراتُ عوارضَ في الموضـوع ، وهـي تتعـالى فوق كل مجهـود منهجـي وتنظيمـي . وعلى العكس ، فإن الانكسارات تتضافرُ مع اسباب قائمة في الفاعلية النفسية العليا ؛ واكثر من ذلك نقول ان تموجات الطاقة الصغيرة الموجـودة في النشاط النفساني الأرفع ، تجلبُ أفكاراً جديدة ، وهنا يمكنُ القول : مقابل تموجات صغيرة ، معلولات ونتائج كبيرة . ان فكرنا ، في نشاطه الخالص ، هو كاشفٌ زمني شديد الحساسية . وهو خليقٌ جداً برصد ولحـظ تفاصـلات الزمـان . ويكفـي لذلك ان نبتعـد عن كل حاجة

عملية ، كل هاجس اجتماعي ، وأن نصغي في ذاتنا الى الزمان يسري في شلالاته .

يضافُ الى ذلك ان الظواهر الطبيعية او الفيزيولوجية قد تعلّمنا دائماً ان نخضع ذاتنا للزمن، وأن نكون موضوعاً بين المواضيع، ان وجهاً كاملاً من الفنومنولوجية الزمنية يسوَّدُ عندما نحصر نفسنا في استشفاف تطور الظواهر . اننا نصف مجراها بسهولة كبيرة بحيث ينتهي بنا الامرُ الى الظن بأن الطابع الدينامي اقل ثباتاً ، اقل عموميةً ، واشد اختفاءً . وفي الواقع يبيّنُ تاريخُ العلم بوضوحٍ كافٍ ان الدينامية تنضاف الى السينمائية كمعرفة ثانية مشتقة . اشد صعوبةً وأسراً .

ومع ذلك ، اذا تركنا التأمل الموضوعي ، واذا آل بنا الأمر الى اختبارنا الحميم ، فإن كل شيء يتغيرّ ويغدو الطابعُ المُظلم هو الطابع المنير ، وينتقل اختبار الدينامية الحميمة الى المرتبة الاولى في حين ان تجربة حركاتنا تبدو مشتقة وثانويةً من هذه الزاوية ، تبدو لنا الحركات كأنها مجرد نتائج لقراراتنا ، مع الإحاطة ، وهذا هامٌ جداً ، بمصاعب تحقيق قراراتنا . ان هذا الجانب الاولي تماماً ، الذهني كلياً ، من جوانب صعوبة اعمالنا لا يجوز اهماله وانكارهُ . فهذا الجانب هو الذي يستطيعُ ان يعلمنا بأفضل طريقة عن الزمن الفعّال . وفي كل حال ، يجب للطابع الدينامي والطابع السينمائي ، المدروسين في تجربتنا الذاتية ، ان يعطيا انطباعين زمانيين مختلفين تماماً .

هناك ما هو اكثر ، ففينا ، يبدو الطابع الدينامي للوهلة الاولى في صورة الدوافع ، الاهتزازات ، النشاطات ، باختصار في صورة غير متواصلة . وحتى نمثّل على جدلية التواصل والتفاصل في علاقتهما

الزمنيّة ، ربما يكونُ الاسهلُ هو ان نضع حركاتنا في مواجهة النسق البدائي الاول ، للإرادة التي تأمرها وتسيرّها . وان ثنائية التواصل والتفاصل تكون حينئذٍ مماثلة لثنائية الاشياء والروح . لقد قلنا ما يكفي ، في فصل سابق ، حول المجهود المتواصل وكونه سلوكاً صعباً ، سلوكاً ثانوياً ، نتعلّمه ، حتى لا نضع في مصاف العناصر الفاعلة سوى الدافع في مجلاهُ الديناميكي . لكن عندئذٍ ، اذا كانت الحركة المتواصلة هي نتيجة فيزيولوجيّة ، واذا كان العنصر الاول في العمل هو الدافع ، اليس من الواجب البحث في تنظيم الدوافع عن جدارة وسيادة الفعل الذكي ؟ اذاً . سيتوجّب علينا ان نؤسس جبر الافعال كما يقول بول فاليري. وهكذا يبدو الفعل كأنه ذو صيغة معقدة بالضرورة ، ذو ترابطات وتوافقات متعددة ، مع وجود علاقات ديناميكية بين الدوافع محددة جيداً . عندئذ يكون للتوتر معنًى أول فلا يعود مشتقاً فحسبُ كما هو الحال في النظريات البرغسونيّة . ان التكميم،التسوير ، يتمُّ في مستوى الارادة وليس في مستوى العضلات . وبهذه الطريقة يتخذ العقل عليّةً فعلية واقعية . فهو الذي يستبعدُ الافعال المتناقضة ويحدّد التوافقات الفعّالة . ولا ريب ، ان هذه العليّة الذهنيّة يلزمها ان تحيط بالعليّة الطبيعية والعليّة الفيزيولوجيّة ؛ ولكن مع ذلك ثمة مكان لترشيدٍ عقلاني نفساني سيمنحُ الفعلَ العقليَّ فعاليةً خاصة .

II

حين نحلّل مجمّع القوة والمهارة يمكنُ في نظرنا ، ان نتخذ بأسهل وجهٍ اول معيار لهذه الفعالية المحدّدة جيداً ، المنظورة في مستوى الارادة ، فالنفسانية المستقيمة ، الماهرة ، هي نفسانية ملقّنة . فهي تدبّر الطاقات . وهي لا تتركها تسيلُ هدراً ولا تنفجر . فتعمل بحركات

صغيرة مفصولة تماماً عن بعضها . ومع وعي المهارة ، ستظهر هندسة كاملة مكوّنة بالضرورة من الخطوط المستقيمة ، والأضلاع . مناقضةً اللاوعي اللطيف للرحمة. فالرحمة لا يجوز ان تكون مُرادةً : فهي ذاتُ خطوط ؛ وليس لها محاور . انها نوعيّةٌ خالصة : وهي تزدري الكميّة والكم . وتمحو قدر مستطاعها تفاصلات التعلّم وتضفي الوحدة على الافعال البالغة التنوُّع . وفي المقابل يفترض بالمهارة ان تحافظ على التراتب الأساسي للحركات المتنوعة . انها مشكاليّة . انها كميّة تماماً . وللرحمةِ الحق في خداعها ؛ فالضلالُ ، بنظرها ، غالباً ما يكون خيالاً ، وهماً ، تنوُّعاً ، في حين لا يحقُّ للمهارة ان تتنوَّع . ولماذا ستبحث المهارة عن صهر القرارات المركَّبة ؟ هناك خطرٌ عليها حتى من جرّاء التخطي والتخلي عن الحساب الصريح ، الحر ، للارادات المفصولة .ومن وجهة المهارة تعتبر الخطوط المنحنية ذوات الانحرافات الكسولة خطوطاً للفكر المتدني ، للحياة الروحية الادنى . فهي تظهر مجدداً عند المسقط ، عندما سيرتدُّ الكائنُ الواعي الى الحلم والتخييل ، مستسلماً ومقهوراً امام المقاومات الخارجيَّة . ولا ريب ، ان هذه الخطوط المنحنية يمكن اعتبارها خطوطاً طبيعية جداً ، ولكن هذا بالضبط هو البرهانُ على كونها تستدعي وعياً وحذراً وروحاً اقل . فبنظر المهارة ، تعتبرُ الطبيعةُ فينا كما في خارجنا ، عقبةً اولاً . وبوجه خاص ان هذه العقبة الحميمة هي التي تجعل من المهارة مساجلة حقيقية حول الطاقة ، تجعل منها جدلية حقيقية .

لقد اشار رينيانو ببصيرته الثاقبة الى هذه الثنائية الاساسية في تحديد بعض هذه الحركات الماهرة . ولنستأنف معه ، مثلاً ، فحص المهارة في لعبة البليار ؛ فسنرى ان عالم النفس المشغول ، ليس في اوصاف

المجهود الخارجية ، وانما في وصف البنية المركزية ، تماماً في مستوى جدلية الزائد والناقص[1] . « ان لاعب البليار الذي حدَّد الطابة المستهدفة انما تدفعه اولاً الرغبةُ في تسديد الضربة فيستعد لإطلاقها ، لكن التوتر الملحوظ حتى في عضلات الذراع يوحي اليه بالخوف من إطلاق ضربة قوية جداً مثلما حدث له قبيل ذلك بقليل ، وعندئذٍ تتراخى العضلاتُ قليلاً . بدافعٍ من هذه الفاعلية التنازعية ؛ لكن انخفاض التوتر الذي يشعرُ به اللاعبُ وقتئذٍ ، والذي يتعلَّقُ بدوره بذكرى ضربةٍ سابقة كانت طائشة بسبب السرعة الناقصة الموجهة للطابة ، ذكرى توقظُ فيه الخوف المعاكس من تسديد ضربة اضعف : ففي تذبذبات الذراع الواسعة تقريباً والتي تقرِّب او تبعد عن الطابة رأس العصا قبل تسديد الضربة ، يرى شاهدُ اللعبة انعكاس التعاقب السريع جداً لحالات نفسية متعاكسة تستأثر بقدرٍ وتتباطأ اوتتعزز على التوالي لتؤدي الى النتيجة النهائية وهي تزويد الطابة بالقوة اللازمة » .
ان رينيانو لم يفحص هنا سوى الإطار الكمي لطاقة العضلات ؛ لكنَّه بينٌ تماماً ان الاستعمال الذكي للقوة بحاجةٍ الى معيارين متعاكسين في الزيادة وفي النقصان . واحسن ايضاً تبيان ان الانتباه المركَّز على نقطة الارتكاز في عضلة شديد التوتر انما يحدِّد ارتخاء عن طريق التفكير ارتخاء معاكساً تماماً للفعل الذي اعدَّته العليَّة الفيزيولوجية ولكن لا يمكن للعليَّة الفيزيولوجية ان تنتظر . فلا بد لها من استثارة الضربة الأقوى . لكن التفكير يفرضُ فاصلاً من اللافعل . ثم استنتاجاً معاكساً . ان الفعل يتمُّ من خلال تناقض . والارادة الماهرة ليست دائماً ارادة حسنة مستقيمة ؛ فالارادة الماهرة تحتاج ، حتى تعمل ، الى المرور بواسطة

RIGNANO, la psychologie du raisonnement, p. 51 (1)

ارادة سيئة . فلا يمكن حقاً تصوُّر المهارة في موضوعةٍ واحدية ، تحدث في زمان بلا حراك . اننا لا نملك في الواقع ذكرى جوهرية ، ايجابية ، موحَّدة ، من شأنها ان تسمح لنا بتكرار تام لعمل ماهر . فلا بدَّ اولاً من فحص الذكريات المتناقضة ، وتحقيق التوازن بين الدوافع المعاكسة ، وهذه العمليات البرهانية تصدمُ الزمان ؛ فتقطع التواصل في التطور الطبيعي . فلا يوجد يقينٌ حقيقي في نجاح فعلٍ ماهر بدون وعي اخطاء لاغية . عندئذٍ يتغلَّب الزمن المعقول على الزمن المعاش ، وتتحول جدلية اسباب التردد الى جدلية زمانيَّة .

III

اذا كنا لا نرى دائماً اهمية دور التردُّد الذي يفرضُه التفكير على صعيد الافعال ، فمردُّ ذلك الى كوننا قلَّما نقوم بتحليل نفساني للأفعال التي نتعلمها ونتفهَّمها جيداً ، ونعي نجاحاتها تمام الوعي . ففي الواقع . ينصَّبُ الجهدُ عادةً وبخاصة على وصل بسيكولوجية السلوك الذكي ببسيكولوجية المسلك الغريزي تقريباً والطبيعي نسبياً ، ولا شك ان هذه مهمة مفيدة . لكن حين نجعلها المهمة الوحيدة لعلم النفس ، يمكنُ ان ننجر الى تجاهل المعنى الخاص لبعض المسائل . وبالتحديد ، ان الفعل الصنعي ، الفعل المطبوع بطابع الفكر . غالباً ما يكونُ فعلاً بلا دافع ، او حتى ضد الدافع او انه فعل ظهر في مناسبة ظهور الدافع . انه اذاً يدخل تشكيل قوة تامة من القوى الدافعة حيث تتداخل وتتقاطع العليّات البالغة التنوُّع . ونرى إذاً كيف يمكن اعداد علم نفس كامل للتحرير الروحاني وذلك بالفصل ما بين كل هذه التداخلات ولكي ندرس المرحلة الاولى من هذا التحرير للدافع ، من الممكن ان نستعيد كل ما ذكره رينيانو حول الحس الفاعل بدون

اتصال . بعيداً عن العداء الضاغط في عالم الاشياء . فنرى ان هذه الحواس[1] « غالباً ما تفسح المجال امام هذه الحالة الخاصة من النزوع العاطفي المستثار مع وقف التنفيذ » . ان في ذلك نوعاً من التوازن الزائف الذي يوحّدُ الاضداد والذي يسمحُ بمنح فعالية شبه آنية لقرارٍ حسن الإعداد لكن موضوعٍ على لائحة الانتظار . ومنذ هذه المرحلة ، التي لا تزال فيزيولوجية تماماً ، يمكننا الاحاطة بأن فصّال الفعل لا يعمل من جرّاء التحقّق العادي لتطابقات فيزيولوجية . فلا بد ان يكون هناك إذنٌ بالفعل ، وانتسابُ الفكر الى الوجود . فهذا الانتساب ، هذا الحضور الفكري لا يُشعرُ به إلاّ في استراحة سابقة ، وذلك بمجابهة صريحة بين الممكن والواقع . عندئذٍ يكون الحضور الفكري معاصراً لدافع ، او بكلام افضل يكون نوعاً من الدافع ، دافعاً لبداية مطلقة . كذلك في حين ان سلوك البداية . في صورته البدائية ، كان ما يزالُ في ظل علامات واشارات موضوعية ، في الصورة الذهنية الخالصة ، فإن ارادة البدء تتراءى في مجانيّتها ، الداعية تماماً لتفوّقها على الأوليات المستثارة . اذاً لا يمكنُ لأسباب الحدوث الفيزيولوجية ان تخلط مع اسباب الفصل النفسانية ومن طبيعة الفلسفة التي تمحو هذه الثنائية في العلل والأسباب ، ان تقوم على ميتافيزيقيا خطرة ، على وحدةٍ لم تناقش نقاشاً كافياً .

إذا كنا على حق في هذا النقد ، فإننا نقترح مضاعفة كل تصميم محرّك بتصميم للفصّالات . وعليه ، لا يمكن لعلم نفس فعل مرتّب ان يدرّس دونما تحديد اولي لنسق اللحظات الحاسمة واهميتها الدينـاميّة . هكذا يسودُ النظامُ الزمانَ . فيعطي حقاً جَبْرَ الفعل : ومنه تنهمرُ الصورة ان

RIGNANO , loc . cit ., p. 45 (1)

تحليلاً وضعياً للحظات الفاعلية يمكنه ان لا يهتم بطول الفواصل الزمنية مثلما لا يهتم التحليل الوضعي بحجم العناصر الهندسية . ان ما يحسب حسابه هو مجملها وحده . عندئذٍ يكونُ هناك عليّةُ النظام ، عليّةُ الجماعة . ويكون لهذه العلية فعالية محسوسة بقدر ما تزدادُ ارتفاعاً نحو الافعال الاكثر تركيباً وذكاءً ويقظةً .

وان تصمياً محركاً، اذا اخذناه في صورة تصميمه للفصّالات ، لا يكونُ عندئذٍ اكثر من جهاز لا واعٍ . ومن الممكن ابطاء او اعاقة سيره بواسطة المتاعب ، والاستنزافات والأمراض ، ولقد بينّ برغسون بكل جلاء ان تحطيماتٍ كهذه لم تكن تتضمن اطلاقاً تحطيم الذكريات المحض . ان تصوُّرنا لذاكرة معقلنة . صارت اشد تنبّهاً من جراء إزالة كل ذكرى للزمان فلم تحتفظ الا بذكرى نسق العناصر من شأنه ان يقودنا الى الاستنتاج بأن الذكريات المحض تظلُّ صالحةً ليس بذاتها فقط وانما في اجتماعها ايضاً . ومن شأن الوسيط في تصميم الفصّالات ان يساعد على الإحاطة بحفظ الذكريات المركّبة ، الذكريات الوظيفية ، وهكذا نفسر ايضاً ان بأمكان تصميم فصّالات ان ينقل قوّته من عقلٍ الى آخر . فبواسطة تصميم الفصّالات تجري عمليات الايحاء والرقابة والأمر . ولا يجوز تجاهل اهمية هذا الفعل في البسيكولوجية الداخلية . لإن هذا الجانب ينعكس في كل شخص بشري وان جدلية حميمة للأمر والتنفيذ تظهرُ بكل وضوح مدى تفوّق الزمان المُراد على الزمان المعاش في شخصنا .

IV

حين نعي تمام الوعي نظام الفصّالات نبلغ مرحلة السيطرة على الذات في عمل معقّد وصعب . وحين نثق على هذا النحو بتفوّق العليّة

الـذهنية على العلية الفيزيولـوجية . انمـا نحصـل على ضمانـة ضد اللاقرار ، ونسيطر على التردّد الذي يطرح نفسه في كل تفاصيل العمل . ان الكل يأمر الأجزاء . وان التناسق العقلاني يمنح انسجاماً للنمـو . ومثال ذلك ان خطاباً طويلاً سيتدعّم بواسطة التناسق العقلاني فيما بين اسانيده الحسنة التنظيم فاذا طرأ تغلّب خفيفٌ في الـكلام . لن يكون الاضطراب الطاريء الا اضطراباً عابراً ، ولن يدمّر تواصل المجموع . ان مخطط الخطاب يفعل كمبدأ وحـدة . كسبب شكلي . انـه تصـميمُ فصّالات . ويمكن ابقاؤه في الفكر بمجموعة علامات واشـارات وجيزة وبسيطة .

ان هذا التصميم الخطابي هو من جهة ثانية صالـح جداً للتمثيل علـى سببية النظام . فنحـن نعلـم أن مجـرد التعاكـس بيـن حجتيـن ، حتـى وأن كانتـا مستقلتـين تمـام الاستقـلال عن بعضـهما البعض ، يمكنه تشويه خطاب بأكمله . كذلك ندرك في التأمل والهوية ان افضل الارتباطات لا تمثل في تواصل متقارب ، معاصر للتطور الفعلي العارض نسبياً ، وان البحث عن هذا التواصل المتقارب من شأنـه الظهـور في مستوى مستمعين غير متنبهين وغير اذكياء ، قليلي التحسُّس بالتواصل الذهني . كلا ، فالترابطات كبيرة تقوم بـين الحجـج المميزة والمصنَّفـة جيداً ، من خلال الخضوع لمبدأ العقلانية الجـدلية الرائـع المعبَّـر عنـه احسن تعبير في قول جاك ماريتان « التمييز في سبيل التوحيد » .

اذاً . يرتدي الفعلُ والفكر والخطاب ، المتراكمة كلها في قممهـا المتتالية ، تواصلاً تركيبياً يأمر بكل وضوح التواصل التنفيذي الأدنى . لكن هذا التواصل ما يزال اشـد حسـاسية . ومـا يزال يتـراءى اشـد فعاليةً ، عندما لا نكتفي بعرضه كأنه مرقاةُ منطقية تماماً ، جامدة كلياً ،

فهو بالتالي تواصل له فضل الديناميكية . ويجلبُ السرعة معه . انها وجهة نظر غالباً ما يهمل فحصُها والتدقيق فيها . ولا ريب ان علم النفس الاختباري يضع معايير عديدة لقياس زمان رد الفعل : لكنه يضعُها دائماً بخصوص افعال انعكاسية او افعال عادية . فهو لا يركز الانتباه على زمان حل المسائل المعقدة قليلاً . ومن ثم يبدو هذا الزمان المركَّب خالياً من اي معنىً موضوعي ؛ وبامكان الف حادث ان يأتي لابطائه ، ولا سيا فواصلُ التسلية او الاستراحة ما بين الافعال المكوِّنة التي تبدو واقعة اختياراً كما يحلو للمرء . وباختصار ، يظلُّ التواصل المركَّبُ منطقياً ، فلا يخطر في البال استخلاص قيمته النفسية كما ينبغي فعل ذلك حين نعتبر الحياة النفسية بوصفها ملتزمة بكل وضوح في مجهودنا لاجل الوعي الاقصى . ومع ذلك ، اذا اراد المرء ان يعود الى ذاته . فسوف يشعر بسرعة بالطابع الخاص جداً الذي تضفيه سرعة الفكر البرهاني عندما يربط بين مراحل استدلال برهاني حسن الصنع . هذه السرعة ليست مجرد حركة سريعة ، اذ تنضافُ اليها مزايا اليسر والحماس والاندفاع التي يمكنها ان تعطي معنىً دقيقاً جداً لطاقة خاصةٍ حقاً يمكن أن نسميها بحق الطاقة العقلانية . ان دينامية الفهم هذه تستوجبُ وعي حيازة شكلٍ ما . وأننا لا نشعر بذلك في المحاولة الأول ، ولا نرى ثمنه في النور الأول . فلا بد توضيحاً من أن تكون العليّة العقلانية صاعدةً . فهذه الدينامية معاصرة لبدءٍ مستأنف . عندئذٍ يكون بنيةً وبناءً . وهذه علّةٌ تعرف كيف تستأنف مفعولها فيما بعد . انها ايقاع . ولا نسودها الاّ بتحضير تعاقب الحوادث الذهنية ، فنبلغ بذلك تعاقباً حقيقياً حقيقياً بذاته ، مفرغاً تماماً من ازمان الحدوث والإفصاح ، مخفّفاً قدر الإمكان من جميع الموجبات الفيزيولوجية .

ان كل الأزمنة النفسانية ، الماثلة بكل وضوح في اقتناعات معقولة تتكوّن على هذا النحو ، لصالح تنافر الشكل والمضمون . ولصالح قانون عقلاني يتأكّد في التجربة دون انقطاع . ان الأزمنة تتكوّن أولاً . وهي تختنق ، ثم تمتلىء . وان ما يشغلها ليس هو دائماً ما يكوّنها حقاً . زد على ذلك ، أن الزمان ، المتواصل في الظاهر ، زمان النفسانية الدنيا ، النفسانية الرتيبة واللامتشكّلة انما يعزّز الشكل الأشد نقصاناً في الأفعال والأفكار الذكية . لكن من الواضح ان النظام المُراد يظلّ هو الواقع الزمني السابق . وعندما نهمل هذا التمييز الاولي ، نفتقر الى المبدأ التراتبي الضروري لتحليل المعارف الزمنية تحليلاً دقيقاً . فلا نرى تاريخ السفر الا بمقتضى جغرافيّته . ومن الممتنع الوصف الجيد بدون مبدأ تقديم اولي . ومن المتمنع وصف علم النفس الزمني دون تزويد اللحظات الحاسمة بعلّيتها الكبرى .

ان مذهباً كهذا في الامتلاء ليس من جهة ثانية رجوعاً الى ميتافيزيقية الملآن . لإن ثمة دائماً تنافراً بين المحتوي والمحتوى وثمة تفوّقاً للشكل . ولربما سنفهم على نحو افضل الطابع الأساسي لهذه الثنائية اذا اخترنا مثالات الأحكام الزمني التي يكون فيها التنافر بين المحتوي والمحتوى واضحاً بشكل خاص . ولتناول هذه المسألة سنعتمدُ على نظرية الاحكام التي عرضها دوبرييل Dupréel في صفحات فريدة من نوعها ، ان هذه النظرية تقدّم لنا امثلة جيّدة عن التكوين الفعّال للزمان . وتبيّنَ لنا بكل جلاءٍ ان الزمن ليس معطىً ، لكنه عمل مُنجَزٌ . وحتى نحفظ وحدته ، سنخصّص له امثولةً خاصة .

الفَصْـل الخَامِس

الإحكامُ الزَّمنيُّ

I

هاكم اطروحة تنطلق ، كاطروحتنا ، من تعارض الآنـات والفواصل الزمنيّة ، بكلامٍ آخر تميّز الزمان الذي نرفضهُ والزمان الذي نستعملـهُ ، الزمـان غـير الفعّـال ، المشتّـت في ذرّات من اللحظـات المتناقضة من جهة ، ومن جهة ثانية الزمان المتناسق ، المنتظم ، المحكم في وقتٍ وديمومة . ويسلّم دوبرييل بحق تسليماً كاملاً بأنّ الوصف الزمني للحياة النفسية يتضمَّنُ ضرورة طرح الثغرات والنـواقص . ومـن ثمَّ سيكون بالامكان ان نفحص كيفية امتلاء الثغرات ، وسيمكننا الزعم بانها صنعت لكي تملأ : لكم من الواضح تماماً انه ينبغي طرح الفراغ بين الحالات المتعاقبة التي تميّز تطور الحياة النفسانية ، حتى عندمـا لا يكون الفراغ سوى مجرد رديف لاختلاف الاحوال المتمايزة ، ان الطريقة الميتودولوجية لتحديد الفواصل الزمنية انما تتعزَّزُ بسبب ميتافيزيقـي : فلا مفرّ لنا من ان نفسح ، مباشرةً او مداورةً ، مكاناً للغائية ، نعنـي لتعيين الحاضر بمستقبل ليس قريباً البتّة ، ينسـبُ اليه عمـقٌ معـينٌ في شكل اساسي . واذا اردنا ان نلاحظ وجود تراتب اللحظات الفاعلة فاننا نصل بالطبع الى الاعتـراف بالواقـع الأولي للاطـار الزمنـي . عندئـذٍ سيكون تكيُّف اطار الحوادث النفسانية الباطنية تكيّفاً متواتراً . ان هذا التكيُّف التسلسلي ، التراتبي ، سينفلت من معوقـات تكيف متواصـل

وغامض حيث لا شيء يشدّد على اهمية اللحظات الفاعلة حقاً . وسوف يتصل هذا التكيف بالتكيف عن طريق العلة الشكلية ، الاساس العميق لنظرية برغسون في التطور الخلاّق . ان هذا التكيّف المتوتر هو الذي يصفه السيد دوبريل وصفاً سعيداً بالإحكام . انه يدرسه في كتاب لعنوانه وقع خاص : نظرية الإحكام Théorie de la consolidation . إنه بحثٌ في نظرية الحياة ذات الاستلهام الاجتماعي (بروكسل ، 1931) ، ولدى التأمل في منهج السيد دوبريل سرعان ما نؤخذ بالوضوح الذي تتميز به الامثلة المألوفة . ومن جهتنا ، حين نقرأ اعمال دوبريل ، نتجاسرُ على متابعة منهجنا ، الخائب لاول وهلة ، والقائم على تفسير الأدنى بالأعلى ، وتفسير الزمان المعاش بالزمان المعقول . فإذا تراءت بعضُ الأشكال الاجتماعية للسيد دوبريل بوصفها «بيولوجية في حالة النشوء » فإننا قد نكونُ على حق في اجراء قلب مماثل على صعيد علم نفس الزمان والتأكيد ان الزمان المعقول يكون زماناً معاشاً في حالة النشوء ، وبكلام آخر نؤكدُ ان الفكرَ يكون على الدوام ومن بعض الجوانب ، محاولة او مشروع حياة جديدة ، محاولة للعيش في شكلٍ آخر . للعيش الاضافي او حتى كما اراد صموئيل ، ارادة تخطّي الحياة ، ان التفكير في الزمان معناهُ تأطيرُ الحياة ، وهذا لا يعني استخلاص مظهر خاص من الحياة ندركه بوضوح اكبر اذا عشناه عيشة اعمق . وهذا يحتم تقريباً القول باقتراح العيش بشكل آخر ، وبتصحيح الحياة اولاً ، واغنائها ثانياً . عندئذ يكون النقد معرفة ، يكون النقد واقعاً . وسنرى ان هاتين اللحظتين من لحظات التأمل الزمني ستظهر ظهوراً متمايزاً بحسب الفلسفة الزمنية للسيد دوبريل ، البالغة البساطة والعمق في آن واحد .

II

حتى نُحسن فهم نظرية الاحكام فان الافضل هو الانطلاق من الصورة التي قدمها دوبرييل لتحديد «محكمات التعايش» الخليقة ذاتياً بجعلنا ندرك واقع «محكمات التعاقب» التي تهمّنا بوجهٍ خاص جداً(1) . «وبوجه عام يُمكن التمييز في كل اصطناع حالتين متعاقبتين متمايزتين : في حالة اولى تكون اجزاءُ الموضوع الواجب انشاؤه مجتمعةً ومنتظمةً في السياق حيث سيتوجَّب عليها البقاء . لكن في لحظة العمل هذه لا يستتب هذا النظام الا بوسائل خارجية ومؤقتة . وفي حالة ثانية ونهائية ، ومن خلال تكيُّف داخلي ، ستحتفظُ الاجزاء ذاتياً بالعلاقات الموقعيَّة التي يتضمَّنها الموضوعُ المكتمل فاذا كان المطلوب صنع صندوق خلال بضع لحظات ، سارعت يدا العامل الممسكتان بالألواح ، لجمعها بواسطة المسامير ، وبعد دقّ المسامير «يقف الصندوق تلقائياً» لقد انتقل من الحالة الاولى الى الحالة الثانية ، ويكون هذا الامر اشد ظهوراً في عملية الطحن ، فتظهر ثنائية الازمنة في هذه العملية موسومةً بسمة الطحن والشيء المطحون . وقبل اخذ الاسمنت ، تكون اجزاءُ الشيء قد وضعت مسبقاً في السياق المناسب ، لكن القوة التي تحفظُ هذا السياق تكونُ خارجيةً بالنسبة اليها ؛ هذا هو تصلّب القالب» . هكذا يكون ثمة انتقال من سياق عابر الى سياق دائم ، انتقالٌ من سياقٍ خارجي تماماً وحادث الى سياق داخلي وضروري . عندئذ يقدم السيد دوبرييل اطروحته حول محكمات التعاقب(2) . «ان ما يحدث بالنسبة الى العلاقات المكانية الا يمكنُ حدوثهُ ايضاً بالنسبة الى العلاقات الزمانية ؟

(1) Dupréel: théorie de la consolidation , p. 11 .

(2) Dupréel , loc . cit .; p. 16

الا يمكنُ ضمانُ بعض انظمة التعاقب اولاً بعلّةٍ خارجية ، فيمكنها من ثمَّ بلوغ حالة الإسناد الذاتي نعني حالة معاودة انتاجها ذاتها ، من خلال حركة الشروط التي قد تكون اقل غرابة بالنسبة اليها ، من خلال علّة باتت داخلية على نحوٍ ما ؟ » . انها مسألة مطروحة بشكل رائع تجعلنا نرى على الفور امكانية عقيدة الاستبطان التصاعدي للحياة والفكر . فهذا الباطن المصنوع من الخارجي ، تماماً من الوجه الآخر لتطور الهيولى يتراءى لنا قادراً بوجه خاص على اعطاء مخطط للزمان الذي يغتني بالحوادث ويشكل وقائع زمانية متمايزة .

فلنر اذا كيف ستتكوّنُ محكمات التعاقب هذه ، مواضيعُ علم النفس الزماني هذه ؛ ولنر كيف سيتقولب الزمان في اشكال زمنيّة محدَّدة . والافضلُ هنا ايضاً هو الانطلاق من المثال الابسط والاوضح الذي ضربه السيد دوبربيل . « ان الصناعة بحصر المعنى ، اي نشاط المجتمعين والذين توجههم الاهدافُ والغايات ، تمدُّنا على الفور بأمثلةٍ عن محكمات التعاقب ، فساعة الجدار ليست بشيء آخر . فبينما يكون الصانع الذي صنعها مشغولاً بضبطها ، تكون قد صارت محكماً للتعايش ينبغي ، بعد ذلك ، جعله ، محكماً للتعاقب . وحتى تدور ابرة الساعة مرتين في اليوم لا اكثر ولا اقلّ ، لا بد للساعاتي من تسريع او ابطاء الدِّقة وذلك بالاعتماد على آلة قياس منتظمة بدورها على اساس دوران الارض . ان نظام الاستناد الخارجي هو الارض هنا وآلة القياس الزمني Chronométre والساعاتي ، الكل معاً ، وبعد ان تبدأ الحركة كما يجب ، يتحول النظام الذي تطابقُ معه الى نظام داخل الأوالية : فقد تمّت عملية النقل والتثبيت ، وتمّ إحكام نظام التعاقب » . لقد اجتلبنا هذا النظام من الخارج كلياً ، وذلك بالانتقال من الكل الى الجزء .

ويمكننا الآن معاودة اكتشاف هذا المسار للإحكام الزمني كلما استقرَّ نظامٌ ما ، سواء في المجتمع ، ام في الذاكرة ام في العقل . هكذا سيبينّ لنا السيد دوبرييل ان الانتقال من عادة اجتماعية الى تعليم اخلاقي حقاً لا يتمُّ الاّ بإحكام . « فقد حل النظام الباطني للوعي محل النظام الخارجي للمصالح والاهتمامات » . هنا يتراءى الاستبطان ايضاً بوضوح اشد . فعندما سننتقل الى علم النفس الفردي سيكونُ من الأصعب تمييز الاستبطان ولكن مع ابقائنا المخطط الذي وضعه دوبرييل ماثلاً في ذهننا ، سوف نتعرّف الى فعله ونعترف به . مثال ذلك . « عندما يتعلّم ولدٌ خرافةً ويحفظها عن ظهر قلبه ، فإنه يجد نظام الاشعار اولاً في صفحة كتاب القراءة . وكلما خانته ذاكرته ، يلقي نظرةً على النص ، فيقرأه وتتلاشى تدريجياً كل ثغرة من ذاكرته . لقد تصفّى نظامُ المطبوعة . فالعلم هو التعلّم : وان ترتيب ما عملناهُ كان باديء الامر مستنداً الى قوة خارجية بالنسبة الى ادراكنا ، وهذا الادراك احكمه لحسابه ، وجعل كل قاطرة غريبة سطحية ونافلة »(1) . من الملحوظ هنا تماماً ان النظام ليس مسجّلاً بكل بساطة وتجريد ، وانما هو نظام اعيد بناؤه بأمانةٍ معقولةٍ ، مُرادةٍ معزّزة بدوافع تناسقية خاصة بذلك الذي يتعلّم . واذا تناولنا امثلة يكون الفكرُ فيها حراً أكثر ، سنرى ان الإحكام يتمُّ على اسسٍ تراتبيةٍ ذاتيّة اكثر .

ربما يمكنُ بسهولةٍ تطوير نظرية كاملة عن المعرفة وذلك بتقديم واستخدام اسلوب الإحكام . وبشكل خاص ، سنرى ، كما يشير دوبرييل الى ذلك في ملاحظة مكتوبة ، ان الاستدلال هو إحكامٍ

Dupréel , loc . cit ., p . 19 (1)

للأختبار ، وان الاستنتاج هو إحكامٌ للاستدلال . وربما يؤدي هذا التطبيقُ العام ، كما يبدو لنا ايضاً ، الى استنتاج نودُّ الاشارة اليه : هو ان كل الوسائل التي يتم الإحكام بواسطتها ، ومهما تكُن صنعيَّة ، فهي طبيعية في مجملها . انها تتراءى لنا صنعيّة لإننا لا نزال نرى فيها علامة مجهودنا الخاص ؛ فنحن نشعرُ جيداً ان المُعطى يصلنا من خلال انفكاك زماني ومكاني او على الاقل نشعر ان صلابته البدائية ، الاولى ، تنكسر لدى حصول اقل استعمال دقيق : اذاً . نحن سائرون نحو إحكام المعطى ؛ فنحن نحكمه على منوالنا ، مستعملين اساليب تقنية واساليب عقلانية على السواء . ومن السهل علينا ان نتّهم هذا المجهود الاحكامي بأنه يشوّه الطبيعة ، واننا في نقدٍ كهذا لا ندركُ ان الطبيعة تحتاج دائماً الى التكوين وانها تبحث عن اشكال التكوين من خلال النشاط البشري تحديداً . واننا حين نعيد وضع النشاط البشري ، كما يقتضي الحال ، في خط فعل الطبيعة ، سوف نعترفُ بانّ العقل هو مبدأ طبيعي ، ركن طبيعي . وان ما هو متكوّنٌ بالعقل انما يتكون ، بكل وضوح ، من خلال قوة الطبيعة .

اذاً يمكننا التأكيد ان الإحكام ينطبقُ بشكل طبيعي على مجال المعرفة مثلما ينطبقُ على مجالات الحياة والنشاط الاجتماعي ، وهذا الإحكام يسبق بالفعل تكوُّن الاشكال . وهو بالضبط مجموع العلية الشكلية والعليّة الماديَّة . وسوف نزداد فهماً للأمر عندما نتأمل في هذا التساوق الفريد من نوعه الذي اعلنه السيد دوبريل : « **لا يوجد تطور الا من خلال التفاعل** » . ربما لا يمكننا تعليق اهمية كبرى على هذا المبدأ الذي يبدو لنا مسلّطاً لأضواء مفاجئة على كل نظرية التطور . فكل ما ينمو يغتني من الداخل اولاً . ان الاغتناء الداخلي هو الذي يحدّد النمو . فالنمو

ليس إلا نتيجـة . ولقد احسن السيد دوبرييل القول(1) : « لم تنطلق الحياةُ من نواةٍ اولى نحو تفتح لا متناهٍ ، فهي تبدو ناجمةً عن تقدُّم من الخارج الى الداخل ، من حالة شتات الى حالة تواصل نهائي . فهـي ابداً لم تكن بمثابة بداية تنجم عنها تتمة لكنها كانت منذ الاصل بمثابة اطار يمتلىء ، او بمثابة نظام يغتني باستمرار ، اذا جاز لنا القول ، بنوع من الامتلاء المتصاعد . . حقاً ان الحياة نمو ، لكن النمو الامتدادي ، التوسـي ، شيمـة نسيج يكبـر او افـراد يتكاثـرون ، ليس الاحالـةً خاصة . واما الحياة في جوهرها فليست إلاّ نمواً بالكثافة ، ليست الا تقدماً مكثَّفاً » .

فلننتبـه جيّداً الى كون هذا التقـدم المكثّف الـذي يمـكن السعـي للافتكار فيه بوصفه تجوهراً للكثافة ، لا يعود فيه اي شيء سري عندما ندرسُ نظرية السيد دوبرييل . وبالتالي يجري تحليل كثافـة كهـذه من وجهة نظر شكلية بكل وضوح ، وهندسية اذا جاز التعبـير . ويجري تمثيل تطوره وعرضه بطريقة برهانية تماماً في تفاصيلها وفي تصويبها .

ان الألق الزمني ، المأخوذ هكذا من زاويته التحليلية ، لا يعود له الحق اذن ، وللوهلة الاولى ، في صفة التواصل : او على الاقل حتـى يكون تواصلُ الق زمني صادقاً تماماً ، واقعياً فعلاً ، ومضموناً كلياً ، سيتوجب ان تكونَ الفواصلُ الزمنية مستصلحة على نحـو مناسـب . وبدون هذا الاستصلاح الداخلي ، لن يصمـد الشـكل ؛ وسيتـلاشى كمحاولة فاشلة . اذاً ، يلزم دائماً تعزيز التواصل بالتصلُّب . وبذلك سنتوصَّل الى اكتشاف متنوعات في التواصل ذاته مثلما يوجد تنوعات في

(1) Dupréel, loc. cit., p. 38-39

مسارات الإحكام . ومثال ذلك ، اننا سنمنحُ التواصلَ لألقٍ زمني اما بزيادة كثافة الاعمال الكبيسة واما بنظم ظهور الاعمال الكبيسة ، المضافة . وبرجه عام سيكون الزمن الغني والزمن المنتظم نمطين تواصليين مختلفين تماماً . واذا كانت اطروحتنا صحيحة ، فسيكون بمكنة اضطرابات علم النفس الزمني تقديم نمطين اساسيين وفقاً لإصابة اطارات الإحكام الزمني ، او بخلاف ذلك وفقاً لاضطراب الاصلاح الداخلي للفواصل الزمنية . على هذا النحو سيكون ثمة نوعان من بطء التفكير حسبما ستبقى الخلايا فارغة او ستنكسر باستصلاح غير منتظم .

على كل حال ، يبدو لنا ان ميتافيزيقيّا الاحكام والاضافة هذه تضفي الشرعيّة والتماميّة على حدسنا الأساسي للسير في زمانين الخاص بكل تقدم : نظراً لإن مكانة الشكل والاضافة المادية هما اللحظتان المحتومتان في كل نشاط متناسق او بالحري مُتّسق ، في كل نشاط ليس مكوّناً فقط من العوارض والحوادث . وحده يستطيع نشاطٌ كهذا ان يتجدَّد وان يكوّن واقعاً زمنياً محدَّداً .

III

الى هذا الجهد الرامي لوصف تكوُّن محكمات التعايش اي تعين موضوع زمني حقيقي ، يُضافُ في فلسفة دوبريل ، محضٌ لطبيعة النسيج الزمني الصحيحة . وفي هذا الفحص يطوّر السيد دوبريل نقداً للسببيّة التي يبينُ طابعها الناقص بالضرورة . ويبيِّن من ثمَّ تدخل الاحتماليةِ الارجحية في ثغرات التسلسل السببي . وهكذا يهيء تجدد الارجحيَّة التي سنرغب في لفت الأنظار اليها . وسنجد اسس هذه الارجحية الجديدة في كتاب La cause et l'intervalle ou ordre et

probabilité (Bruxelles, 1933) وفي مقال منشور في مجلة الابحاث الفلسفية عام 1934 : « الارجحية الحسابية » .

يعلّم دوبرييل بحق انه يوجد دائماً تمايز ضروري بين العلة والمعلول ؛ وحتى عندما ينجم هذا التمايز فقط عن ضرورة طرح تعريفين لتحديد الظاهرتين المقصودتين ، فانه مع ذلك سيؤكد وجود مسافة منطقية . وهناك فاصل زمني يتطابق دائماً مع هذه المسافة المنطقية . ومن وجهة السببية بالذات ، يعتبرُ هذا الفاصل جوهراً مختلفاً تماماً من جواهر السببية . وعليه لا يمكن ان تتدخل المعوقات والعقبات والانحرافات الا في هذا الفاصل الزمني ، وهذه ستكسر السلاسل السببيّة إحياناً . ولا بد من اخذ إمكان التدخل هذا كلياً بوصفه إمكاناً خالصاً وليس كواقع مُنكر ، متجاهل . فلسنا نفتقر الى توقّع الفعالية المطلقة لسبب معينٍ ، لإننا نجهل ما سيطرأ ؛ وانما ذلك مردّه الى وجود تدخل محتمل جداً ، بين العلة والمعلول ، من الحوادث غير المرتبطة بأية طريقة بالمعطى السببي . وبوجهٍ خاص ، لن يكون لنا الحق ابداً في منح نفسنا فاصلاً زمنياً ، ففي العلم ، يمكن بناءُ بعض الظواهر . ويمكنُ حماية فاصل بعض التقلبات ، لكننا لا نستطيع استبعاد كل تدخل للظواهر غير المتوقّعة في الفاصل بين العلّة والمعلول .

نشعر جيداً حتى الآن بالقرابة بين مفهوم دوبرييل ومفهوم كورنو ، لكن هناك في مفهوم دوبرييل تدقيقاً اضافياً ، وهذا التدقيقُ حاسمٌ . فما يحدد المصادفة هنا ليس ، كما هو الحال عند كورنو، التقاطع العَرَضي بين خطين سببيّين قد يكونُ لكل منهما تواصلُه القاطع ، وبالتالي ، ليس بامكان المصادفة كما يراها كورنو في حدسه ان تزوّدنا بأية معلومات

احتمالية : انها تعتبر محض حادث ، عارض . واما الضوء الذي تحمله نظرية دوبرييل فهو إفهامنا بأنَّ الاحتمالي يتعلّق بأي سلسلة سببيّة نأخذها بمفردها(1) : « إن طريقة تعبير كورنو ، المستسلمة كلياً للغة السلفيّة ، تجعلنا نشعر ايضاً بأن المصادفة او الطاريء ليس بذاته سوى حادث عارض ، وكاستثناء وشذوذ عن القاعدة ، هناك مسارات لوقائع ممكنة بدون تدخله ، وكاملة بدونه . ان الحدث الطاريء ربما يتكوَّن من عنصرين من طبيعة اخرى ، من وقائع معلولة ومن تلاقيها . هذا مفهوم شائع يجب ان نتجنّبه ؛ فالطاريء ليس من طفيليات السببيّة . فهو من مقومات الواقع ذاته . .

« في الحقيقة كل واقع معروف يكونُ كذلك من زاوية نوع من تسلسل الاحداث المتعاقبة او المتلازمة ، المدروكة بوصفها حدودا منتظمة لنسق واحد ويوجد بينها فاصلٌ مشغولٌ دائماً بحوادث معيّنة . واذا نظرنا فقط في الحوادث المحددة للسلسلة الحسابية النظامية ، فإننا لا نطول واقعاً ابداً . بل نطول فقط مخطّطاً مجرّداً ، لانه من الميتافيزيقيا الرديئة ان نفترضَ جسراً « لأجل ذلك » ، كما سيكون حال السببيّة بذاتها ، جسراً من شأنه ان يصهر حدود السلسلة ويربطها ببعضها البعض وذلك بالقفز فوق فاصل الزمان او المكان القائم بينهما دائماً . وبخلاف ذلك ، اذا زعمنا ملامسة وتعيين الفاصل المحض ، اي نوع من الواقع خارج كل سلسلة نظامية يتأخّرُ فيها او يتعارضُ معها ، فمعنى ذلك سيكون الجري وراء شبح : فلا يمكن ادراك اللامتعينّ بصفته هذه » .

هكذا ، ليس من الصعب على دوبرييل تبيان ان اطروحته تأخذ

---

(1) Dupréel, la cause et l'intervalle , p . 23

بالاعتبار الواقع بكليته نعني انها تأخذ في آن واحد واقع العلة والعقبة ، الواقعة والامكانية ، ما يحدث وما يمكن حدوثه . وان الإلحاح على ضرورة الاسباب ، مع الاستبعاد ، في الفكر ، للأعراض والحوادث التي تعوقُ بالفعل تطور.هذه الضرورة ، معناهُ ممارسة الفلسفة المدرسية حقاً ، وتحقيق نوع من التجريد . فلنأخذ علّة فاعلة مثلما نشاء ، فسوف ينوجد دائماً في تطور فعاليتها حقلاً حراً لإمكانات التوقف او الانحراف . ولا بد من الإحاطة بهذه الامكانات حيث تتلاقى ، في الاشكال حيث تتلاقى في الفاصل حيث تطرأ لكي تعدّل إحصائياً من المعلول المُرتقب . وبوجه أخص ، لا مفرَّ من الاحاطة بذلك في وصف مسلك معقول حيث تغدو الامكانياتُ عناصر مقرّرة .

اخيراً ، ثمة مفهوم جديد لدوبرييل . هذه الامكانية ، المأخوذة في التسلسل السببي ، بدون الخروج من السلسلة السببيّة ، التي تظهر في مجلى ارجحية لطيفة جداً . بسيطة جداً : **الارجحية النظامية** . وتكون الارجحية النظامية الخالصة مطبوعة ، في جوهرها واساسها ، بطابع التقلب البسيط بين علامتي الزائد والناقص . وان الحدث الذي تشيرُ اليه يتراءى فقط كأنه اشد ترجيحاً واحتمالاً من الحدث المناقض . انها غير مكمَّمة . فالتكميم / التسوير الذي يقودُ الى حساب الارجحيات لا يظهر الا عندما نتمكن من تعداد الحالات الممكنة ، مثلاً في حالة الظواهر الأشد اختصاراً كالتي تطرحها تركيباتُ الألعاب ، وعندما سيتعلّقُ الامرُ بظواهر تفصلُ بينها مسافة منطقية كبيرة ، كما هو الحال في ظواهر الحياة والنفسانيات ، يمكننا التساؤل عما اذا كان الحساب سيكون ممكناً على الدوام . وفي الواقع ، ان الأرجحية النظامية هي التي تحدّد مسارات النفسانية الفردية .

ان هذه الارجحية النظامية هي الرابطـة التـي سوف تتمـكن من جعلنا نفهم التسلسلات الزمنية في « التجليّات » المرتفعة اكثر فأكثر ، وبالتالي ، في كل ظاهرة تجلٍ ، في كل مظهر يتجاوز مقوِّمه ، يمكننـا ادراك تعيين للتطور اكثر جلاءً ووضوحاً بواسطة الارجحية وليس فقط بواسطة السببيّة . بكلام آخر ، ندرك ان الكائن الحي والكائن العاقل هما اقل تضمُّنـاً في الضرورات من تضـمّنهما في الارجحيّات . وهـذا التضمين يحفظ الحريات تحديداً لإن الامر لا يتعلق بأكثـر من ارجحية نظامية . وان الارجحيات المكمَّمة . التي تحيط بالنتائج بعد وقوعها ، يمكن ترجمتهـا في شكل قوانـين ضرورية ظاهـراً . وتتـراءى الأرجحية النظامية ، قبل القرار ، امام خيارٍ يطرحه سلوك يجبُ البدءُ به : انهـا تنحني بدون لزوم ذلك .

ومنذ ان نعاود دمج الارجحية في السلوك ، وذلك في هذا الشكل البالغ اللطافة الذي هو شكل الارجحية النظامية ، لا يعود لاعتبارات الغائية ، كما يقـول ذلك دوبـرييل على احسـن وجه ، من موجـب لاستبعادها من عقائد الحياة . والحال ، حتى اذا لم تكن الغاية مدروكة بكل وضوح ، تكون الارجحية النظاميّة مضاءة مع ذلك إضاءة غامضة نسبياً من جانب الغاية المرتقبة . ان للغاية ارجحية نظـامية اقـوى من مصادفة معيّنة ، وان الارجحية النظامية الأقـوى هي بذلك غاية ! ان مفهومي غاية وارجحية نظامية هما اقرب الى بعضهما البعض من تقارب العلة والارجحية المكمَّمة . ومع المفهوم الجديد ، تتجمَّد متعارضـاتٌ كثيرة بين الاوالية والحيويَّة . وحين نتابع فلسفة دوبرييل ، نجدُها مناطة بمخطَّطات بالغة المرونة لفهم الأواصر بـين شتـى مستـويات التجليّ . وسوف نطرح المسألـة في ضوءٍ مختلفٍ نسـبياً وذلك بدرس التراكبـات الزمنيّة .

الفَصْــل السَّادِس

التراكباتُ الزمنيَّة

مثلما تؤدي دراسة زمانية للجمالية الموسيقية والشعرية الى الإعتراف بالتعدد وبالترابط المتبادل تماماً فيما بين الايقاعات والوتائر ، فإن دراسة محض زمانية للفنومنولوجيا تؤدي للنظر في عدة زمنٍ من اللحظات ، في عدة ازمنة متراكبة ، تقـوم .فيما بينهـا روابـط شتـى . فاذا كان زمـن الفيزيائي قد استطاع ان يتـراءى حتـى إيامنـا هذه كأنه زمـنٌ واحـد ومطلق ، فمردّ ذلك لكون الفيزيائي قد وضـع نفسـه ، منـذ الوهلـة الاولى ، على صعيد اختباري خاص . فقد ظهرت التعددية الزمانية مع النسبية . فالبنسبة الى النسبية ثمة عدّة ازمان تتوافق ، بلا ريب . وتحفظ انظمة حدوث موضوعية لكنها مع ذلك لا تحتفظ بأزمنـة مطلقة . ان الوقت نسبي . الا ان مفهوم الازمنة في مذاهب النسبية ما يزال يتقبّل التواصل بوصفه طابعاً جليّاً . فهذا المفهوم هو ، بالتـالي ، ممـا تعلّمـه حدوسُ الحركة . وليس الامرُ كذلك بخصوص الفيزياء الكوانتي . هنا الفيزياء موجود على صعيد جديد ، وما يحدد حدسـه ليس الحـركة بل التبدُّل . وان كل المصاعب التي نواجهها في تمثُّل المذاهب الكميَّة تتأتى من كوننا نفسرّ تبدُّلاً نوعياً بواسطة حدوس التبـدل الموضعـي . واذا اردنا التأمل في التبدُّل المحض ، فسنرى ان التواصل هنا هو مجرَّد فرضيَّة فرضية رديئة جداً ، لإننا لا نختبرُ ابداً تبدُّلاً متواصلاً . إذا لا بد من

الافتراض ان تطور الفيزياء الكوانتي سيستلزمُ مفهوم الازمنة المتفاصلة التي لن تكون لها خواص التسلسل التي ترسمها حدوسنا عن المسارات المتواصلة . ان الصيرورة النوعية هي بالطبع صيرورة كوانتية . ولا مفرٌ لها من اجتياز الجدلية ، والانتقال من الذات الى الذات من خلال المرور بالآخر .

بالطبع لو كان بالإمكان تأسيس علم إحياء تموُّجي وكوانتي ، على اسس الميكانيك التموُّجي والكوانتي ، فسوف نجدُنا باكراً في حضرة استمطارات زمانية قد تستلزم ، في سبيل تحديد فعاليتها الزمنيّة ، احصائيات خاصة ذات علاقة بالظواهر الجزئية الحيويّة .

إن كتاب السيد لكومت دي نوي يقدِّم في هذا المجال جملة اقتراحات مفيدة . فبنظره ، ليس الزمان الفيزيائي سوى غلاف الأزمنة البيولوجية الفرديّة ، بالمعنى ذاته الذي تكونُ فيه موجةٌ مضيئة غلافاً لعدة مويجات اولية . اذا يُعتبر التواصل نتيجة تراكباتٍ زمنيّة(1) . وبالامكان المضي الى ما هو ابعد والقول بأن الزمان قد يكون متواصلاً بفعل الانتظام الإحصائي لانظمة خلاياه غير المنتظمة بالضرورة .

لكنّ الفيلسوف لا يحتاجُ الى الهبوط في هذه الأقاليم المحرَّمة مؤقتاً ، لكي يسلّم في ان واحد بالتعدّدية وبالتفاصل الزمني . فصعوبة البقاء في تأمل خاص تظهر له بشكل واضح تمام الوضوح زمناً مصنوعاً من العوارض اقرب الى اللانتائج الكوانتيّة منه الى الاتساقات العقلية او المقوّمات الفعلية . ونعتقد ان هذا الزمن الروحي ليس مجرد تجريد

---

(1) Leconte du Novy , le temps et la vie , paris , 1936.
الزمن والحياة ، باريس ، 1936 ، راجع الفصل التاسع بوجه خاص .

للزمن الحياتي . ومن ثمّ يكون لزمن الفكر تفوّق على زمن الحياة يمكّنه احياناً من امر الفعل الحيوي والراحة الحيويّة . وهكذا يكونُ لزمن الروح فعلٌ في العُمق ، في ميادين مختلفة عن ميدان حدوثه الخاص . وله بالطبع فعلٌ على الصعيد الروحي المحض كما حاولنا اظهار ذلك من خلال دراستنا السببيّة الذهنية . حقاً ان هذه الاشراقات القليلة غيرُ كافيةٍ لإنارة سبيلنا امام تعدد اختباراتنا الزمنية . ولكنها تستطيع ان تبينّ لنا جانباً من اطروحتنا : للزمن عدّة ابعاد ؛ وللزمن كثافة . وهو لا يبدو متّصلاً الاّ في ظل كثافة معيّنة ، بفضل تراكب عدة ازمنة مستقلّة . عكسياً ، تكون كل بسيكولوجيا زمنية موحّدة ناقصةً بالضرورة ، جدلية بالضرورة. وهذا ما سنحاول البرهان عليه ايضاً ، بواسطة حجج واسانيد جديدة ، في هذا الفصل .

II

اذا تجاسرنا على اسناد اراتنا الشخصيّة الى مذهب كبير ، فسوف يتوجب علينا هنا التذكير ببعض الموضوعات الهيجليّة . وبما أننا نريد القيام فقط بعمل عالم تربية ونريد ان نتعلم رسم صورة اولى لتموّجات الزمنيّة ، فإننا لم نُرِدْ الانطلاق من ميتافيزيقيا بالغة الصعوبة كميتافيزيقيا هيجل . كما اننا كنا نخشى تهمة الاستغراق في المنطقية Logicisme فيكون لدينا جدلية منطقية اكثر منها زمانية ، ولكن كم تكون هذه التهمة باطلة عندما نوجّهها الى المنهج الهيجلي ! هذا ما اقدم كويري على تبيانه في كرّاس يساوي كتاباً جليلاً . وبالواقع لم يحدث أن تم تحديد الطابع العيني للمثالية الهيجلية بمثل هذا الوضوح وهذه السرعة(1) : ان ما يسعى هيجل الى تقديمه لنا . . ليس مطلقاً ، تحليلاً

(1) KOYRE , loc . cit., p. 444 .

لماهيته الزمن . بل على العكس تماماً : ان ماهية الزمن ، الماهية المجرّدة والفارغة التي شرع هيجل في تحطيمها وهو يبينّ لنا ، وهو يصفُ لنا ، كيف يتكوّنُ الزمنُ في الواقع الحي للروح . استنتاج الزمن ؟ بناء ؟ ان هذين التعبيرين غير صالحين كليهما . لإن المطلوب ليس التحطيم ، حتى جدلياً ، ولا البناء؛ بل المطلوب استخلاص واستكشاف ـ وليس الطرح افتراضياً ـ في الوعي ذاته ولأجله ، للحظات والمراحل والاعمال الروحيّة التي فيها وبها يتكوّنُ مفهوم الزمن في الروح ولأجله » . ويتابع كويري مبيّناً الطابع الراهن ، الطابع الفعلي للجدليات الهيجليّة . فهي ليست حدوداً منطقية يحدُّ بعضُها البعض الآخر وتقدّمُ لنا تناقض غايتها كشيء من الخارج . انه حقاً الروح الـذي يدركُ ذاتَـهُ في الفعلـين الجـدليين المجتمعين . منذئذٍ ، يتبينّ اننا حين نحاولُ الصعود نحو الزمن الروحي المحض ، انما نصل في آن واحدٍ الى اقاليم التنـاقض الحميم وتجـاذب الوجود والعدم ، فالنفسُ حين تفتكر بذاتها ، تأخذ بموقف الرفض لإنها تستبعدُ الانماط الفكرية الموضوعيّة : وهي بالتالي تعاود استدماج العدم في ذاتها ؛ فتعود الى هذا القلق الروحي الأساسي الذي عرف هيجـل كيف يميّزهُ بكل جلاء . ومن ثمَّ تعتبر ظاهرةُ منح الوجود للـذات من خلال رفض الوجود حاملةً لأمنٍ وراحةٍ دنيا مستعادة آلياً . كما تعتبر درساً من دروس الميتافيزيقيا الهجليّة . اخيراً ، اننا نصادف كل مسألة تجميع الاعمال الروحية المبعثرة والمشتّتة ، مطروحةً في هذا الاستنتـاج الرائع لكويري . ان هيجل حين وصف لنا « تكوُّن الزمان ، او بكلام أدقّ التكوُّن الذاتي لمفهوم الزمن » لم يتصـوَّر « تحليلاً لماهية الزمـن ، الماهية المجـردة للزمـن المجـرّد ، للزمـن الماثـل في الفيزياء ، الزمــن النيوتونـي ، الزمـن الكانطــي ، الزمـــن المســتقيم الخـــاص بالصيغ

والساعات . انما المقصودُ شيئاً آخر . انه الزمنُ ذاته ، الواقع الروحي للزمن ، وهذا الزمن بالذات لا يجري بطريقة احديّة الشكل ؛ وهو ، فضلاً عن ذلك ، ليس وسيطاً منسجماً يمكننا ان نجري من خلاله ؛ كما انه ليس عدد الحركة ولا نظام الظواهر . إنَّه اغتناء ، حياة ، انتصار وهو ذاته روح وماهية » .

اننا نستلهم من خلال ذلك تراكبَ الماهية والحياة ، الفكر والزمان . واذا كنا نستطيع رسم صور جميلة مع فاعليتنا النفسانيّة ، بكلام آخر ، لو كنا قادرين على إحكام البنى الزمنية للروحانية ، فلا ريب اننا قد نهديء من هذا القلق الهيجلي المتولّد في مستوى الزمن الروحي ، مع وعي صعوبة البقاء في مستوى الزمن الروحي . فهذا القلق لا يضرب جذوره في الحياة ، لان الخضوع للحياة الدنيا ، لتواصلات الغرائز المسكينة ، سيمحوها على الفور ، وسيسنحنا هذه الراحة الدنيا حيث لا نستطيع البقاء بعدما نكون قد خرجنا من ذلك . هذا هو في الواقع شرفُ التفكير . اذا نحن ثابتون في واجبنا في البحث عن الإيقاعات الرفيعة ، النادرة والخالصة ، في الحياة الروحيَّة .

III

إذاً . سنسعى الى استكشاف نفساني للأزمنة المتراكبة . بما ان الزمن المعقول والزمن المعاش ليس لهما مباديء التسلسل ذاتها ، فلا يمكنُ طرحها كأنهما متساوقان بالطبع . فثمة فئة من النسبية في الارتفاع تقدّم تعددية للتوافقات الروحية وتكون مختلفةً من النسبية الفيزيائية التي تتنامى في مجرى حدوث الاشياء . ومن الصعب جداً تحديد هذا التناسب في التوافقات ، لكن عدّة علماء نفس شعروا بذلك . ومثال

ذلك ما كتبه الكسندر مارك(1) : « ان البراغماتيكي ينادي طوعياً بأولوية الفعل » لكنّه في الواقع يُلحقُ الفعل بمقولة النافع ، او انه ـ وهذا يؤدي الى الشيء نفسه ـ يخفض الشخص الى الحيوية البسيطة . وفي هذا المنظور لا يمكننا اجراء اي تفريق اساسي بين الانسان والحيوان . والحال ، فإن « الفعل » الحيوان يفتقر بالذات الى امكانية « التعميق » هذه ، ملكة القطع والمعارضة ، وبكلمة هذا البعد العمودي ـ الذي هو ايضاً بعد العقل ـ البعد الذي يتراءى في آنٍ كشيء خاص بالانسان وكصفة مميزة للحاضر الحق : حتى « في » الزمن يظل الانسان واقفاً » . ان هذا الخط العمودي على المحور الزمني للحيوية الخالصة يوفر لوعي الحاضر بالتحديد وسائل الهرب هذه وسائل الفرار والتوسع والتعمق التي غالباً ما جعلت الخطة الحاضرة تقتربُ كثيراً من الابدية(2) .

ان اعمال ستروس وجبساتل التي طالما قوَّمها مينكوفسكي ، تبيّنُ بكل جلاء بعض النتائج المترتّبة على هذا التراكب الزمني . وإن مينكوفسكي ، معتمداً على التمييز الذي اجراهُ هونينجوالد بين الزمن المحايث والزمن المتحدّي ، او بشكل ابسط بين زمن الأنا وزمن العالم ، انما أقام الثنائية في التسلسل كما اقام علاقات التبعية الشديدة التباين من زمن الى آخر . فحتى في الحياة العادية(3) ، يمكن ظهور خلاف بينهما . فتارة يبدو زمنُ الأنا يمشي بسرعة اكبر من سرعة زمن العالم ، الامر الذي يجعلنا نشعر بأن الزمن يمرّ بسرعة ، وان الحياة

---

(1) Recherches philosophiques, t. IV ; le te mps et la personne, p 132 .

(2) راجع : البر ريفو ، ملاحظات حول الزمن ، مجلة ابحاث فلسفية ، ج 3، ص19 وما بعدها .

(3) مينكوفسكي : الزمن المعاش ، باريس ، 1933 ، ص278 .

تضحك لنا واننا نشعر بالغبطة ؛ تارة تنعكسُ الآية ، فيبدوزمنُ الأنـا متأخراً عن زمن العالم ، عندئذٍ يتأبّدُ الزمن ويتخلّدُ ، فنحن ضائعون والسأمُ يستولي علينا » . واذا لم نرَ في ذلك سوى تحليل تافه للشعور بما يجعلنـا « نجـد الزمـن طويلاً » ، فإننـا لن نصـل الى عمـق حدس مينكوفسكي . ففـي الحقيقـة ليس المقصودُ وهماً ، بل واقـع نفسانـي يفرضُ ذاتـه في تحليل حالاتٍ مَرَضيّة . ومثـال ذلك في بعض حالات الانهيار الباطني يكونُ « التعارضُ بين نمطي الزمن مثـيراً . فهنـا يبـدو الزمن اللازم يبطيء سيره بشكل ملحوظ فريد ، وحتى انـه يتـوقّف ؛ ويأتي هذا التعديل في البنية الزمنية لينضاف الى الاضطراب البيولوجي الكامن من جهة والعوارض العيادية السارية ، من جهة ثانية ؛ والتبديل في نظر ستروس هو النتيجة المباشرة للاضطراب البيولوجي الماثل لنـا في جمود وكبت » . ويبدو ، على نحـوٍ ما ، ان مرضى كهؤلاء ينهـارون . فيهربون عمودياً من زمن العالم . ولجعل الزمن اللازم يسير ، لا مفر عندئذٍ من ايقاعات خاصة للزمن المتعدي . ومما له دلالة كبرى في هذا الصعيد ، هي حالة هذه المريضة عند ستروس « التـي لم تكن تشعـر بالزمن يتقدّم الاَّ عندما كانت تقوم بالحياكة والخياطة » .

IV

اخيراً فلنضرُبْ مثلاً شخصياً من مفاجئتنا في اثناء حلم حيث يمكننا التمييز بين تأثيرات عدة ازمنة متراكبة . فقد ابتعتُ منزلاً ، ونمت وانا افكر ببعض الامور التي كان ينبغي عليّ ان اقوم بها ايضاً . وفي الحلم جعلتني ديمومةُ اهتماماتي اصادفُ مالكَ منزلي القديم . فانتهزت الفرصة عندئذٍ لأعلن له عن اتهامي. حدثته بطيبة لإنني سأنقلُ له خبراً سيئاً : هل

يمكن النظر بلا اسف الى مغادرة مستأجر فيلسوف ، مكتفٍ دائماً بكل شيء ، شريف كمبدأ ، مُقتصر كزاهد ! وبعد ذلك ، ببطء ، وبمهارة تعلنُ عن تواصل جميل لزمن رأسمالي كنتُ اجهله في ذاتي ، أوحيت لصاحب الملكية بكل الوسائل المفيدة لتسوية حبيّة للمشكلة التي بيننا . وتكلّمتُ مطوّلاً ، بصوتٍ هادىء مفعم بالتهذيب والاقناع . خطابي كان حسن التسلسل . وادّى وضوحُ غايتي الى وضع الحجج في مكانها المناسب . فجأة ، نظرتُ الى محاوري : انه يصغي اليَّ الآن بتمهّل شديد : وبالتالي ، لم يعد صاحب البيت الذي اعرفه . انه انسان كان اولاً وبكل تأكيد مالك بيتي ـ وقد ادركتُ ذلك بتكرار عجيب ـ ، وبات ثانياً مالك بيتي المتجدد ، ومن ثمَّ صار انساناً مختلفاً تقريباً . الى ان ادركتُ انني اسرد اخباري لشخص مجهول . ولقد خاب ظني من بلاهتي لدرجة انني ارتعبت امام هذا المثال الجديد للانفلات والتنافرات الزمنية التي اثرتها في ذاتي بقوّة « تراكب الأزمنة » . فأيقظني الغضبُ الذي كان في الحلم يكسرُ الازمنة في اغلب الأحيان .

هل ثمة حاجة الى المزيد لكي نعترف بان الزمان اللفظي والزمان البصري هما متراكبان فحسب ، وانهما مستقلاّن في الحلم ؟ ان الزمن البصري يجري بسرعة اكبر ، الامر الذي يؤدي الى حل وانفكاك . وانني لو كنت متحرّراً من همومي المالية ، ولو كنت قادراً على تصعيد خطابي ، لتوجّب علي الاحتفاظ بالتساوق الكامل مع الجريان البصري ؛ ان الحلم ، على الرغم من شدة تحرّكه افقياً ، اعني على امتداد حوادث الحياة المألوفة ، فقد احتفظ على الأقل بتناسقه العمودي ، اي شكل التوافقات المألوفة . وكان يفترض بي ان اقول للغريب الذي حلّ محل مالك بيتي ، الكلمات التي تناسبه . ولم يكن يفترض بي ان اتابع

حكايتي : بل كان عليَّ ان أغيرّ الخطاب في اللحظة ذاتها التي تغيرّ فيها المُخاطَب .

واذا رغبنا في تحليل ممتاز للاحلام المركَّبة واضعين انفسنا بذلك من زاوية عدة اشراقات زمنيّة ، فإننا سنرى الفضْلَ الكامن وراء تصوُّر مفهوم الازمنة المتراكبة . سوف تظهر احلام كثيرة غير متناسقة بسبب عدم التناسق المؤقّت بين ازمنة حسّية مختلفة . ويبدو ان شتى المراكز العصبية . التي يعيدها النّومُ الى تطورها المستقلّ ، تعتبر ادوات كشف زمني ذات ايقاعات مستقلّة . وحتى لا نطيل الكلام نقول ان هذه الكشّافات المعزولة حساسّة جداً بالطفيليات الزمنية . وفي الواقع ، غالباً ما ينتابني الشعور في راحة النوم الهادئة . بطقطقات دماغية ، كما لو ان خلايا تتفجّر ، كما لو كان موتٌ جزئي يجرّبُ كوارثه . فالزمن المنظور اليه في مستوى نشاط الخلايا . يجب ان يزداد تشبّهاً بزمن الطارىء او الاميبي ؛ ولا مفرَّ من ان تكون التطابقات استثناءات . فعندما يستيقظ الدماغ كله مثل قفير ، يجدّد الزمنُ الاحصائي الانتظام والتباطؤ في آن واحد . زد على ذلك ان الواقع في حالة اليقظة يكون سبباً للوفاق . فالواقع يلزمُ النظر بانتظار الكلام ، الامر الذي يؤدي الى افكار متناسقة موضوعياً ، مجرد تراكب ذي حدّين يحملُ توكيدات متبادلة ، وهي افكار غالباً ما تكون كافيةً لجعلنا نشعر بالموضوعية . عندئذٍ نتكلم عما نراهُ ؛ ونفتكر فيما نقوله : حقاً ان الزمن عمودي ويسيرُ بكامله على امتداد مجراه الافقي ، حاملاً كافة الأزمنة النفسانية من ذات الوتيرة . وبالعكس ، فإن الحلم معناه تفكيك الازمنة المتراكبة .

V

لكن ربما نكون قدّمنا كثيراً من المراجع . المراجع الشديدة التنافر .

بحيث لا نضمنُ مع التراكب الزمني ان نتناول مسألة طبيعيةً . فلنحاول اذاً ان نفسر لحسابنا كيف يمكن ان نقترح توجيه البحوث لحل هذه المسألة .

ان المحور الزمني العمودي على الزمن المتعدّي ، زمن العالم والمادّة ، هو محور يمكن للأنا ان يطوّر فيه نشاطاً شكلياً . وسوف نتقصّاه ونحن نهربُ من مادة الأنا ، من الاختبار التاريخي للأنا ، لكي ندعّم جوانب شكلية اكثر فأكثر ، واختبارات للأنا فلسفية حقاً . وسوف يكون المسارُ الاعم ، الأكثر ميتافيزيقيّةً ، هو تراتُب الانوات الفكرية Des cogito . ومن ثمّ سنعودُ الى امثلة خاصة اقرب الى العلم النفسي الرائج . فلنمضي فوراً الى هذا المجهود الميتافيزيقي المركّب ، هذه المثالية المركّبة التي تجعل « افكر انني افكر اذن انا موجود » تتعاقبُ بعد « افكر اذن انا موجود » فنرى منذ الآن مدى صيرورة اثبات الوجود بمقولة افكر انني افكر ، وجوداً اكثر شكليّة من الوجود المتضمّن في الفكر المحض : واذا كنا قد توصّلنا الى عرض ما نحن فيه عندما استقرّينا ابتداءً في افكّر انني افكر ، فسوف يقل اغراؤنا بالقول اننا « شيء يشك ، يدرك ، يتصوّر ، يؤكد ، ينفي ، يشاء ، لا يشاء ، يتخيّل ايضاً ، ويشعر » . هكذا سنتجنّبُ الهبوط الى وجود مظهري يحتاج الى الديمومة حتى يؤكد ويثبّت . في مقالة ذات عمق فريد ادركش . تيسييه دي كرو(1) الطابع الاثباتي ضرورةً للكوجيتو الديكارتي ، وهو كوجيتو افقي تماماً : « هناك بين انا والوجود علاقة توكيد وإثبات . وبالاجمال

---

(1) Ch. TEISSIER Du cros, la répétition, rythme de l'âme, et la foi. chrétienne, Études thèologiques et religieuses, mont pellier, mai 1935.

يكون الحكم على وجود الانـا تكراراً : فعلى الصـعيد ذاتـه ، صعيد الوقائع ، يكون الاختبار الخاص بالأنا قابلاً للتماثل والتناظر مع الاختبار الخاص بالاشياء » . وبالعكس اذا صعدنا نحو انا افـكر افـكر انني افكر ، أكون قد تحررت من الوصف الظواهري . وخطوة اخرى ومع انا افكر انني افكر انني افـكر ، وهـذا ما نسـمّيه (كوجيتـو) تتجلّى الموجوداتُ المتعاقبة في قوّتها الشكلانيّة . اننا ملتزمون بوصف لمظهرية الشيء بذاته (نومنولوجي) يبدو ، بشيء من الخبرة مشابهاً تماماً للحظة الحاضرة ، فيرسم بهذه التوافقات الشـكلية الخالصـة الصـورة الاولية للزمن العمودي .

عندئذٍ سيتعلّقُ الامرُ بالافتكار بأحدٍ يفكر اكثر مما يتعلق بافتكار المرء انه يُعمل الفكر في شيء ما . وبالاجمال نلحظُ مع هذه الفـاعلية الشكلانيّة ولادة الشخص . والحقيقة ان محور هذه الشخصنة الشكلية متّجه بخلاف الشخصية الجوهرية ، الشخصية الموسومة بأنها اصـلية وعميقة ، لكنها في الواقـع مثقلـةٌ تماماً بجـاذبيه الاهـواء والغرائـز ، ومسترسلة في استعمال المتعدّي . فوق المحور المنتصـب مجـدداً الـذي نلحظه ، يتروحـنُ الكائـن بقـدر ما يعـي نشاطـه الشـكلي . درجـة افتكاره ، وعرض الكوجيتو المركّب حيث يستطيع تحـرُّره ان ينمـو . ومنذ ان يتم تخطي مصاعب الاقتلاع الاول ، مثلاً من (الكوجيتو) او (الكوجيتو)» ، يمكن التعرّفُ الى قيمة الراحة في هذا العلم النفساني الفاسد تماماً حيث يهتم الكائنُ بذاته حقاً . عندئذٍ ربما تستند الفكرة الى ذاتها كلياً . فتغدو جملة افكر انني افكر ، جملة اخرى افكر الأنا . وهذا مرادف للقول انا الأنا . ان هذا اللغو يكفلُ الآنيّة .

لكن سيقال كيف يمكن لهذا التعاقب في الاشكال ان يرتدي طابعاً

زمنياً خاصاً ؟ يمكنه ذلك لأنه صيرورة . ولا ريب في ان هذه الصيرورة هي في هامش صيرورة الاشياء ، مستقلة عن الصيرورة المادية . وبكل جلاء ، ان هذه الصيرورة الشكلية تنوف عن اللحظة الحاضرة ، فهي بالقوة في كل اللحظات المعاشة ؛ ويمكنها ان تنبثق مثل صاروخ خارج العالم ، خارج الطبيعة ، خارج الحياة النفسية العادية . وهذه الطاقة الكامنة هي تعاقب منتظم . وان انقلاباً في نسق المراتب غير قابل للتصوُّر . انه بكل تأكيد بُعْدٌ من ابعاد الفكر .

وسوف يُسأل عما اذا كان هذا البعدُ لا مُتناهياً ، ان استنتاج ذلك معناهُ الخضوع بسرعة كبيرة الى غواية منطقية تماماً ، سويّة تماماً . فلن نوافق اذاً على رصف صيغ نصب الافعال اللامتناهية . وبشكل خاص ، لن نتابع الكتّاب الذين يتكلمون بطريقة لا متناهية عن معرفة المعرفة . . وذلك تحديداً لإن معارف المعارف . . (المعارف) لا تتضمن دائماً وبكل وضوح العامل الذاتي للتشكُّل . ومن جهتنا ، تراءى لنا ، نفسانياً ، انه من الصعب جداً ان نتوصّل الى (الكوجيتو) . وبرأينا ان المنطقة الحقيقية للراحة الشكلية ، حيث قد نكون سعداء بالبقاء ، هي (الكوجيتو)[3] . وفي ابحاث علم النفس المركّب التي سنشرعُ بها ، سنرى ان القوة ثلاثة تتوافق مع حالة جديدة تماماً حتى نتمرّس فيها مطوّلاً قبل متابعة التركيب . ان (الكوجيتو)[3] هو الحالة الاولى المخفّفة تماماً التي يقدّم فيها وعيُ الحياة الشكلية سعادةً خاصةً .

وبطريقة تصميمية تقريبية ، يمكننا كما نعتقد ، ان نميّز بوجهٍ عام المستويات الزمنية المختلفة بواسطة سببيّات روحيّة شتى . وهكذا ،

يتراءى لنا ان (الكوجيتو)[1] اذا بقي متضمّنـاً في العلية الفاعلـة ، فإن (الكوجيتو)[1] قد لا يتقبّلُ تماماً العلية الغائيّة ، لإن العمـل في سبيل غاية . معناه العمل في سبيل فكرة ونحن نعي اننا نفتكر بهذه الفكرة . ولن تظهـر العلية الشـكليّة في كل تفاوتهـا الا مع (الكوجيتـو)[3] . وبالطبـع . ان هذا التقسيم بـين اشياء وغـايات واشـكال ، سيبـدو مصطنعاً في كل علـم نفسي وحيد الخـط يريد ان يضـع جميع الماهيات الكيانات في المستوى نفسه ، وذلك بتسجيلها في واقع واحد ، لا يكون خارجه سوى الاحلام والأوهام . لكن المثاليّة البرهـانية والمرتبيّة التـي ندافع عنها ليست محدودةً بهذا الصعيد الواقعـي الـوحيد . واذا اردنـا الانطلاق حقاً من المصادرة الشوبنهوريّة الأساسية . العالم هو تمثُّلي ، فسوف يبدو ممتعاً تسجيل الغايات في حساب تمثُّل التمثُّل ، والاشكال المكوَّنة في هذه الفعاليات الفكرية التي تتضمَّنُ الغاية والشيء في حساب تمثُّل تمثُّل التمثُّل . ومن المواجهة النفسـانية العلمية ، اذا تتبعنـا محـور التحرر ، عندما يحصل الانفصال المادي ، لا نعود مصمّمين على شيء ، حتى ولا على فكرة ، وانما في نهـاية الأمـر نغـدو مصممـين على شكل الفكرة . وسوف تغدو الحياة الروحية جماليةً خالصة .

اخيراً ، ان الزمان الشخصي هذا ، الزمـان العمـودي ، هو بكل صراحة تفاصلي . فاذا زعمنا الوصف المتواصل لانتقال من قوة كوجيتو الى قوة اخرى . سوف ندرك اننـا نضـعُ المسـار فوق المحـور المألـوف للزمن ، الزمن الشائع . وبذلك نعدُّ العـدَّةَ لتـأويل فاسـد للتـراكب الزمني : فيكون الانطلاق من هذه الفكرة الفاسدة القائلة ان كل تحليل نفساني هو بالضرورة تحليل زمني ، وبكلام آخر ان كل وصف نفساني هو تاريخي واننا حين نتبع مشيرات ساعة حائط يمكننـا على التـوالي ان

نفكر ، ثم نفكر اننا نفكر ، ثم نفكّر اننا نفكر اننا نفكر . وقد نفتقر الى مبدأ الآنية الأساسية في التشكُّلات المنتظمة جيّداً . اما التطابقات النفسانية ، اذا اردنا ان ندركها جيداً ليس في الآن فقط بل في شكلها التراتبي ايضاً ، فإنها تقدّم لنا اكثر من احتمال التطور الوحيد الخط . وبالنسبة الينا ، ما من شك في ان الروح ينبت خارج الخط الحيوي .

اذاً فلنعش زمنياً مع القوة ثلاثة ، على مستوى الكوجيتو المكعَّب . واذا فحصنا هذه الحالة زمنياً بالنسبة الى الحالة الاولى ، بالنسبة الى الزمن المتعدّي ، فسوف تكون ملأى بالثغرات . وسوف تقطعها فواصل زمنية طويلة . عندئذٍ سيكون الجدلُ الزمني واضحاً ، ومرّة اخرى سيكونُ التواصلُ في مكان آخر : وربما هي الحياة ، ربما الفكر الاولي ، اللذان سيقدّمانه . لكن الحياة والفكر الاولي قلّما يهتمّ بهما مَنْ سيعرف الحالة الشكلية التي نريد ان نرتاح فيها لنحيا ونفكر . فيمرّ هذا التواصل المادي بأسره دون انتباه . عندئذٍ سيلزم تناسق عقلاني ليحل محل التناسق المادي . بكلام آخر ، اذا اردنا ان يتكوّن فكر الجمالية المحض ، فلا بد ، من خلال الاشكال ، نداء الاشكال ، من إعلاء الجدل الزمني . واذا حافظنا على الصلة بالحياة وبالفكر العاديين ، ربما تكون الفاعلية الجمالية المحض عرضية تماماً . فقد لا يكون لها تناسق ، ولا « وقت » . حتى يكون ثمة ديمومة مع الكوجيتو في القوة ثلاثة يلزم اذن البحث عن اسباب لاسترداد الاشكال المنظورة . ولن نتمكّن من بلوغها الاّ اذا تعلّمنا تشكيل مواقف نفسانية شديدة التنوّع . وسوف نحاول اجراء بعض التطبيقات في علم النفس المركب هذا . مشدّدين على تآلف بعض الانسجة الزمنية المليئة بالثغرات .

VI

لننظـر الآن في موقف فكري تكون فيه مراحـلُ الكبـت متعـدّدة وتـكونُ نادرةً جداً الأفعـالُ الايجـابية حقـاً . ومثـال ذلك . لنتفحَّص النسيج الزّمني للتنكُّر ولنأخذ علماً بأن هذا النسيج لم يعُدْ لاصقاً فوق قاطرة الحياة المتواصلة : فقد اصبح التنكُّر تراكبـاً زمنيّاً . وعليه ، مع الملاحظة الاولى ، لا يمكن ان نفتقر الى الاندهاش من الطابع النقصاني لنسيج التنكُّر . وكذلك لاجل التنكُّر الجيِّد لا يجوز تعـدِّي المألـوف ، المحدود .ففي التنكُّر ثمَّة تطبيق معقولٌ لمبدأ السبب الضروري الكافي الذي يجعلنا نبحث عن توازن الانكباحات والافعال . ان التنكر يمدُّ من التوسعات الطبيعية ، فهو يقصرُّها ؛ وهو بالطبع اقل كثافةً من شعور يجري من النبع . ولا ريب ان التنـكر يميل الى التعـويض عن العـدد بالكثافة . انه يعـزِّز السمات . فيكّبـر اللطـائف . ويمنـح ثباتـاً وقوةً للمواقف التي تكون بطبيعتها اكثر حركةً واشد مرونةً . وباختصـار ، يكون النسيج الزمني للتنكر نقصانياً وعرضياً في آن .

وللتنكر الممتاز ينبغي بالتحديد توفير الشعور بالتواصل امام ما هو غير متواصل ومشتت . فلا مفرّ من زيادة كثافة وانتظام النسيج الزمني او لا بد من إحـكام هذا النسيج ، كما يقـول دوبـرييل . ولا يكفـي التمهيد للوصول الى ذلك . فهذا لا يؤدي لغير استعمال الظـروف . والى تكوين شكل شعوري في مستوى الأعراف الشائعة ، مع زمـان الناس ، لا يمكنُ القول عنه إنه « محكم » حقاً على الصعيد النفساني . ان تنكُّراً ممتازاً ، تنكراً فعَّالاً ، تنكراً لا يعودَ ظرفياً يستلزمُ اندراجاً في « زمن الأنا » ولتكوينه حقاً ، ينبغي حل هذا التناقض : الصاق التنكر بـ « زمن الصدق » ، زمن الشخص تقريباً حتى يغدو هو ذاته مخدوعاً

بخداعه الشخصي . وعلى هذا النحو بالتحديد ، تستقر فعلاً بعضُ الامراض العصبية التنكّرية . وبشكل ابسط ، عندما نلصقُها بـ « زمن الشخص » سيكون بالامكان شقّ هذه البارقات الخادعة التي تجتذب الآخر متساوقاً مع ديناميّتنا . وحتى ينال الكذبُ مفعوله كاملاً لا بد على نحوٍ ما من وضع الأزمنة الشخصية فوق بعضها البعض . وبدون هذا التطبيق على إيقاعنا الشخصي ، يستحيلُ ان نمنح التنكُّر اقتناعاً ديناميكياً .

لا ريب ان هذه الملاحظات ستبدو سطحية واصطناعية على سواء . وبخصوص علم نفسٍ موقف واضح مثل التنكُّر ، سننشد ان يقوم عالم نفساني برسم تنكُّر خاص وليس التنكر بذاته » : وبوجهٍ خاص ، سننشدُ ان يصف لنا ترجمة الصحيح الى باطل ، وان يجعلنا نعيش في التباس الدلالة . لكن بالنسبة الينا نحن الذين نسعى وراء دوافع علم نفس تجريدي . فإن كون الدلالة ملتبسةً يمكننا على نحو افضل من استبعادها فيبدو لنا التنكر مثالاً جيداً على علم النفس المجرد ، علم النفس الشكلي ، علم النفس الصنعي ، حيث سيتجلى الزّمانُ كسمةٍ هامة . وبالتالي ، اذا اجتزأنا الدلالة المزدوجة للتنكر ، ولم نأخذ باعتبارنا ما نتنكّره فماذا نتنكّره ، فإذا سيبقى ؟ امور كثيرة : سيبقى النظام ، المكانة ، الكثافة ، انتظام اللحظات حيث الانسان المتنكّر يقرّر إكراه الطبيعة . ان تصميم الفصّلات يعتبرُ هنا شديد الاهمية بقدر ما هو مصطنع . ولا مناص للجانب الزمني المحض من الخداع من استرعاء انتباه الخادع ذاته . فلا بد للمتنكّر من استذكار التنكُّر . وعليه ان يغذّي تنكُّره . فبينما لا شيء يستعجله ولا يكرههُ ، ينبغي عليه ان يعلم ان ساعة التنكر قد أزفت من جديد . وان تفويت فرصة التنكر

معنـاهُ احيانـاً ـ وليس دائماً ـ كسر التنـكُّر . ان التنـكر مهما يكف نقصانياً . قد يفقد من جرَّاء هذا النسيان الجزئي « تواصله » ، مما يدلُّ بكل وضـوح على إمـكانٍ وجـود « تواصـل » بدون متواصـل فعلي . فالتواصل ، على مستوى الشعور المصطنع الذي هو التنكر ، لا يحتاج الى التواصل الحياتي الكامل ، الطبيعي ، لا يحتاج الى شعور طبيعي .

ان سَلْسَلَةً جيّدةً لما هو قادر على وصلنا بالآخر ، وعلى تكييفنا تماماً مع زمن الآخرين وان توقّع تخيّل الآخرين اذا أمكن ، ان ذلك كله لا يستلزم مساواة جوهرية مع الآخرين. لكن المساواة التـوقيتيّة تعتبـر من المهام العظمى في علم النفس البيني ، العلائقي . فعندمـا ننجـز هذا التساوق ، نعني عندما نطابق بين تركيبين لنفسيتينّ مختلفتين . نلاحظ اننا نمسك تقريباً بكل مقومات الانتساب الجوهري . ان زمـان الفـكر يطبع الفكر في العمق . فربما لا نفتكر في الشيء نفسه ، ولكن في الوقت نفسه نفتكر في شيء ما . اي اتحاد ! فلا بد لكل علم نفس علائقي من ان يطرح اولاً مسألة التطابق الزمني وان لا يسلم جدلاً بالتسـاوقية كأنها نتيجة . فهي غالباً ما تكون اصطلاحاً : واحياناً تكون حساباً ؛ وعلى الدوام يمكنها ان تكون عملاً مركباً جيداً ، ومدبّراً اقتصادياً . وفي كل الاحوال ، بالنسبـة الى الشعـور المصطنـع . بالنسبـة الى كل المشاعـر التنكّرية ، تبدو لنا مسألة التساوقية كمسألة اولية : فلا يجوز ترك الزمان يحطّم عمل الزمان . كذلك لا يجوز إكراه الزمان .

اننا مع التنكر نكتشف موقفاً مستمراً في زمـان شديد النقصـان ، متحرراً تماماً من كل موجبات الزمان الحيوي ، متراكبـاً بنـوع ما فوق الزمان الحياتي ، ولكي نجعل موقعنا الجدلي مفهوماً بشكل افضـل ، مع اهمية المداخـلات الـكبتيّة التـي ترفض المقترحات والارتباطـات

الحيوية ، فلنتساءل عما اذا كان بامكاننا بلوغ مواقف متزايدة النقصان ، في ازمنة متراكبة فوق بعضها البعض ، وذلك بمضاعفة اعمال الكبت ، فهل نستطيع مثلاً التنكر للتنكر ، واذا كان نعم ، فماذا سيكون الشكل الزمني الموافق مع تنكر التنكر الذي سندلُّ عليه بـ (التنكُّر)2 ؟

ليس من الصعب ان نجمع النصوص الادبية لنبين ان تنكُّر التنكُّر لم يفلت من مخيلة الروائيين . فقد سمَّته جورج صاند صراحة في هوراس (الفصل 13) . وفي الف مكان ومكان نجد اثره في اعمال دوستويفسكي ، بحيث انه يمكننا التساؤل عما اذا لم تكن بسيكولوجية دوستويفسكي بسيكولوجية « مركَّبة » منهجياً ، بسيكولوجية تعقل ذاتها بذاتها ، قوامها مشاعرُ مرتفعة الى مصاف « العوارض » فلنُعِدْ بشكلٍ خاص قراءة الجريمة والعقاب ، فنر فيها عدة امثلة عن (التنكُّر)2 ، واذا اردنا ان نستخدم تصاميم التحليل الزمني التي نقترحُها ، فسوف ندركُ ان هذه التصاميم يمكنُها ان تبينَ سماتٍ مميزةً . وعليه فإن « التنكُّر)2. سيظهرُ اشد نقصاً من التنكر العادي . وسنرى ذلك على الأقل من خلال مجهود احصائي بسيط عندما نقارنُ في لحظات التنكُّر تلك التي تنتقل من (التنكُّر)1 الى (التنكُّر)2 .

لكن بالطبع ليست المسألة فقط مسألة علم نفس ادبي . ولقد فوجئنا ، عندما تكلّمنا مع عدة اشخاص ـ لا سيما مع النساء ـ عن التنكُّر ، فوجئنا بمدى فهمهم لنا . والسؤال ، هل يمكننا تنكّر التنكُّر ؟ فيأتي الجواب فورياً : بالطبع . وفي المقابل ، منذ ان طرحنا السؤال التالي : هل يمكننا ان نتنكرَّ لتنكُّر التنكُّر ، فإن كل شيء يضطرب ويؤدي الى نوع من الدوار الفكري . وبهذا الاضطراب فقط ، يطرح

(التنكّر)2' سؤالاً هاماً في علم النفس المركّب وفي التراكب الزمني . وبالتالي مهما يكن صعباً الاستقرارُ في هذه الحالة المتقلّبة جداً ، فإننا نعتقدُ أنّه يمكننا درسُها بشيء من التجربة والخبرة . طبعاً لا يجوز الوثوق بأسلوب لفظي كلياً والتخيّل بانه يكفي التدليل على حالةٍ لفهمها . ومع مزاعم كهذه ، يمكننا بسرعة تحديد (التنكّرات)4 و (التنكّرات)5 وهكذا دواليك . ومن جهتنا لم نستطع ابداً تخطي (التنكر)3 . واما التنكّرات التي تتجاوز (التنكر) فتبدو لنا تمرّ من خلال وسائط سوية ، قواعدية ، بدون قيمة نفسانية . وهي في نظرنا لا تستطيع ان تصبح زمانيّة في المعنى الذي سنعرضه في لحظة .

بعدما اجتنبنا الحالات ذات العرض المرتفع جداً ، لا بد لنا من الرّد على الاعتراضات التي كنا صادفناها من طرف اولئك الذين ينكرون الواقع النفساني لعلم النفس في القوة ثلاثة . غالباً ما يهاجم (التنكّر)3 بالاعتراض بأنّ (التنكر)2 يشكل عودةً الى الطبيعي وان(التنكّر)3 يكون عندئذٍ مجرّد تنكّر . وان اعتراضات كهذه معناها اسناد علم النفس الى المنطق . فينسبُ التنكُّر الى حقائق محدّدة وسرعان ما نفكّر بأنّ نفيَين يساويان توكيداً . ومنذ ان نتخلص من انقلاباته الآلية ، ومنذ ان نتوصل الى انقلابات نفسانية واقعية ، فان تشكيلة كاملة من الدقائق واللطائف تظهر وتوفّر حججاً تنوعية كافية . وان درسنا حول (التنكّر)3 ما كاد ينتهي حتى اراد الكثيرون من مستمعينا تقديم بطاقاتٍ مهمةٍ لنا . ويبدو لنا ان احداها ، بطاقة م . ل . تيبو ، شديدة الوضوح هنا بحيث سننشرها هنا بدون تعديل .

« الفرضية الاولى . تنكر بسيط . محاضرة استاذ تضجرني كثيراً . ولكن بما أنني اصرّ على ان اجعل هذا الاستاذ يراني ، فإنني اتظاهرُ

بانتباهٍ كبير بينما يتكلم . آمل ان ينخدع الاستاذ بتنكُّري».

« الفرضية الثانية . تنكُّر في القوة الثانية . محاضرة الاستاذ تضجرني في العمق ، وبما انني املك المبررات لكي اكون مزعجاً لهذا الاستاذ ، فإنني اتظاهر بالانتباه لمحاضرته وبحماس مبالغ فيه لدرجة ان الاستاذ يجد نفسه مكرهاً على القول : « هذا بديعٌ جداً حتى يكون صحيحاً ؛ هذا التلميذ يهزأ مني ! » . اذا اتنكُّر فقط للتنكّر . انني اتنكّر لكنني آمل في ان لا يكون الاستاذ مخدوعاً بتنكّري » .

« الفرضية الثالثة . تنكّر في القوة الثالثة . اجد محاضرة الاستاذ مفيدة جداً . لكن بما انني راهنت رفاقي على ان اكون مزعجاً له ، فقد رغبت في جعله يعتقد ان محاضرته لا تهمني . لهذا ، استعمل بالتحديد الوسيلة الموصوفة اعلاه . انني اصطنع انتباهاً وحماساً مفرطين بحيث يصبح الاستاذ مضطراً لاعتبارهما نقيضين ، اذا جاز القول . يوجد تنكّر من القوة الثالثة . انني اتظاهر بالعمل حتى اتنكّر لشعور (انعدام الاهتمام الذي لا يكون هو ذاته سوى تظاهر باطل) » .

زدْ على ذلك اننا اذا فحصنا المسألة من زاويتها الزمنيّة ، سنرى ان تهمة التصنُّع المنطقي العادي لا تصمد . وبالتالي . فان نفيّين قد يساويان توكيداً اذا كان ينبغي نقل كل الحالات الاولى . وقد يكون الحالُ كذلك اذا كنا لا نملك سوى مخطط زمني واحد . سوى نسيج وحيد ، له التواصل نفسه في كل الاماكن . ولكن بالتحديد بما ان (التنكُّر)2 اشد نقصاً من (التنكُّر)1 ، وما يزال (التنكُّر)3 اشد نقصاً من (التنكُّر)2 . ولإفهام الاثر النادر والمصطفى للخطة ، فلنأخذ بأسلوب تحليلي تماماً يفترض فيه ان يساعدنا على تعلم فن تنكّر

تنكّر التنكّر . وبما ان الجميع يعرفون تنكّر التنكّر ، فلنـولِ امـرُ هذا (التنكر) للخطاب ، ثم نطلـب من النظـر ان يتـولى (التنـكرُ) . وسوف يقوم بذلك ، بلمحة بصر ، بلمحة خاطفة . وهنا سنـكتشف الانفكاك الزماني عينه ، المُراد هذه المرّة ، الذي اشرنا اليه في معرض احد احلامنا ، ويمكن للأزمنة المتراكبة ان تتعزّز بمسالك خاصة حيث يمكن ان تقدم مساراتٌ حسية مختلفة .

اخيراً قدم لنـا مستمعونـا اقتراحـات اخـرى . وكان معظـم هذه الاقتراحات يعني اشراك عدد متعاظم من المستمعين في اللعبة وهكذا ستتاح لنا الفرصة لتنويع ازمنتنا الاجتماعية ، فيعطى زمانٌ لكل مجتمع خاص . ويمكن لكل حالةٍ تنكريّة ان يحدّدها شاهدٌ خاص . فتكونA بالنسبة الىB شيء آخر مختلف عما تكونه بالنسبـة الىC اوD . وقـد نحصلُ بسهولة على تراكباتٍ زمنية ، لكنها قد تكون قليلة التراتـب . اخيراً لن نقبل هذه الانشاءاتِ الهرمية المختلفة السهلة جداً ، فنعود من جهتنا الى تراكب زمني تماماً حيثُ تتركّبُ المشاعـرُ ، بطريقـةٍ ما ، مع ذاتها ، فتبدو كأنها « تشكّلات » فعليّة ، وهذا الاسلوب لا يُضاءُ جيداً الا بتأمل حقيقي يكونُ فيه الشـكل مستقـلاً عن مادتـه عندئـذٍ يطبـع التصـميمُ الزمنـي الشـكل حقـاً ويبـدو كأنـه جانـب مميّزٌ للعنصر البسيكولوجي المنظور .

VII

بالطبع يمكننا درس عدة تركيبات نفسانية اخرى : فرح الفرح ، حب الحب ، رغبة الرغبة ، وسوى ذلك من التراكيب التي يمكننـا ان نجد امثلة وفيرة عنها في الفلسفة الشعورية المعاصرة . وبوجه خاص ،

يبدو لنا ان دراسةً لأعمال بول فاليري تنطلقُ من هذه الزاوية ، قد تكون مخصبة . ان كتاب جان دي لاتور الرائع يفسح مجالاً للقيم المعقولة مجدداً ، للقيم المعاد تقويمُها ، للأشكال المستصلحة . هنا يكمن حقاً السر الدينامي لمثالية بول ڤاليري الفعّالة(1) .

في هذه التراكيب النفسانية تمثلُ ايضاً المصاعب انطلاقاً من الأس 3 ؛ وبالتالي انطلاقاً من الأس3 نصل الى المثالية الخالصة . ومثال ذلك نرى في (الحب)3 زوال الإمتاع المتقلّب دائماً ، المتقلب منهجياً ، بـ (الحبّ)2 . زد على ذلك ان هذا (الحب) 2 مايزال ملتزماً في تشكيلات (الحب)1 . والانتساب للموضوع يتلاشى فقط مع (الحب)3 الذي يكون في النهاية حراً ومخلصاً ، فن الحب المحض .

لكن مهمتنا ليست درس علم النفس العارضّي ولا ترمي هذه الملاحظات السريعة الا لتسجيل مقترحات لاجل دراسات لاحقة . وان ما نريد التشديد عليه ، في الختام ، هو الفائدة الممكنة من جراء القيام بهذه الدراسات انطلاقاً من السمات والمزايا الزمنيّة . وهاكم على الفور دافعاً دراسياً سنبدأ به : ان المواقف من الاس2 هي زمانياً اشد نقصاً بكل وضوح من المواقف الاولية . وبوجهٍ عام ، عندما نرفع المعامِلات ، نصل الى ازمنة متزايدة النقصان . وعلى الرغم من هذه الفراغات المتكاثرة ، نعتقد بأن حياة نفسانية يمكنها البقاء في المواقف العارضة . دون الاستناد الى الحياة النفسية الاولية . عندئذٍ يكون للأزمنة الممثلنة ثوابتُ دون ان يكون لها تواصل ان هذه احدى

(1) Jean Delatour, Exam en de paul valéry

الاطروحات الكبرى في الفلسفة الزمنية التي نقترحُها ولا ريب انه سيبدو من الاسهل القول بأن تواصل الموقف الاولى اساسّي ، واعتبار الهرب والفرار بمثابة صواريخ مستقلة تنبثق من حين الى آخر على مدى النمو الطبيعي . لكن هذا الحل ، وهو الاسهل والابسط ، ليس هو حلنا . فهو لا يحيطُ بواقع ان بعض العقول والارواح يمكنها الاستمرار في فكر عارض ، في فكر الفكر مثلاً ، وحتى في (الفكر)[3] . عندئذٍ يتراءى لنا ان زمان التراكب الثاني او الثالث له دوافعه التسلسلية الخاصة ، وان كل ما قلناه حول السببيّات النفسانية المعتبرة بوصفها مختلفة عن السببيّة الفيزيولوجية يمكن تكرارها هنا للتدليل على ان الاسباب والاشكال تثبّتُ المواقف دون استنادات عميقة حقاً . ففي التطورات الزمنية المتراكبة ، حين نفحص الخطوط الروحية المرتفعة ، ندركُ ان حوادث نادرة جداً تكفي لقيام حياةٍ روحية ولتعميم شكلٍ ما والمؤسف ان عالم النفس لا يتذوق العمل في هذا الميدان ـ وسيقول ناقد شرير : العمل في الغيوم . ان علم النفس المعاصر يفضّل السير في خطى فرويد في استكشافه لفضاء الاعماق ، فهذا العلم يبغي الشعور بالفكر في مصادر الحياة ، في مستوى امواج الحياة المتسارعة . عبثاً حاولت الفكرة الخالصة ان تتراءى في تفاصيل واضح وهي تحتفظ بتناسق ملحوظ ، فالعالم النفساني يريد ان تكون كل حياة نفسانية شكلاً معادلاً للحياة ، معاصراً دائماً لنموٍ حياتي . ولكن كلما كانت الحياة النفسية ناقصةً ، كانت اوضح ؛ وكلما كانت اوامرها مختصرةً ، كانت اقوى . ان الازمنة الحقيقية الفاعلة هي الازمنة المفرغة حيث لا تظهر شروط التنفيذ الا كشروطٍ دنيا . وعندما نبحث من جهة علم النفس الصنعي ، من جهة المواقف العارضة . سنحيط علماً بان ازمنة الفعل معزولة ، وان تكرارها ليس مشروطاً بالتنفيذ كلياً ، لكنه منذ الوهلة

الاولى مشروط بضروراتٍ ارفع ، اكثر روحانية . ان تناسق اسباب العمل سيأمر تناسق الاعمال الفعلية . وان التواصل على الأصعدة الزمنية الرفيعة سيغدو رمزياً . وبذلك سيزداد وضوحاً ، وايحاءاً ، وفي نهاية المطاف سيكون اكثر استرداداً .

برأينا ، هذه الامنية بالتواصل الرمزي لا يجوز الوقوف عندها الا بوصفها اعتراضاً على اطروحتنا ، لانه في الجوهر هذا هو حال جميع الازمنة . وللتدليل على ذلك ، سندرسُ بعضاً من هذه الرموز الاكثر استعمالاً التي تفيد في رسم الفعل الثابت للزمن . وسنرى بخصوص هذه الرموز . ان التواصل شديد دائماً من جهة معينة وانه بكلام آخر رمزٌ لا اكثر ولا اقل .

الفَصل السَّابع

علاماتُ الزَّمن

اذا كان القـارىء قد تتبّعنـا في اطروحتنـا القائلـة إن ترابطـات اللحظات الفاعلة حقاً يتم انجازها دائماً على صعيد يختلف عن الصعيد الذي ينفّذ فيه الفعل ، فإنه لن يكون بعيداً عن الاستنتـاج معنـا بان الزّمان بالمعنى الدقيق للكلمة هو علامة . عندئذٍ ستكونُ الدهشةُ اقل تجـاه هذه السهولـة في التمثّـل التـى تشـكّل إحـدى روائـع الفلسفـة البرغسونيّة . وبالتالي لا مجال للدهشة من امكان ايجاد علاماتٍ لنتمثل الزمان ، اذا جعلناه العامل الوحيد للترابطـات في المجـالات البالغـة التنّوع : الحياة ، الموسيقى ، الفـكر ، المشاعـر ، التـاريخ ، وحـين نراكبُ كل هذه الصور الفارغة تقريباً ، البيضاء تقريبـاً ، نظـن اننـا استطعنا ملامسة جوهر الزمان ، حقيقة الزمان : ونظن اننا انتقلنا من الزّمن الابيض والمجـرّد حيث يفتـرض اصطفـاف امكانـات الوجـود المحض ، إلى الزمـن المعـاش ، المحسـوس ، المحبـوب ، المغنّـى ، المحكي . فلنعاودْ تصميم هذه التراكبـات : فالزمـن ، من حيث هو حياة ، يعتبر تضامناً وتنظيماً لمهام متتابعة - ان الحياة حلمٌ في استيعائها المتواصل - والحلم ذاته انشـودة روحية ، ذو احـداث واعـراض حرّة وراسخة بشكل متناقض . واذا اضفنا اخيراً ، وبالمقابل ، ان الانشودة « تشبهُ كائناً حياً »(1) ، نكونُ قد انشأنا اسرة بكاملها، ودوراً مغلقاً من

(1) Bergson, Essai sur les données immédiates de la conscience, p. 76.

العلامات والرموز التي ستكّونُ لغةَ التواصل ، اغنية التواصل ، تنويمة التواصل . زمنٌ هاديء ، حياةٌ متوازنةٌ تماماً ، موسيقى أخاذة ، حلم لطيف ، فكر صاف ومنتج ، وسوى ذلك من التجارب التى « ستدلُّ » على ان الزمـان متواصـل . وكل هذه الاختبـارات سعيدة : فالزمـنُ مرادفٌ للسعادة ، او على الأقل ، مرادفٌ لخير ، لهبـة . وان وضـوح الامتلاك يأتي ليعزّز الوعد بالزمن .

ليس في ذلك كله سوى تعاسة واحدة : هي انه ما من اختبار كافٍ بذاته ، وما من اختبار زمني خالصٍ حقاً . وليس علينا سوى التدقيق عن كثـب في اي من صور التواصـل ، فنـرى على الـدوام ترقينـات التفـاصيل . ولا تشـكّل هذه الترقينـات ظلاً متواصـلاً الا من خلال متنافرات مجمّدة . ان في ذلك ذريعـةً سبـق لنـا ان عرضناهـا مراراً . وسوف نجدّدها هنا ، واضعين انفسنا على صعيد علامةٍ خاصةٍ ، باذلين الجهد لتحليل الكثافة الموسيقيّة والشعرية . فعلى الصعيد الموسيقـي ، مثلاً ، سيلزمنا انْ نبّينّ انّ ما يصنـع التواصـل هو دائماً جدل غامض يستدعي المشاعر تجاه الانطباعـات ، والـذكريات تجـاه الاحـاسيس . بكلام آخر ، سيلزم ان نبين ان تواصل الانشودة ، ان تواصل الشعر ، هي اعادات بناء شعورية تتجمّع فوق الاحسـاس الواقعـي ، بفضـل موجة وحدة الانفعال ، بفضل الخليط الغامض من الذكريات والآمال ، وبالتالي على اصعدة شديدة الاختلاف عن الصعيد الذي قد تحشرنا فيه دراسةٌ علمية للسياقات الصوتية الخالصة(1) .

---

(1) of Otto. le Sacré, (Note, p. 153).
لاحظ اوتوْ تلفيقية المنهج البرغسوني : « ان المفاهيم الرخـوة عنـد برغسـون هي في الواقـع تصاميم فكرية للمشاعر والحدوس الجمالية والدينية . وهو اذ يعتبرُها مفاهيم علمية انما يخلط الفكرة مع الاختبار ؛ وهذا التباس كان شيلر يتهّم غوته به » .

فلنشدّدْ اولاً على هذا الجزر للانطباع الذي يرتفع من الحاضر إلى الماضي والذي يعود حاملاً للايقاع ، للانشودة ، للشعر ، التواصل والحياة اللذين كانت تفتقر اليهما في نتاجها الأول. وقد يكفي عدم الانتباه الى هذه الانشودة حتى يتوقّف هذا المد والجزر . عندئذٍ لا تعود تغني هذه النوطات المتلاحقة ، فتمكثُ في التفاصل النوعي والكمي حيث تحدث ، ان الاحاسيس غير مترابطة ؛ وان نفسنا هي التي تربطها .

ان تواصل النسيج الصوتي بالغ الهشاشة لدرجة ان انقطاعاً في مكانٍ ما يُحدّد احياناً انقطاعاً في مكانٍ آخر ؛ بكلام آخر ان الربط المتقارب اكثر فأكثر لا يكفي ؛ فهذا الربط الجزئي مشروط بتضامنٍ بين الحلقات الكبرى ، بتواصل المجموع .

في الواقع يجب تعلّم تواصل الانشودة . فنحن لا نسمعها من الوهلة الأولى ؛ وغالباً ما يؤدي الاعترافُ بموضوعةٍ ما الى حصول وعي التواصل الإنشادي . فهنا ، كما في مكان آخر ، يحدث الاعتراف قبل المعرفة . ولقد اعلن ليونيل لاندري بحق(1) : « ان صورة ايقاعية لا ترتدي كل قيمتها النوعيّة في نظر من لا يسمعها سوى مرّةٍ واحدة » . في المجلى الأول ، في التطور الأول للأصوات ، لم تكن البنية الزمنية متكوّنة حقاً ؛ ولم تكن السببية الموسيقية قد استقرّت بعد . فقد كانت البنيةُ والسببية مطروحتين في مجال الممكن بدلاً من مجال الواقع . وكان كل شيء ما يزال في التفاصل والمجانّية . عندئذٍ يقدّم تكرار الانطباع سببيةً شكليّة . وهذه السببية الشكلية ، بالنسبة الى ميتافيزيقي ، تعتبر

(1) Lionel LANDRY, la sensibilité musicale, p. 29

بمثابة العنصر المطابق للقيمة النوعية التي ذكرها لاندري .

ان هذا الاصلاح الذي يعطي بالفعل شكلاً معيناً يمكنه توليد متوازيات شعرّية وموسيقية انطلاقاً من اشكال متنافرة ودنيا . وهذا ما لفت إليه راول دي لاغراسيري[1] . « بيتان من الشعر يتتابعان ، وافترض انه يوجد في داخل كل منهما ، بين الصدرين ، تفاوتٌ في عدد المقاطع ، وإذا أعيد تكرار هذه التفاوتُ في البيت الثاني وفي المعنى ذاته ، فإن الرسم الايقاعي سيعاود إصلاحهُ ، وعندها سيغدو التفاوت الداخلي تفاوتاً خارجياً » . بكلامٍ آخر ، ان هويّة المركبٌ ستعلي تنوُّع التفصيل ؛ وعلى نحوٍ ما ، سيكتمل شيء ما من خلال بحر الشعر . وسوف يتم التواصل في مصلحة التجمُّع . وعلى هذا النحو ، فان الشعر ، او الإنشاد بشكل أعمّ ، يدوم لإنه يُستعاد . ان الانشاد يلعب مع نفسه جدلياً ؛ فهو يضيّع نفسه ليجدها مجدّداً ؛ وهو يعرف انه سيستوعب ذاتهُ في موضوعته الأولية[2] وعلى هذا النحو لا يمنحنا زمناً حقاً ، بل وهم الزمان . فمن بعض الجوانب ، يُعتبر الإنشادُ خداعاً زمنياً . فهو يعدُنا بصيرورةٍ ، ويثبّتنا في حال . وهو اذ يعيدُنا إلى أصله ، يجعلنا نشعر بأنه كان يفترض بنا ان نتوّقع مجراه . لكن ليس له بالمعنى الدقيق للكلمة ينبوع اول ، مركز توسع ، إن اصله ، الملحوظ بالتكرار والترجيع ، هو كتواصله قيمة تركيبية .

واذا تفحصّنا الآن هذا الأنحاء الجدلي للموضوعة الأوليّة ، نقتنع بإن كل معاودة لا يمكن ابداً تصوّرُها كانها متصلة انشودياً بأثرها

(1) Raoul de la GRASSERIE, De l'élément psychique dans le rythme.., 1892, p.2

(2) Gf. G. URBAIN, Journal de pyschologie (1926), «la mélodie», p. 201

الأول . فبين المقطع والمقطع ، ثمة ما هو اقل من ذكرى كامنة ، وحتى اقل من ارتقـاب محـدّد جيّداً . لان الارتقـاب لا يكونُ أبـداً واضـح السلبية مثلما هو حاله في الموسيقى ؛ وبالتالي لن يصبح هذا الارتقاب واعياً إلاّ اذا تكررّت الجملة المسموعة . واننا سنستذكر اننا سمعناها ؛ وسنعترف فقط بأنه كان ينبغي علينا سماعها . وهـكذا ، فإن ما يمنـحُ تواصلاً خفيفاً وحراً للإنشاد ، هو هذا الارتقـابُ المحض افتـراضي ، الـذي لا يصـير واقعياً الا بعـد فوات الأوان ، الـذي لا يكون سوى فرحتــه ، سوى احتمال . كان موريس رافيل(1) يقــول في الأمس : « هندسة معمارية ! بطلان المقارنات ، فهنـاك قواعـد لإقامـة مبنـى ، وليس هناك قاعـدة واحـدة لسلسلـة التموّجـات » . في الواقـع يقـوم التسلسل على وسائط غـير موسيقيّة ، على قيم انفعـاليّة ، احتـدامية ، وحتى ادبيّة(2) . واذا اوقفنا موجة الانفعال التي ترافق الإنشاد ، سندرك ان الانشـاد المأخـوذ كمجـرد معطـىً حسي سيتـوقف عن الجـــريان . فالتواصلُ لا يعودُ إلى الخط الإنشادي ذاته . فما يمنح الديمومة والثبات لهذا الخط انما هو شعور اكثر غموضاً ، اشد لزوجة ، من الاحساس . ان العمل الموسيقي متفاصل ؛ وان ارناننا الشعوري هو الـذي يمنحـه التواصل .

وهكذا يعتبر الانفعال الموسيقـي محاولـة لا تكتمـل ابـداً في سبيل توليف زمني ، لإن السـببيّة الموسيقية تكون متباينـةً دائماً ، ومنهجياً . فهي لا تفعل فعلها من قرب إلى أقرب . فقد رأى راول دي لاغراسيري جيداً أهميـة هذا التأجيل السببي في اساس ما يسميّه الانسجام المتنافر .

---

(1) Courrier musical, 1er janvier 1910.

(2) اجتلبنا منه استشهاد رافيل (Cf. Landry ,loc. cit., p. 185) .

« في الموسيقى ، لا يتحقّق الانسجامُ مباشرةً أبداً ؛ وفي الموسيقى الحديثة بوجهٍ خاص ، غالباً ما يجري خلال زمن معينٍ تأخير الانسجام لجعله يحدث تأثيرات أعظم بعد الارتقاب .

تنطلقُ نوطةٌ فتتلوها أخرى ؛ واذا توقفنا عند ذلك ، قد يحدث تنافرٌ مطلق ، موسيقي فاسدة ، انعدام في الايقاع ؛ وان الاذن لم تجرح بعد ، لكنها حزينةٌ ، تتألّمُ ، تعاني شيئاً ما مماثلاً لما يكون عليه الاحساس بالجوع في مرتبةٍ أدنى ؛ واذا طالت هذه الحالةُ كثيراً ، سيكون هناك عُصابٌ ، لكن الموسيقي يتدّخلُ عند اللزوم ، فيطلقُ النوطة التي تحوّل التنافر إلى تناغم نهائي ، مرغوب ، ومطلوب ، وبالتالي أشد حساسية » . هكذا يوضع الاحتدام فوق الصوت ، ووحدة الاحتدام ، المستوعبة بعد فوات الأوان ، تعيد انطلاق النشيد وتمنحُ تواصلاً جديداً لأحاسيس معاشة اولاً في انعزال شبه تام تقريباً . عندئذٍ تستأنف الصفحة بكاملها ، وتستّردُ الغائية الموسيقيّة التي تأتي حاملة بالفعل البرهان الوحيد الممكن على السببيّة الغنائية ، وبذلك يتمّ التوّصل الى « هذه الطمأنينة الخاصة ، المحض موسيقيّة ، المتسامية فوق اوزار الروح والنوم ؛ وهذه الراحة التي تحدثها الموسيقى مصدرها في المتوازيات انغلاق اللامتوازيات المفتوحة في مكان آخر . . . »(1) .

الخلاصة ، ان الشعور بالامتلاء والتواصل الذي تتركه فينا الموسيقى مردُّهُ إلى التباس المشاعر التى تثيرها . فمنذ ان نلاحظ الانشودة في علاقتها الصحيحة مع الزمّن ، ندرك ان الموسيقى هي علامةٌ غالباً ما

---

(1) PIAs Sérvien, les rythmes comme introduction physique à l'esthétique, Bovin, 1930, p. 45.

تكون خادعة لدراسة ميتافيزيقية للزمن ، مثلما تخدع الرسومُ في الكانيفات . وسوف نقتنع بذلك عندما نستند إلى الاعمال العميقة جداً التي قام بها موريس عمانوئيل .

II

في كتابه حول « تاريخ اللغة الموسيقية » ، لا يتردَّدُ هذا العالِمُ التقنيُّ في إنكار الطابع الاولي للتقنّيات القياسيّة ، اي التقنيات التي تستندُ فقط إلى معايير زمنية موضوعية كلها . وبنظره ان الطابع القياسي يجب عزّوهُ إلى الصورة وحدها ، كبرهان على ان الزمان الدقيق ليس الماهية الموسيقية الجوهرية . اولاً كان القياسُ تمثّلاً ذاكرياً اكثر منه واقعياً . فهو يسمحُ ، في التقنيات الحديثة ، بـ « قراءة وترجمة مباشرة للبارقة الايقاعية »(1) . لكن المترونوم أداةٌ غليظة . انه جامع الخيوط وليس آلة الحياكة . فهو لا يصفُ حتى النسيج الزّمني . ولا يمكنه نظمُ هذه الموسيقى الجديدة والطازجة ، الجويّة والمكوَّنة كلها من حركات ، الموسيقى التي تصدرُ عن الإلهام . ويبّين عمانوئيل الدور المبالغ فيه المعطى لعتبة القياس(2) : يقول يجب « اغلاق بابه عندما يدّعي التغلغل في محراب الايقاعات . فهو لا يقوم الا بدور بسيط ؛ فهو قياسي متري ؛ وهو يرسم معالم الطريق بانتظام ، وليس له اكثر من الحدود العسكرية الحق في انتمائه الى المشهد » . ويورد عمانوئيل امثلة تلعب فيها القياسات دور « تشريح » الابيات الشعرية الجميلة من الوزن الانبسطي Anapeste اليوناني القديم . وفي المرحلة المعاصرة ذاتها(3) « ان عتبة

(1) Maurice Emmanuel, Histoire de la langue musicale, t. I., p. 253.

(2) ID., Ibid., t. II, p. 442.

(3) ID., Ibid., p. 563.

القياس ، التي صارت عوناً ضرورياً لتعدُّد الأصوات ، لا تدلّ على الايقاع البتّة ؛ وهي غير مرتبطة به قطعاً ؛ والاعضاء الايقاعية لا تتوافقُ الا نادراً مع الفُسحات الفاصلة بين العتبات » .

كما ان عمانوئيل ، في كتابه البالغ الدقة ، البالغ البُعد عن الأطروحات الوقفيّة والجاهزة ، يحذف الطابع الأولي والعنيد للإطار الزمني المطلق[1] : ان التصور القائل بوجود زمن اول معقول في أساس كل إيقاع ، يجب استبعادُه ايضاً . صحيح اننا نجد القاعدة في القياس القديم ، لكن خارج الاستثناءات المعترف بها الذي يتضمنّها ، لا يمكننا ان نكون متأكدّين من ان تغايرات المنسوب كانت تكفي لتجريده من كل قيمة مطلقة » . وبكلامٍ آخر ، إن العلاقة الزمنية التى تزوّد الايقاعَ بصورة تحتمل كثيراً من التشويهات . زدْ على ذلك ، اذا كانت الموسيقى حساباً للاوقات المتنوعّة ، قياساً زمنياً صارماً ، فقد نكتشف نشيداً جديداً ، ونحن نعبر في اتجاه معاكس هذا المجموع من الشرائح الزمنية المقطعّة بشكل علمي . وهذا الايحاء لا يمكنه ان يخطر الاّ ببال كاتب موسيقي . يقول لاندري[2] « الأمر الذي يدلّ . . . على ان هذه المكانيّة الخاصة بالجملة الموسيقية ليست شيئاً طبيعياً ، وان الطابع الذي لا رجوع عنه هو الذي يُقدّمه لنا السيلان الزمني للموسيقى : ومثال ذلك التتابع ، فبقدر ما يتقبّل المستمع انقلاب الموضوع بسهولة ، يبدو الاسترجاع ، الحركة الكانكريزية ، شيئاً مصطنعاً ، مدرسياً ، يمكن ادراكه فقط خلال القراءة . . . » .

لكن بعد التخلصّ من هذه البنية المنتظمة والموضوعية التي هي

---

(1) Landry, loc: cit., p. 25.

(2) ID., Ibid., p. 29.

القياس ، سيتراءى الجانبُ الإيقاعي في تواصل رمزي اكثر منه واقعي . وبين الجوانب الايقاعية سيكون الجدل حراً اكثر ، وسيكونُ زمنُ الموسيقى ، في تطوّره بالذات ، محاطاً بنسبّية جوهرية . وكذلك كل التصويرات البطيئة التي تسري كما يحلو للمرء . فهي ذاتية اكثر منها موضوعيّة . والحال ، فإن هذه التصويرات البطيئة تشكّل مناطق هامة . انها المناطقُ التي يتم فيها الانفعالُ التبايني . إنها التراخيات الاناشيدّية . وهي في الصميم اكثر عدداً مما يشير اليه التصوير . وان نفساً موسيقية خبيرة قليلاً تشعر وتحيا هذا الجدل ، جدل الانتظام والحرية ، جدل الانفعال التبايني ثم التحقيقي الذي يتاوج على امتداد الانشودة .

وفي مستوىً تفصيلي ابعد غوراً ، لا يكونُ « وقت » النوطة في الموسيقى واحداً من عناصرها الخالصة ، بدائياً بشكل خاص ، كما يوهمنا بذلك اساتذة التنغيم : ان عمانوئيل يسجّل هذه الملاحظة بحق(1) : « من حيث المبدأ . . . يكون التوتر متصّلاً بالطول ، بمعنى ان الأطول هو الأقوى بين عنصرين زمنين غير متساوين . ان الطول والقوة مقترنان : انه في علم الايقاع القديم نوعٌ من الضرورة . وفي النظم الشعري الايقاعي ، القوة ستستدعي الطول » . ثم (ج II . ص577) : « ان المبدأ الذي يطرحه القدماء ما يزال في القرن الخامس عشر وسيبقى صحيحاً دائماً ، نعني : ما عدا إشارات او قواعد خاصة ، فإن العلاقة القائمة بين الزّمن والتوتر تكون مُباشرة بين الأصوات » . وكون هذه العلاقة مباشرة يستحق ، في رأينا ، اكبر

(1) Emmanuel, loc. cit., p. 526.

اهتمام ، لإن هذا يبّين بكل جلاء ان التوتر هو الذي يعطي الزّمان ، وان الزمان ـ مرّة أخرى ـ ليس الا نتيجة . ان الطابع الانصهاري ، المطفأ ، الغامض للترابط الغنائي يمكنه اذن ان يصدر عن الدافع الصوتي . انه نوع من الظُليل الصوتي الذي لا يدخل في الحساب الايقاعي الصحيح .

ويمكن ان نجد في هذا التساند بين التوتر والزمان في الظواهر الغنائية ، مثالاً على نظرية جان نوغيه(1) . وتقوم هذه النظرية على دراسة ذكية وعميقة لطاقة الأحاسيس . فتمّيز نمو الإحساس بين الدعم والاندفاع ، وبذلك تساعد على تحليل الشروط الجمودية والشروط الدينامية للإحساس . واننا حين نقرّبُ هذا التحليل من إكتشافات عمانوئيل ، سندركُ الطريقة التي يطلع فيها الصوت إنطلاقاً من لحظة الدعم . فالصوتُ لكي يستمر يحتاج الى احتياطي من الطاقة . وهذا الاحتياطي موجود جمودياً قبل توزّعه دينامياً . وعلينا الإلمام به في قيمته الأولى لكي نقيس التوتر حقاً ؛ وان الزّمن الذي يسري منه يعطينا عنه قياساً اقل دقّة . ان وجود هذا المركب من التوتر والزمن يبرهن ، على الأقل ، على ان الوقت ليس نوعاً اولياً حقاً للعناصر الموسيقية .

سيكون هذا الطابع المركّب اكثر شفافيةً اذا اخذنا بالاعتبار انه لا ينضافُ الى جدل الطويل والقصير ، جدل القوى والضعيف فحسب ، بل ينضاف أيضاً الى جدل الحادّ والخفيض . عندئذٍ نفهم تذرُّرَ الأغنية حقّ الفهم . لقد لاحظ ليونيل دورياك بلطافةٍ شديدة المراحل المميزة لهذا

(1) سنجد عرضاً مكثفاً لنظرية جان نوغيه في مقال مرموق :

Jean Nogué, Ordre et durée, in revue philosophique, juillet 1932

التذرُّر . فانطلق من « ثنـائية الحـاد والخفيض » . وسلَّـمَ اولاً بتغـايرٍ متواصـلٍ من الخفيض إلى الحـاد . وعندهـا سيكون « الارتفاعـان » مترابطين بـ « مسطحٍ منحنٍ » . لكن صوتُ الولد الذي يصعدُ ويهبطُ وهو يتلاعب على امتداد هذا « المسطحّ المنحني » . سرعان ما يحولهّ إلى « سلَّـم » . وعليه «يوم يحـدث في حنجـرة الولـد صوتُ صحيح ، سيمكننا القول ان اللعبة الطارئة للجهاز الصوتـي نجـمُ عنهـا عمـلُ حقيقي . فما هو قوامُ هذا العمل ؟ انـه انتـاج ذراتٍ صوتيّة يقطعهـا الانتباه المتصاعدُ لدى المولود في الحقل اللامتناهي للخفيض والحّـاد . لماذا استعملُ عبارة الذرات فسوف نفهم ذلك سريعاً اذا تصوَّرنـا ان صوتاً صحيحاً يظـلّ دائماً ، وطـالما هو موجـود ، على درجـة السلـم الموسيقى نفسها ، واذا تضوَّرنا ايضاً ان الأصوات الموسيقية عاكسةٌ، في النسق النوعي ، لكل تباين الدرجات : درجةré أو درجةmi ، قوية أو ضعيفة بقدر ما نتخيَّلُ توترها . تظلّ دائماً طالما انها تتردّد كأرنان، درجة ré أوmi »(1) . وسيبدو لدى الوهلى الأولى، ان هذه الأطروحة يفترض فيها ان تخدم انصار التواصل المسبق وسيعتـرضُ على ذلك بالقـول ان تذرير الاعالي والطوابع ثانويٌ ومصطنعٌ . ولكن لدى التأمل الجيّد في الأمر يجب ان نلاحظ ان « التواصل » المطروح كشيء مبـاشر هو شيء عابرٌ لا يمكنُ ان نجعل منـه قاطـرةً تُبنـي عليهـا المفـاهيمُ الموسيقيّة . وبخـلاف ذلك ، يكونُ التـذريرُ شديد الاولية والفعـوية ، وقليل التعلّم ، لدرجة انه يبدو في كثيرٍ من الأحوال كشيء طبيعي . فلم يعد التواصل ، كما يقولُ ليونيل دورياك ذاته ، « مركز الصوتيات الغامضة

---

(1) ليونيل دورياك : حول الأصل المشترك للغة الصوتية واللغة الموسيقية ،
Journal de psychologie, 1932, p. 834

والمتنافرة » .

هكذا ، حين نتخّذُ خطاً غنائياً شديد البساطة والوحدة قدر الاماكن ، نرى ان عناصر التذرير تتراكم . وربما يكون من العبث مقاومة هذه العناصر،عناصر المظهرّية الصوتيةوالإصرار على ان نرى في الزّمانِ مادةً للاغنية . ففي الواقع ، ان الاغنية ، شأنها شأن الحياة ، لا تقدّم علاماتٍ جيدةً لعلم النفس الزمني . فهي سرعان ما تخدعنا حول الزمان ، لإنها تضيف كثيراً من الألوان الطفيلية على الايقاعات المبنية على جدلية الصوت والصمت . وسوف نفهم ذلك على نحوٍ افضل عندما سنقوم ببعض الملاحظات حول التراكبات الايقاعيّة .

III

قبل عرض النسبيّة الاساسية في التراكباتِ الإيقاعيّة ، يلزمُنا طرد كل عادة استناد إلى زمن مطلق . هنا ايضاً ، نؤكد على الطابع الثانوي جوهرياً والذرائعي للقياس . إن التساوقيّة لا تتحقّقُ بقياس صحيح للأوقات ، وانما تتحقق فقط بالاشارة الآنّية إلى الإحاشة . والإحاشة ، بحسب رأي الخبير(1) ، « وسيلة عملية لتنفيذ اشد التراكبات الإيقاعية حدّةً » . وسواءً خضعت بذاتها لإيقاع بسيط ، ام ادّعت انها تقدّم قاعدةً موضوعيّة ، صالحة لكل الأصوات ، وزمنا حسابياً للأوقات المنتظمة ، فأن هذه كلها لا تكونُ إلاّ اعتراضاتٍ خادعةً .

وبالتالي فإن الإحاشة لا تعمل بوصفها زمناً ، وانما بوصفها علامةً ، إشارةً . انها تعقدُ التطابقات ؛ وهي تعقد شتى الايقاعات

---

(1) Emmanuel, loc. cit., t. II, p. 378.

حول آنـات ملحوظـة دائماً . ومـن جهـة ثانية كم يكون عمـل قائـد الاوركسترا اكثر فعالية من عمل اوالية منتظمة جيداً . انه حقاً معلـمُ الحركات اكثر منه مفرِّق الزمان المحض . فهو لا يتدَّبرُ الزمان فحسبُ وانما ينفخه ايضاً ، وهنا بالذات نرى قيم التوتر تتغلّب على قيم الوقت . فغالباً ما يتوجب على قائد الاوركسترا ان يترك الصوت ينطفيء بدلاً من خنقه . فهو يقيس الاندفاع بقوة الدعم ، وهو كذلك يدعمُ سجلاً على آخر ويضبطُ الترابط الإيقاعي .

هنا نلمسُ تمثلاً للمفارقة التناقضية التي كنـا قد تكلمّنـا عنهـا في تمهيدنا ، فمنذ ان نرفض الاستناد إلى زمن مُطلق . يغدو من الضروري التسليم صراحةً بالدعم المتبادل للايقاعات . وعليه ، ليس من المناسب اتخاذ ايقاع قاعدي يمكن ارجاع كل الأدوات اليه . ففي الواقع تتساندُ شتّى الأدوات وتعاضد بعضها البعض . وإن دور القائد هو ان يجعـل دور ترابط العازفين اكثر وعياً .

هذا الترابط هو مصدر الشعور بالتواصل والامتلاء . ولا نعلمُ حقّ العلم اذا كان ما يقود هو الايقاع القوي ام الإيقـاع البطـيء ، وذلك بالتحديد لإن التعاون هو الذي يحدّد الانقياد . كذلك لا يمكنُ الفصلُ حقاً بين الأغنية والانسجام ، وهذا ما بينّـه جورج أوربـان في بضـع صفحات مكثفة جداً وغنية جداً[1] : « ان التسلسل الغنائي مدينٌ بكل صرامة للتسلسـل التناغمـي » . فدائماً ثمـة شيء يرافـق ، ثمـة شيء يساند . لكن هذه المرافقة والمساندة هما أقـل حضـوراً ممـا هو مُرافـقٌ ومُسَانَدٌ ؛ ولهذا يمكنُ التسليمُ بمفارقة أوربان : « حتى عندما تكون

(1) Journal de Psychologie, 1926, p. 206.

الانشــودة عارية تماماً ، نعنــي عندمـا تكون اغنية وحيدة فاردة monodie « . لا بد من تنظيم ضمني ؛ « عندئذٍ يُفترضُ الانسجام بأنه ضمنيٌ » . ويمكنُ القول اننا عندما تصغي لانشودة وحيدة الخط الى ابعد حد ممكن ، انما نمنحها كثافة ، ونرافقها . فلا يمكننـا الاصغـاء اليهـا كمجموع دون ان نوفّر لها مرافقاً . ولا يمكن الاعتراف لها بارتباط ولا بزمن متصل ، بدون هذا الجمع المتنافر ما بين الصوت والنفس .

وهكذا ، يتـكرّر الاستنتـاج ذاتـه : ليس المسـار المؤتلف بمَسـارٍ تطوريٍ أبداً . وان التعدد وحده يمكنه ان يدوم ، يمكنه ان يتطوَّر وان يصير . وتكون صيرورة التعدّد متعدّدة الأشكال مثلما تكون صـيرورة الانشودة متعددة الأصوات على الرغم من كل التبسيطات . ان الزمن الصوتي جدليٌ في كل الاتجاهات،فوق محـور الانشـودة كما فوق محـور النغم ، وفي توّتره كما في طوابعـه ، وربمـا تكون العلامـاتُ الموسيقية أجدر واحقّ بان تعلمّنـا الجدليات الزمنية من ان تعطينـا صُوَراً عن تواصـل جوهـري ، وربمـا يكفـي لذلك ان لا نعـدو بسرعـةٍ شطْـرَ التجميعات التي تقوم بها الانطباعات الاجمـالية والتـي يُراد ان تُعـاش حقاً ، بدون لزوجة عاطفية ، في الحياة الموسيقية العارضة حقاً والحرَّة .

IV

يمكننا الوصول الى النتائج عينهـا اذا تناولنـا ، بالـروح التحليلية عينها ، دراسة الايقاعات الشعريّة . وسوف نكتفي ببعض الملاحظات لكي نبينّ ان الايقاعية الشعريّة تنفصلُ شيئاً فشيئاً عن المفاهيم القياسية وانها تغدو حسابية مع تجميع الآنات الملحوظة اكثر مما تغدو كذلك مع قياس ازمنة موّحدة الشكل .

ويبدو ان المفاهيم القياسية لا تمثلُ منذ اللحظة الأولى . فقد بينّ راول دو لاغراسيري الطابع المتأخر للإيقاع المحض صوتي في الشعر . فبنظره ، إن منطلق العروض ، هو بيت الشعر[1] « الكل النفسي المتكوّن من انقسامات الزمان التي تتوزّع الكلمات فيما بينها ، اي الأفكار . وفي نقطة التطور هذه ، امامنا . . . النثر التوراتي . . (في زمن متأخر) فمن نفس عدد الكلمات في كل جملة ننتقل لا شعورياً ، والكلمات ذوات أطوال متباينة ، الى نفس عدد المقاطع ، وعندئذ ولد الشعر البدائي ، الشعر المبني بيته على عدد المقاطع » . وان ما يهمنا في اطروحتنا هو ان الطابع الأولي للشعر النفساني هو تفوّقه الأصلي على القيمة الزمنيّة الموضوعية . وسوف نعودُ إلى هذا الشعر النفساني ، هذا الشعر الابكم ، اذا اردنا التأمل في الابيات الشعرية بدلاً من المرور عليها مرور الكرام ، فوق الكلام الداخلي ذاته ، في زمان الفكر المنقوص . وعندئذٍ سندرك ان التواصل جدليٌ في اساسه ، وانه ناتجٌ عن مصالحة الأضداد ، وانه زمنّياً مصنوع من الإسقاط والتأجيل إلى المستقبل ، او من الجزر نحو الماضي .

ويقدّم الشعر السوريالي امثلة جيّدة عن هذه الجدلية الزمنية ، هذا الايقاع النفساني المحض . واذا صادف الاعتراضات او اللافهم من جانب علماء النفس المنطقيين والنقّاد الأدبيّين ، فمردّ ذلك الزعم بالحكم عليه من خلال فرضهم عليه تصاميم التواصل ، دون التسليم بالحرية الجدلية المنشأ عليها . وفيما يتعّدى الصوتيّات ، في مستوى الحياة النفسانية الناشئة ، يمكن للصمت ان يختصر او يمتّد ، لا فرق ! فمن

(1) Raoul de la Grasserie, loc. cit., p. 24.

الممكن ان نرتاح او ان نتحرك ، ان نعطي شعوراً بالجمود او بقطعه فجأةً من خلال انطباع مختلف او مناقض . عندئذٍ تبـدو العليّة الشعـرية في انفكاكها الـدقيق ؛ فهـي تشـع على مدى بعيد ، على الرغـم من كل الوسائط ، وتقفز من مركزٍ إلى آخر ؛ وليست تحـركات المقاطـع سوى تموُّجات . فأن تكون شاعراً معناه مضاعفة الجدلية الزمنيّة ، معنـاه ، رفض التواصل السهل للإحساس والاستنتـاج ؛ معنـاه رفض الراحـة الانهداميّة لتقبّل الراحة المتموجّة ، الحياة النفسيّة المتموّجة .

ولا ريب ان هذا الشعر المعقول يحتاج الى شعر محكي حيث الصدى سيكشفُ الصوتَ العميق ؛ لكن انطلاقاً من الإيقاع المعقول سينظِّـمُ الايقاع المسموع . وليس العكس . واما حسابُ المقاطع ، وهو نوع من الايقاع المطبوع ، فلا يمكنه حظرُه ابداً . ويكفينا بهذا الصدد ان نذكر لتدعيم اطروحتنا الدراسات الشديدة الطرافة التي اجراها بيوس سرڤيان خلال الأعوام الأخيرة هذه حول مظاهـر الإيقـاع الشعـري . ان هذه الدراسات تقتربُ في بعض الجوانب من اكتشافات عمانوئيل . وبالتالي بينَّ بيوس سرڤيان ان قياساً للأزمنة كان بعيداً جداً عن تشكيل قاعدة الإيقاع الشعري . او على الأقل ان مقياس الأزمنة هذا لا يدّعم سوى إيقاع وهمي(1) : « بذلت قصارى الجهـود لتحديد الطول والقصر بكل دقة ، وذلك من خلال تحليل الكلمات تحليلاً دقيقاً ، دون الإدراك ان كل شيء ينهار كقلاع من كرتون ، منذ ان تمر نسمةُ الخطاب على هذه المباني الحقيقة . فطولُ الكلمة وقصرُها بتشوهات ايضاً ، وفقـاً لموقـع الكلمة ودقتّها في الجملة » ان الإيقاع الشعـري الحقيقـي مصنـوع من

(1) Pius Servien, les rythmes comme introduction physique à l'esthétique, Boivin, 1930, p. 64.

اجتماع الصوتيّات ؛ فهو تعزيز ، وهو توّترٌ ؛ وليس الوقتُ سوى نتيجة مخلصة تقريباً . « لا توجد سوى إيقاعية واحـدة مستقلـة حقـاً وتأمـر الايقـاعيات الأخـرى كافـةً . . . وعلى سبيل المثـال نورد الايقـاعيات الثانوية اي المأمورة إطلاقاً بالايقاعية الصوتية ، فنذكر الطوابع اولاً ، والأوقات ثانياً » .

ويمكن لمذهب برغسوني متفاصل ان يستقبل هذا الانجـاز للزمـر الصوتية ؛ لكن سيلزم بالطبع ان تحتفظ القيم الإيقاعية بتفاصيل الدوافع لشتى التوترات ، من ثم سيلزم ان تتقارب هذه التفاصلات على صعيد اشد انسجاماً ، في مستوى الظاهرة المسجّلـة ، بصرف النّظـر عن كل حياةٍ صماء من شأنها ان تقدّم لنا اتصالها الاسامي . « فما همنا قياسُه هو التمـوج المسمـوع فعـلاً ؛ والتمـوج الملحـوظ فوق كل شيء »(1) . والحال ، هذا الأمرُ لا يسري بدون ازالة الفوارق غير الفاعلة ، بدون تفوُّق العلّة الشكيّة على العلّة الماديّة . فالصوت الحادثُ لا شيء بالمقارنة مع الصوت الملحوظ . اذاً سيتكوَّنُ الايقاعُ على صعيد تجريدي حيث لا يتوانى الفـكرُ عن الاضطـلاع بدور ناشـط . ويصـل سرڤيان الى هذا التحديد العام جداً(2) : « يمـكن لشيء ما ان يكون عامـلاً إيقـاعيّاً إذا استطعنا ان نميِّز فيه مجاميع من العناصر تمتلك الخـواص التـالية : (1) عناصر كل المجاميع يجـري إدراكهـا كأنهـا من طبيعـة واحـدة ؛ فاذا استرعى احدهَا الانتباه ، صار الانتباه شاملاً الكل ؛ (2) تبدو عناصر مجموع واحدٍ كأنها متساوية ؛ وتبدو عناصرُ مجموعين مختلفين كأنها غير متساوية » .

---

(1) Pius Servien, Ibid., p. 27.

(2) ID., Ibid., p. 29

في هذا المستوى من التجريد ، تفقدُ المكانةُ الدقيقة للحوادث في زمنٍ وحيد الشكل كثيراً من أهميتها ، وندرك ان مبدأ الوتائر يسـودُ مبدأ المقاييس . بكلامٍ آخر ، السؤال « كم من المرّات » يسبق سؤال « كم من الوقـت ؟ » . واذا اتهمنّـا هنـا بالـدوران في حلقـةٍ مفرغـة فيعُترض علينا بالقول انه يلزم لمقارنة الوتائر ان تعطـى فواصـل زمنية متساوية ، فسوف نجيبُ بانه التساهل في « تساوي » الفواصل الزمنية يكون كبيراً بحيث انه يحّطم كل فكرة قياس . ان الغنائية بأسرها يجري تحليلُها حسب نسب التقاطع المشدَّدة والمقاطع الرخوة ، وهذه المحاسبة تهمل الاوقات .

يتبّين ان بيوس سرفيان استطاع ان يقترح وضـع ايقـاعيَّة شديدة التعميم في اساس كل جمالية . ونحـن نقتـرحُ وضعهـا في اساسـكل ميتافيزيقيا زمنّية .

فلنحدّد عندئذٍ المبدأ الزمني الأسـاسي للايقـاعية المعمَّمـة : انـه استردادُ شكلٍ معينّ . ويكون الطابع إيقاعياً اذا استرَّد ذاته . عندئذٍ يدوم من خلال جدلية اساسيّة .

واذا كان ثمّة ايقاعٌ ينظم طابعاً بقوةٍ ، فسوف يجتلبُ غالباً طبائع مقترنة . وحين يرّدُ الإيقاعُ شكلاً معيناً ، إنمـا يرُّد في الغالـب مادةً ، طاقةً . ومثال ذلك ، « ان الموسيقى التي تنتهي تقود إلى هذه الراحـة الطاقات التي كانت قد خلقتها . وفي معظم الأحيان ، تقودُ إلى الراحة معظم الطاقات الغريبة المنشأ ، التي تقبلّتها واجتلبتها معهـا[1] . وان

(1) Pius Servien, loc. cit., p. 45.

فلسفة الراحة لن تتملى مطّولاً في هذه السببيّة الشكلية والعرضية معـاً التي تعطي المقياس الصحيح للمتطلّبات الزمنيّة . حقاً إن الايقاع هو الطريقة الوحيدة لضبط الطاقات المتنوعة جداً وحفظها . فهو اسـاسُ الدينامية الحيّة والدينامية النفسانية . ويمكنُ للإيقاع ـ وليس للإنشودة الشديدة التركيب ـ ان تقدّم العلامات الحقيقية لفلسفة جدليةٍ للزّمن .

الفَصْــل الثَّامِنْ

التحليل الإيقاعي

ان دراسات لوسيو البرتو بينهيرودوس سانتـوس البالغـة التعقيد والتنوّع ، كما استطعنا التعرُّف اليهـا . تتمثّـل في صورة مسلسـل من البحوث اعتبرها واضعَهاذاته بحوثاً مؤقتة وعرضة للتنقيح(1) . ولا ننوي ان نقدم مخطّطها الإجمالي ولا ان نصف خطوط نموها الكثيرة . فنحن لا نريد سوى تحديد بعض موضوعاتها العامة وفحص بعض اصدائها التي يمكن تعيينها في اطروحتنا الخاصة بالأزمنة الجدلية اساسـاً ، المبنية على التموجات والأيقاعات . وقد يلزم كتاب ضخم لعرض اعمال بينهيرو دوس سانتوس كما تستحقّ . فهي توحي في عدة مجالات بتجارب ينبغي لها ان تغري العاملين الباحثين عن افكار جديدة .

I

يدرس بينهيرو دوس سانتوس الفنومنولوجيا الإيقـاعية من ثلاثـة جوانب : مادية ، بيولوجية ، بسيكولوجية . ونحن لن نقوم بغير تناول سريع لما يتعلّق بالجانبين الأول والثاني لانه في هذا الكتيّب لا يهمنا سوى اسس علم نفس الزمان .

---

(1) استاذ الفلسفة في جامعة بورتو (البـرازيل) : التحليل الايقاعي La Rythmanalyse من منشورات « جمعية علم النفس والفلسفة » ، ريودي جانيرو ، 1931 .

فقد صار اليوم من اهم مبادىء علم الفيزياء المعاصر القول بتحوّل المادة إلى اشعاع متموّج ، وتحول الاشعاع المتموّج إلى مادة في المقابل . وبالطابع ، لا بد لهذا التحوُّل السهل الانقلاب ان يقود إلى التفكير ، من بعض الجوانب ، بأنّ المادة والإشعاع متناظران . ومعنى ذلك انه يجب على المادة ان يكون لها ، شيمة الإشاعات ، مزايا تموجية وايقاعية . فالمادة ليست منشورة في المكان ، ولا تبالي بالزمان ؛ فهي لا تمكثُ ثابتةً ، جامدةً كلياً ، في زمن وحيد الشكل . وهي لا تعيش فيه كشيءٍ يستنفَدُ ويتلاشى . فهي ليست حساسّة بالايقاعات فحسبُ ؛ وانما هي موجودة ، بكل ما للكلمة من قوة ، على صعيد الايقاع ، ويعتبرُ الزّمانُ الذي تنمّي فيه بعض التجليّات اللطيفة زماناً مشّعاً ، زماناً ليس له سوى طريقة وجود وحيدة الشكل : انتظام تواتره . وان شتى القوى الجوهرية للمادة تبدو كأنها وتائرُ ، وذلك منذ ان ندرسها بالتفصيل . وبوجهٍ خاص ، منذ ان نتوّصل الى مبادلات الطاقة المفصلة بين موّاد كيمائيّة شتى ، سنلاحظ ان هذه المبادلات تتّم وفقاً لطريقة إيقاعية من خلال الوسيط الضروري بين الإشعاعات والوقائع المعيّنة . ولا ريب ان الطاقة المنظور اليها نظرة عامة يمكنها ان تفقد ايقاعاتها في الظاهر وأنْ تتراخى نسبتها في الزمن المتموّج ، وعندئذٍ ستبدو كنتيجة شاملة ، كمحصّلةٍ فقد فيها الزمان ذاتُهُ بنيتَهُ التموجيّة : فيدفع ثمن الكهرباء حسب الهكتواط ـ ساعة ، وثمن الفحم بالطن. ولكنه مع ذلك يستضيءَ ويتدّفأ بواسطة التموجات . ولا يجوز ان ننخدع بأشكال الطاقة الاكثر ثباتاً . ان نظرية الغازات المتحرّكة كانت قد علمتنّا بأن غازاً محجوزاً في جسم ضخّاخ يبقي البستون عند مستوى ثابت بفعل جملة من الصدمات غير المنتظمة . وقد لا يمتنع بلا ريب حدوثُ اتفاق زمني بين الصدمات فيقفز البستون تحت تأثير بسيط

لصَدَمات متساوقة ، بدون اي سبب مكروسكوبي . لكنَّ العالم الفيزيائي واثق : ان قانون الاعداد الكبيرة يحفظ ظواهره ؛ وان فرص التوافق الزمني بين الصدمات ذات ارجحية لا تذكر . وبطريقة مماثلةٍ تماماً ربّما تبينّ لنا نظرية الاجسام الثابتة الاشكال الاشد استقراراً تدين باستقرارها الى تنافر إيقاعي . فهي الأشكالُ الإحصائيّة لاختلال زمني ؛ ولا شيء اكثر من ذلك . فبيوتنا مبنيةٌ على فوضى التموّجات . ونحن نجلسُ على فوضى من التموجات . والاهراماتُ التي وظيفتها التأمل في الأجيال المتكرّرة برتابة هي ترجيعات صوتية لا متناهية . وان مغنياً ، قائد اوكسترا المادة ، الذي يوّفق بين الايقاعات المادية ، قد يطيرّ جميع هذه الحجارة . ان امكانية انفجار محض زمني ، مردّها فقط إلى فعل تناسقي مركز على الازمنة المتراكبة الخاصة بمختلف العناصر ، تبّين جيّداً الميزة الأساسية للايقاع بالنسبة إلى المادة .

واذا درسنا المسألة في مستوى جزيء خاص ، سيكون الاستنتاج هو ذاته . فاذا توقّف جزيء عن التموّج انما يتوقّف عن الوجود . ومن الآن فصاعداً يستحيل تصوّر وجود عنصر مادي دون إلحاق وتيرة معينة بهذا العنصر . إذاً يمكنُ القولُ ان الطاقة التموجيّة هي طاقة الوجود . وعليه ، لمَ لا يكونُ لنا الحقُّ بتسجيل التموج في مستوى الزمن البدائي ذاته ؟ اننا لا نتردّدُ في ذلك . فبنظرنا ، الزمنُ البدائي هو الزمن التموّجي . والمادة موجودةٌ في زمن تموّجي وفي زمنٍ تموّجي فقط . حتى وقت الرحة ، تملكُ الطاقة لإنها ترتاح على الزمن التموجي . وربما يكون ذلك معناه النسيان لطابع اساسي مثل اتخاذ الزمان كمبدأ لوحدانية الشكل ، فلا بدّ من ان تُعزى للزّمن ثنائيّة ملموسة لإن الثنائية ، الملازمة للتموّج ، هي محمولة الفاعل . وندرك الآن لمَ لا يتردّد بينهيرو

دوس سانتوس في الكتابة[1] : « لا وجود للمادة والإشعاع إلاّ في الايقاع وبالإيقاع » . وليس هذا باعلانٍ مستوحىً من صوفيّة الإيقاع ، كما هو الحالُ غالباً ؛ انه حقاً حَدْسٌ جديدٌ قائمٌ بقوةٍ على مبادىء الفيزياء التموجيّة المعاصرة .

وعليه ، ليست المسألة الأولية في التساؤل عن كيفية تموُّج المادة ، بقدر ما هي في التساؤل عن كيفية تمكنُّ التموُّج من ارتداء المعالم الماديّة . ان مذهب علاقات الجوهر والزمن يبدو إذاً في ضوءٍ ميتافيزيقي جديد كلياً : فلا يجوز القول إن الجوهر يتنامى ويتجلىّ في شكل الإيقاع ؛ بل يجب القول إن الايقاع المنتظم هو الذي يتجلى في شكل محمول مادي معينّ . إن الجانب المادي ـ مع غنى عقلانّية الملفّق ـ ليس إلاّ جانباً غامضاً . وبكلام أدقّ ، إن الجانب المادي هو الالتباس المُتحقّق . فالدراسة الكيمائية لا تخاطبُ مادةً بل تخاطبُ جوهراً خالصاً ، وسوف تؤدي عاجلاً أم آجلاً إلى تعديد الصفات الدقيقة لهذا الجوهر الخالص مثل الصفات الزمنية ، اي مثل الصفات المميّزة كلياً بالإيقاعات . وان الفوتوكيمياء توحي في هذا الاتجاه بجواهر جديدة حقاً يترك عليها الزمن التموّجي بصماته . ويمكن توقّع قيام الكيمائي قريباً بصنع المواد الجوهرية مع المكان ـ الزمان المتوازي والايقاعي . بكلام آخر ، محل المكان ـ الزمان الوحيد الشكل مرتين كما هو رائج في عصر ما قبل بروجليه ، يتوجب على الميتافيزيقي الذي يريدُ تأسيس حدوسه بالتوافق مع الحاجات العلمية الراهنة ، ان يُحّلَ التوازي الإيقاعي La Symétrie- rythmie .

---

(1) Pinheiro Dos SANTOS, loc. cit., t. II, scet, I, p. 18

كما نرى ، تحتاجُ الـواقعيَّةُ الى انقـلابٍ ميتافيزيقـي حقيقـي لكي تتوافقُ مع الماديّة التموّجية . وهذه نقطة نقترح الرجوع إليها في كتابٍ آخر سيمكننا فيه الإحاطة بالبراهين العلمية . ولـذا لن نناقش حتـى نعرف اذا ما كانت واقعية مقلوبة على هذا النحو ما تزال واقعية بالمعنى الحقيقي للكلمة . وحـالياً ، ليس لنـا سوى تنـاول الاسس الفيزيائية للتحليل الإيقاعي ، وتبيان ان هذه العقيدة البيولوجية والبسيكولـوجية بشكل خاص ، إنما تنطلقُ من نظرة ما ورائيّةٍ عامة .

II

كذلك سنكون وجيزين جداً في تناولنا البحث البيولوجي التموُّجي الذي قام به بينهيرو دوس سانتوس . ان الكاتب يقترح في خصـوص عدد كبير من الوقائع ، المجتلبة من الطب التجانسي Homéopathie ، التفسير « التموُّجي » ، اي تفسير الفعل الجوهري بابـدال الجوهـر من اشعاعٍ خاص . وان التمويه ، المتعاظم دائماً في الطـب التجـانسي ، يحبِّذ ويشجع بوجهٍ عام الزمننة المتمّوجة للجوهر الطبي . ان هذا التفسير مستساغ ؛ لكنه لا ينفي كلياً التفسير الجوهراني التقليدي . ولا ريب انه يتوجب القيام بتجارب تفريقية ـ مثلاً تجارب التفاعل الطبي الحقيقية ، المنظور اليها من زاوية الطريقة التموجية ـ لاضفاء الشرعية التامة على الشكل التموّجي الذي اقترحه بينهيرو دوس سانتوس . ولنحاولْ فقط ان نميِّز ميتافيزيقياً بين الوجهتين المتعارضتين والمتكاملتين حول الجوهر والإيقاع .

ان الحدس الجوهراني المألوف هو أولاً متعارض ، بطريقة ما ، مع وجود الطب التجانسي . وبالتالي ، ان الحدس الجوهراني ، في شكله

الساذج ، اي في شكله المحض يفترض ان يؤثر جوهر تأثيراً نسبياً على كتلته ، حتى درجة معيّنة على الأقل . واننا نرعب في التسليم بأن هناك مقادير خفيفةً يؤدي تجاوزها الى اضطرابات . لكننا لا نتوّصلُ الى التسليم ، بسهولة ، بوجود فعالية للتماهيات القصوى التي يوجّهها الاطباء التجانسيّون . وطالما اننا نعتبر الجوهر الطبي كواقعٍ كميّ ، فإننا لن نفهم بيسرٍ عملاً جوهرياً قد يحدث ، بطريقة ما ، في اتجاه معاكس للكميّة . كذلك ننشدُ دائماً ، في وقاية صحية عقلانيّة ، ان توضع المواد الغذائية الجوهرية تحت رقابة خطة مدوزنة . فالجسم البشري هو بمثابة مخزن مؤن لا يجوز ان يبقى ايٌّ منها فارغاً . لا مفرّ من ابتلاع المقدار اليومي من شتى الأغذية التي يفترض وجودُها ، مادةً مادةً ، في الإقتصاد . هنا ايضاً ، يجري نقل الحدس الكمي إلى المُقام الأول .

ويمكن في هذه المناسبة البدء بتحليل نفساني لشعور الامتلاك . ان النجاح السهل للنكات الموّجهة ضد الاطباء التجانسيّين يتصّل ، بلا ادنى شك ، بانتشار الملذّة الامتلاكية ، الفيزيائية بكل وضوح ، المادية بكل وضوح ، الناجمة عن وعي الهضم والتضخّم . ويفترض بالطب التجانسي وبالوقاية الصحية التموجية ان يردّا على هذا الأمان الاعظم والمباشر الذي يمنحنا إياه فرحُ الإلتهام . فهذه العقائد الخاصة بالجرعة الصغيرة تجدُ في مواجهتها ليس فقط فكرة الجوهر ، وانما ايضاً الشعور الواضح بالقوة الذي تشعرُ به تجاه الامتلاك ، واكتناز الاحتياطات والرساميل .

لكن فلنسلّم اذن ، مقابل هذا الاقتناع الأولي المضطرب ، بواقعة الطب التجانسي ، ولننظر كيف يفسرُّها بينهيرودوس سانتوس تفسيراً إيقاعياً . بنظره ان الاستيعاب هو تبادل جواهر اقل مما هو تبادل طاقة ؛

وبما ان الطاقة لا يمكنها الإنفلات ، في تطورها التفصيلي ، من الشكل التموّجي ، فإن بينهيرو دوس سانتوس يقترح الادخالَ المنهجي للإشعاع بين المادة المستوعبة والمادة المهضومة . زدْ على ذلك ان لتعبير جوهر ممثول معنىً ضئيلاً . فاذا كان المقصود مجرّد تحذير ، كما هو الأمر في شأن الخلايا الدهنّية ، فان المطلوب (?) يكون الفعل الحيوي الابتنائي . ففي الوقت الذي تستهلك فيه المادة الجوهرية وتتحطم ينبغي ادراكُ عملها . (ولا نقول في الوقت الذي تتحول فيه المادة الجوهرية ، لإن المادية التموُّجية يمكنها ان تطرح تحطيم المادة) . والحال في وجهات علم الإحياء ليس من الممكن ان تؤثر مادة جوهرية تأثيراً فعلياً ما لم تتزامن في شكل تموُّجي ، تالٍ لتحطيمها . واذا وضعت في الاحتياط ، تجمدَّت في المكان الجامد . انها لا تفعلُ إلاّ حيثُ تكون ، اي لا تفعل إلاّ في ذاتها . وحتى تخرج من ذاتها ، سيلزم ان تنتشر ولا يمكنها ان تنتشر إلاّ تموجيّاً . ان العمل الخارجي هو بالضرورة عمل تموُّجي . زد على ذلك انه سيلزمُ دائماً تدخل تموُّجٍ ما لإيقاظ وتنشيط مادة جوهرية موضوعة في الاحتياط . وعليه يجب اذن الرجوع دائماً الى مرحلة التنشيط لاجل فهم فعل مادة غذائية او دواء .

عندئذٍ يغدو من الضروري تقويم الافعال العلاجية بين إيقاع وإيقاع بدلاً من تقويمها بين شيء وشيء . فما هي التموّجات التي نحتاج إليها عادةً ؟ هوذا السؤال الحيوي . وما هي التموجات التي تنطفىء او تُستثارُ ؟ ما هي التموجات الواجب تحريكها او الحدّ منها ؟ هوذا السؤال العلاجي الطبي .

لكن هذه النظرة العامة ، كيف ستسهمُ في تفسير الواقعة الطبية التجانسيّة ؟ بما ان المقدار شديد التمويه فإن المادة الطبية يمكنها ان تنشر

الإيقاعات . وبالتالي في شكل عام ، يمكن للمادة ان تمتّص ايقاعاتها الخاصة بنوعٍ ما : وربما تدخلُ في حالة إرنان مع ذاته ، دون ان تملأ دورها بالإثارة الخارجة عنها . وقد تنجو من التحطيم المحتوم ، فلا تتلاعبُ مع العدم . قد تستَرد ذاتها بذاتها ، وفي الواقع يبّين فيزياءُ الإشعاعات ان الجواهر تؤثر بشكل خاص من خلال العناصر السطحية ، وان الاشعاعات من الاجزاء العميقة تستوعبها المادة المشعّة ذاتها . ان إماهة المادة الطبية التجانسّية هي اذن شرط لفعلهِ التموُّجي .

بطريقة مماثلة ، سندرك ان للباقات وللأشذاء فعلاً هضمياً شديد الفعالية بقدر ما تكونُ بالغة اللطافة والندرة . ومن ثمَّ ، من السهل تفكيك او تحييد وتحطيم هذه الجواهر المعقدّة والهشّة . والحال ، فإن جوهراً يرّتدُ الى العدم يسبّب إشعاعاً . و « الموجة التحطيمية » ستكون هُنا نافذةً وفاعلةً بشكل خاص . اذن ، لا بد للابيقورية السطحية التي تعزو للروائح والمذاقات قيمة اشتهائية عادية ، لا بد لها من الظهور غيرَ كافيةٍ في ضوءِ الوقائع . فللمتعةِ فعاليةٌ أعمق . ويمكن التساؤل عما اذا كانت نظرية تحليله إيقاعية ناشطة عن الإحساس بقادرةٍ على إتمام النظرية التقليدية ، السلبية تماماً ، المتقّبلة تماماً . عندئذٍ ستكون الإثارة ارجاعاً يتأثر بالتموجات الخاصة الناجمة عن تحطيم الجواهر الخاصة . اذن لا مفرَّ من تحويل كل القيم الهضميّة . فبنظر الابيقورية العميقة ، يعتبر العليّق والكحول الإلهية من الضرورات الأولى . ان هذه الصباغات ، العجيبة تحمل لنا مقادير معقولة من اصول العالم النباتي النادرة والمتعدّدة . فهي مصادرُ طبيٍ تجانسي مثير ، وتقودُنا في اتجاه الحياة المتزايدة . وبالتالي سيلزمُ ان يوضع في اساس الطب الايقاعي التحليلي ، المبدأ : اسباب صغيرةٌ ، نتائج كبيرة ، مقادير صغيرة

انتصارات كبيرة . عندئذٍ يمكن تأسيس فن الغذاء الجزئي ، اذا تجاسرنا على استعمال تعبير وحشي كهذا لكنه يوحي بحياةٍ مجردّة من المادة لحسن الطالع ! فقبل كل شيء ، سيلزم استخلاص السمات الزمنية لهذه التغذية الجزئية . فمع غذاء جزئي ، نبتلع وقتاً وايقاعاتٍ ، بدلاً من ابتلاعنا المادة الجوهرية . فما هذه سوى المناسبة للصيرورة ؛ وما الجوهر المحض سوى زمان متموّج جيداً . وسنتخذ كمبدأ اساسي ضرورة إسناد الإيقاعات المفيدة والعادية ، والعمل على توافق الايقاعات الشخصية والايقاعات التي تفرضُها الطبيعة ، والحفاظ على سمفونية الهرمونات . ولا يجوز ابداً ان يغيب عن ناظرنا ان جميع المبادلات تتم من خلال إيقاعات . وسيتوجب على التحليل الإيقاعي الإحيائي القيام بمهمة تقنين كل هذه الإيقاعات وإناطة الكلية العضوية والجوهرية بالمعنى « السمفوني » .

اذا كان للجواهر المموّهة مفعولات تموجية مميزة ، فبامكاننا ان نفسرّ على نحو بسيط جداً المفعول المباشر لبعض التموجات الاشعاعية . فهذه الشعاعيات الخاصة يمكنها ان تكون البديل من الجواهر الخاصة ، فيقترح بينهيرو دوس سانتوس بحق نظرية امكانية تبدّل التموجات والفيتامينات[1] . « يعتقد بعضُ العلماءِ ، ومن بينهم الاستاذ كنتاني . . . بوجود شحنات كهربائية في الفيتامينات ؛ وهم يشبّهونها بأيونات Ions ويفسرّون عملها بظواهر قد تغدو في السياق البيولوجي ما تكونه الاشعاعاتُ في السياق الفيزيائي . ولقد بينّ روزنكايم وفبستر ان الاشعة ما فوق البنفسجية لها فعل مماثل لفعل

(1) Pinheiro Dos Saintos, loc. cit., t. I., p. 26.

الفيتامين د . فالاشعة ما فوق البنفسجية تقدّم فوتونات من الوتيرة ذاتها التي للأشعة الصادرة عن الفيتامين د الذي تمتّصه هو ايضاً من الشمس » . ومن هنا نقول مروراً ، مصدر التفسير للتحليل الايقاعي للفعل الطبي الذي تؤديه بعض الاملاح الانسولية . ونرى الطابع التبدلي للاشعة والجواهر بكل وضوح . وبالتالي يمكن التأكيد ان بعض الجواهر الكيميائية تحمل للجسم ، ليس مجموعة من الاوصاف الخاصة ، بل جملة من الإيقاعات ، او كما يقول بينهيرو دوس سانتوس ، « جسم من الفوتونات » .

زد على ذلك انه لا شيء يتعارض مع كون مادة طبية تجانسية قد ارتدت شكل التموج المحض ، قابلة لاعادة التكون مجدّداً في شكل مادة جوهرية . هناك بالتالي تبادل صحيح بين المادة والاشعاع وبين الاشعاع والمادة . وربما يكون دور المادة الجزئية مو بكل بساطة استثارة التموجات البيولوجية الطبيعية . وكذلك نفسرُ كون المقدار الشريد الميوعة يُحفظ على نحو اتمّ من مقدار كبير لإنه قادر على استرداد ذاته ، ويمكن ان نصل إلى هذه المفارقة وهي ان المتناهي الصغر الحسن التركيب والايقاع يضيع بسهولة اقل من ضياع المادة الضخمة والجامدة .

ومن الواضح ان بينهيرو دوس سانتوس يضيفُ الى هذه النظرية الايقاعية في النشاطات الجوهرية ، فرضية مقلوبة عن تعينٍ بعض الايقاعات . وهذا مثلاً هو حال الفرضية الطريفة عن التشكل التموُّجي للتوكسينات : هل ان بعض الخلايا تتلّقى ايقاعات ذات وتائر خطيرة ؟ عندئذ يحدث « ارجاعٌ توكسيني »(1) . وبدون تشكّل

---

(1) Pinheiro Dos SANTOS, loc. cit., p. 1.

التوكسينات التي ستقوم بتعيين وامتصاص الطاقة المشعة المضرّة ، فان اضطراباً مَرَضياً صغير من شأنه ان يؤدي الى الموت . ويلي ذلك فرضية كاملة عن العلاقات الجرثومية التي يمكنها ان تشكل قاعدة لعلم الجراثيم التموجي وان تسلّط الضوء التام على المسائل . لكن اذا كان تفسير بينهيرو دوس سانتوس متماسكاً وغنياً فاننا لا نرى انه يقدّم تجارب خصوصية من شأنها المساعدة على الحسم بين التفسير الجوهراني والتفسير التموّجي . ومن ذلك فمن الأهمية بمكان ان تكون الترجمة التموجية لعلم الجراثم الكلاسيكي ممكنةً .

زد على ذلك انه مهما يكن قرارُ المختبر فسوف يبقى من المجهود الفكري لبينهيرو دوس سانتوس ، فضلُ برهانه على الطابع الأولي فعلاً للتموّج في اساس الحياة ذاتها . فاذا كانت المادة الجامدة قد دخلت في حالة تركيب مع الايقاعات ، فمن المؤكد تماماً ان الحياة من حيث اساسها المادي ينبغي ان تكون لها خواص ايقاعية في العمق . لكن الضرورات التحليلية الايقاعية للمسار الحياتي لا تتدخلُ الا من خلال البروز والظهور بشكل خاص . بما أنَّ الحياة هي بالضبط معاصرة للتحولات المادية ، وبما انها ممتنعة بدون التدخل المتواصل للتحولات المادّية ، بدون اللعبة المزدوجة للامتصاص واللا إمتصاص ، فلا مفرَّ من مرورها من خلال طاقة تموجيّة . ولا تبدو الحياة سائرةً وراء تواصل وتوّحد شكلي زمانيّين إلاّ في مظاهرها الاحصائية والإجمالية . وتكون الحياةُ تموُّجاً في مستوى التحولاّت الأولية التي تستثيرُها . وبهذا المعنى ، تنتسبُ مباشرةً إلى تحليل ايقاعي .

يضاف إلى ذلك ، اذا رغبنا في الاستذكار بان المواد الناشئة عن

النشاط العضوي هي بشكل خاص مواد مركبّة وهشّة ، فسوف يؤول بنا الأمرُ إلى اعتبار المادة الحية بانها اغنى في الطوابع ، واكثر تحسُّساً بالاصداء ، واشّد كرماً بالارنانات والترجيعات من المادة الجامدة . فكل التحطيات التي تهدّدُها ، كل الميتات الجزئية التي تقوّضها ، كل هذه المنطقة من العدم والدثور الفاعل الذي يغوي وجودها بألف دوار ، انما هي جميعها مناسبات للتوتر والتموُّج . كذلك هو الأمر بالنسبة الى الاستيعاب والأمتصاص : فكل اكتسابٍ بنيوي يرافقه تنغيمٌ لايقاعاتٍ شتى . وتكون الحياةُ في نجاحاتها مكوّنةً من ازمنةٍ حسنة التنظيم ؛ انها مصنوعة ، عمودياً ، من آناتٍ متراكبة متناغمة بغنىً لا يُحَدُّ ؛ وهي تتصل بذاتها ، افقياً ، من خلال الوتيرة الصحيحة للآنات المتعاقبة الموّحدة في دور . ومن جهة ثانية ، سنشعر بالمظهر الايقاعي للحياة شعوراً أفضل حين نتناولها من قممها ، فندرسها ، كما سنفعل الآن ، النشاط الايقاعي التحليلي للروح هذا المعلّم للتواقيع المتعاقبة السريعة .

III

ربما نستطيع التكرار هنا ، جملةً جملةً ، كل ما قلناهُ بصدد الظهور التموّجي الضروري الخاص بالحياة . وبالتالي تكون الحياةُ الواعية ظهوراً جديداً يتحقّق في هذه الشروط المتميزة بالندرة والعزلة والانفكاك المؤآتية كثيراً للاشكال التموجيَّة ، ففي سيرورةٍ معينة ، كلما كانت الطاقة المستعملة اكبر كان الشكل التموجي لتبادلات الطاقة أوضح . اذن لا بد للطاقة الروحية من ان تكون ، بين الطاقات الحياتية ، الأقرب الى الطاقة الكوانتيّة والتموجيَّة . فهي التي يكونُ التواصل والتوّحد الشكلي هنا الأشد استثناءً وتسطحاً واصطناعاً بالنسبة اليها . وكلما ارتفعت الحياة النفسانية ازدادت تموُجاً . ولدى الانتقال من المادي الى

الروحاني ، من المادة الى الذاكرة ، يمكنُ وضع برنامج كامل للبحوث التي من شأنها ان تساعدنا على الإحاطة باهمية عامل التكرار . وكما ان علاجاً هليو ترابيتيك ، يوجّههُ التحليل الإيقاعي ، سيوصي بحقبات متعاقبة من التلوُّن واللاتلوُّن ، فإن تربية تحليلية ايقاعية ستقيمُ الجدليةَ المنهجية للذكرى والنسيان . فلا يعلم المرء حق العلم الا ما نسيناهُ وتعلمّناهُ سبع مرابت ، هكذا يقول المربّون الحاذقون ، الجيّدون . بيد ان هؤلاء المربين ، الواثقين في الرَّد الطبيعي الذي سيتمكن لحسن الطالع من الدفاع عن الروح في مواجهة اعباء المعارف غير المستوعبة ، لم يشرعوا بعدُ في مساعدة الطبيعة على هذه النقطة فيقدّمون مناهج النسيان ، مناهج « ازالة التلّون » . فلا تكفيها الاجازاتُ . انما هي على مدىً بعيد جداً . وهي غير داخلة في الثقافة ، في النسيج الزمني المدرسي . وهكذا يكونُ الايقاعُ المدرسي مختلاً توازنه تماماً ؛ فهو يناهضُ المبادىء الأولية لفلسفة الراحة . وفي ساعة العمل بالذات ينبغي وضع التموُّج . ويمكن القيام بالرياضيات بواسطة القياس المتري (المترونوم) . وفي ذلك طريقة للإفادة من تذبذبات الظهور الروحي .

لكننا لا نزيد في التشديد على الطابع التموجي المتزايد بكل وضوح الذي ترتديه شتى التجليات وسوف نطرح أولاً مسألة خاصة توّفر مقياساً للمدى البسيكولوجي للتحليل الإيقاعي . انها مسألة العلاقات بين التحليل النفسي والتحليل الإيقاعي . وبشكل اشدّ منهجية من التحليل النفسي ، يسعى التحليل الإيقاعي وراء دوافع الثنائية في النشاط الروحاني . فيكتشف مجدّداً التمايز بين النزعات اللاواعية والمجهودات الواعية ؛ لكنه يوازنُ بشكل افضل من التحليل النفسي ، بين النزعات نحو الأقطاب المتناقضة ، الحركة المزدوجة في الحياة النفسانية .

وعليه يرى بينهيرو دوس سانتوس انه يمكن للمرء ان يتألم من عبودّية ذات ايقاعات لا واعية وغامضة هي افتقارٌ حقيقيٌ للبنية التموجيّة . لكنه ربما يتألم بوجهٍ خاص من وعي عدم إخلاصه للإيقاعات الروحية الرفيعة(1) : « يعلم الانسانُ انه يستطيع تخطي نفسه » وانه بحاجةٍ الى تخطي ذاته فهو يستسيغه. إن الإعلاء ليس اندفاعة غامضة ، بل هو نداء . والفن ليس السبيل الوحيد امام النزعة الجنسية . بالعكس ، باتت النزعة الجنسية نزعة جمالية ؛ فهي داخلة في اعماق جملةٍ من النزعات الجماليّة ، ان بينهيرودوس سانتوس يسندُ تحليله الايقاعي على الفلسفة الابداعية ، على إعلاءٍ فاعل ، جاذب ، بارز ، ابداعي ايجابياً ، يقلبُ توازن الازدواج في التحليل النفسي ويخربط لعبة القيم النفسانية . فلا شك في ان العجز عن تحقيق حب مثالي هو عذاب . وان العجز عن مثلنة حب متحقق هو عذابٌ آخر .

اننا هنا في مواجهة النقطة الأدّق في مذهب بينهيرو دوس سانتوس . فلنحاول اذن ان نوضح كيف يفرض المذهب الابداعي على الحياة النفسانية تمُوجاً عاطفياً . هل يريد الكائن الحي الخروج من حالته ؟ هل يخضع لبارقته الشخصية ؟ لاندفاعه الشخصي ؟ وهل يخاطرُ بجزءٍ من طاقته من قوته ؟ سرعان ما يشعرُ بالحاجة الى الانغلاق على مكسبه ، وإلى الالتحاق بدعم معين ليضمنَ اندفاعته ، كما رأى ذلك جان نوغيه بشكل جيّد . وبالعكس ، هل يقيمُ الكائنَ على صعيد الكسب ؟ ان الايقاعات الرتيبة المميزة لهذه الحالة الأقرب الى المادة ، سرعان ما تنزع إلى الاهتلاك المتزايد فيتراءى الرّد الإبداعي كأنه في آن واحد أشد ضرورةً واسهل منالاً . وبدون رد الفعل هذا ، ربما تسقط صيرورة الكائن في الجمود . ان كل تطور خلاّق ، يُنظر إليه ليس في الموجز

الإحصائي الذي هو تطور الأنواع ، وانما عند الفرد وبالأخص عند الفرد الشاب ، انما هو تطور تموجي ، اشعاعي بالضرورة . فعند الفرد يكونُ التطورُ نسيجاً من النجاحات والضلالات . واما تطور النوع فلا يقدم لنا سوى جملة نجاحات كبيرة نسبياً ، خاصة تقريبياً ، حيث لا يسجّلُ الخطأ الا في جوانب ممسوخة ، مشوّهة . وبالعكس تكون مهمة الفرد ان يخدع نفسه .فليقم كل منا بتجربة علم نفس مشروع خلاّق على نفسه ، فليقم بمحاولة تجديدية ؛ ومهما تكَن متواضعة هذه المحاولة ، وحتى اذا كان المشروع الخلاّق ذاته متواضعاً ، فإن صحة علم النفس الإبداعي التموّجي ستظهر عندئذٍ . فلا يمكن للخطأ ان يستمر بدون اذية ، ولا يمكن للنجاح ان يكون متواصلاً بدون مخاطرة وهشاشة ، ويكون تطور الفرد ، في تفاصيله ، تموجيّاً .

على الصعيد المعنوي الخاص جداً ، يدرك بينهيرو دوس سانتوس ان الكبت يتحـرّر او يصحّـح ، كما يقـول فرويد ، بالاسلـوب التنفيسي . لكن اسلوب فرويد لا يمضي قُدُماً : فهو ينسى مزايا وسمات سيتناولها التحليل الإيقاعي ويخضعها لتحليل تنفيسي دقيق . والحال ، عندما يجري دفع الحادث المكبوت الى الوعي النيّر ، يتراءى للمذهـب التحليلي النفسي ان المريض سيشفى آلياً ، وان الوعي المستنير سيغفـر الهفوة المخفية منذ امد بعيد ، وان « توبيخ الضمير » اللاواعي ستهدّئه الأمنية الواعية . لكن اليس ثمة مجال للتخوف من تكوّن المسار المؤلم مجدَّداً في اللاوعي ؟ اليس هذا المسار المؤلم ، حسب تصريح فرويد ، اضطراباً ناشطاً ، اضطراباً في الصيرورة اكثر منه اضطراباً في الحالة ؟ حتى نكون بعيدين عن تكرار العُصاب ، الذي لا يكونُ دائماً في متناول التأويلات ، سيلزمنا إعداد الوعي لتقبـل منظومـة واضحـة من العفـو

الحميم . عندئذٍ سيمكن الأملُ في عدم تكوّن « تأنيب الضمير » . ان هذه المنظومة من العفو المنهجي والواعي ، الموضوعة في مواجهة آلية الوعي السيء ، المتعارضة مع المخدر السيء للصيرورة المؤذية ، يجب ان تكون القطب الواضح للجدلية المعنوية والأخلاقية . غالباً ما لوحظ ان التحليل النفسي قلل من اعتبار الحياة الواعية والعقلانية للروح . فلم ير الفعل الثابت للفكر الذي يعطي ، بشجاعةٍ دائمة ، شكلاً لما هو غير متشكّل ، وتفسيراً للرغبات والغرائز الغامضة . اذاً سيبقى الاسلوب التنفيسي عملاً طبياً ، يقوم به طبيب ماهر ومتعلّم . انها « عمليّةٌ » يمكنها ان تكون ضرورية في حالات العُصاب ، في التعاسات الكبرى للحياة الإجراميّة . وتحتاج الأخلاق الرقيقة إلى اسلوب تنفيسي مألوف اكثر ، وألطف وأمرن . وهذا ينتسبُ الى التحليل الايقاعي الاجدر من التحليل النفسي في متابعة الإغواءات التموجية . زد على ذلك انه يجب التوّصل الى حياة اخلاقية ايجابية وإلى ابتكار الخير وليس فقط القيام به ، ولذلك لا نجد في هذا الميدان سوى التحليل الايقاعى . فهو وحده قادرٌ على الإحاطة بالثنائية الاخلاقية ، وبهذا الصدد يقول بينهيرو دوس سانتوس[1] : « ان التوازن الايقاعي للإضرار الاخلاقي ولطافة القلب هو قانون الحب وتعبيرهُ بالذات » . بشكل ادق ، وضع التحليل الايقاعي ، تحت عنوان روح الزوجين ، الدافع الأساسي للثنائية الأخلاقية تحت الأضواء . فكما ان الانانية البشرية تعود دائماً إلى رغبة الامتلاك للقيم الاجتماعية ، فان غواية الآخر واكتسابه يظلاّن غاية الأناني . عندئذٍ تعيشُ الشخصية على وتيرة مصالحة وعدوان« تنتقل من قطب الى آخر بين الموقفين المتضادين من

---

(1) Pinheiro Dos SANTOS, loc. cit., t. II; sect. II, p. 12.

إيقاع حب الذات ـ حب الآخر »[1] . وربّما لا يكون غموض التفسيرات مرئياً في أي مكان آخر وبشكل وثيق اكثر مما هو ملحوظ في الأخلاق : فلكل اعمالنا الأخلاقية غايةٌ مزدوجة . للاخلاق رد فعل على الكائن . فانا احترم لكي اكون مُحترماً . واحبّ لكي اكون محبوباً . وافعل الخير لأكون سعيداً . وان مقارنة الأنا والآخر هي المبدأ الأساسي لكل دليل أخلاقي . والانفعال الأخلاقي هو اشد الانفعالات تموّجاً . وتسعى الأخلاق التحليلية الإيقاعية إلى نظم هذا التموّج .

IV

على هذا النحو اخذنا من اعمال بينهيرو دوس سانتوس عدة امثلة عن هذا الاستقطاب الأساسي للحياة الروحية التي تشكل القاعدة الاساسية للتحليل الإيقاعي . واننا اذ نقف عند هذا الحد . لا يمكننا اعطاء فكرة عن غنى الاعمال التي تناولناها . لكن يكفينا الشعور بان كل مجهود حياتي هو مجهود جدلي وان كل فاعلية روحانية هي انتقال من مستوىً الى مستوى آخر أرفع وان كل ظهور يستلزم دعامةً . وربما سنتقبل بسهولة بالغة كل هذه الاستقطابات غير الجديدة في الفلسفة ؛ ولكن لا شك بأننا سنواجَهُ بالاعتراض التالي : باي معنى يمكن حساب هذه التناقضات النفسانية والأخلاقية في عداد فلسفةٍ زمنية ؟ الا يبدو ان الزمان لا صلة له بهذه المسائل وانه يمكن اختصار كل هذه التناقضات في هذه الموضوعة القديمة : الأضداد تتنادى ؟

للرّد على هذه الاعتراضات ، يمكننا ذكر نوعين من الحالات وفقاً لكون الأضداد في حالة صراع حاسم او لكوننا امام تضادات بسيطة ، في

(1) ID., Ibid., p. 6.

الحالة الأولى ، سيكون من الواضح ان زمن حالةٍ ما يشرط توتّرَ وحدَّةَ رد الفعل المعاكس . وان في ذلك ملاحظة طالما اجراها رجال السياسة والمربون ؛ لكن هذه الملاحظة يمكنها ان تتسع وتشمل كل ميادين الحياة . عندئذٍ ، ربما نعترف بان كل كبت شديد يحدِّد تراكماتٍ في الطاقة سيكون لها ردٌّ فعل عاجلاً ام آجلاً . ان مدة رد الفعل الآتي بعد إكراهٍ طويل المدى تكون هي ذاتها طويلة ؛ ممدودة من هنا نشوء ايقاع قوي وبطيء في آن معاً .

ودون التوسع في هذه النقطة التي تفسح في المجال امام تطورات سهلة ، سنطلب من نقّادنا التأمل العميق في الامثلة التي تكون فيها الأضدادُ اقل تباعداً وتعادياً من الأضداد التي فحصها بينهيرو دوس سانتوس . عندئذٍ سيبدو أنَّ التردّدَ ـ وهو شكل محتوم من اشكال التقدم ـ بين هذين القطبين المتجاورين تماماً ، يرتدي هيئة التذبذب المتزايد الانتظام والذي يتساوقُ بشكل افضل فأفضل مع ايقاعات زمنية دقيقة . هكذا ، يكون المقصود ازدواجاً عاطفياً ؟ لا تأخذوا مزيداً من القيم الشهوانية او الاحتدامية الحاسمة . فلنأخذ انواع السأم الخفيفة ، المسكونة برغباتٍ متقلّبة ؛ ولنأخذ ، اذا جاز القول ، غوايات لا تغوي ، ازدراءاتٍ عادية ، انواعاً من الرفض المحبَّب ، من الأفراح الشفهية . . . وهاكم الزّمان قد بدأ يتذبذب ، وكل الثواني تتناقض وتتلون تلونات خفيفة ، باهتة او فاقعة . الاضداد تتزاوج ، ثم تنفصل لتتزوج مجدداً :

رقصةٌ حزينةٌ ودوارٌ دَنِفٌ

هذا هو التناقض الأصغر الذي سنرى فيه تحرُّك التحليل

الإيقاعي . ففي هذه الاحوال من عدم الاستقرار السطحي ، يعتبر الزمان حقاً هو المخطط التحليلي المناسب ؛ فجدلية الوعي والارادة ، المتحرّرة تماماً من المصالح والضرورات ، تنزع إلى ان تغدو زمنّية . وان اسباب مواصلة حالةٍ ما تكون شديدة الضعف بحيث ان حبّ القطع يتأكد ويتثبّت . الزمن وحده يأمرُ في هذه الحياة اللطيفة الحرّة : عندئذٍ كل شيء يشّع .

كما تنتسب الى التحليل الايقاعي الآم طبيعية خفيفة جداً . ويمكننا مثلاً بشيء من التمرين تحريك وجع في الأسنان . ويكفي باهتمام هادىء ان نردّ الاضطرابَ العام الى حدوده الواضحة فنتجنبّ وجع الأضراس العام الذي ملأ الفواصل الزمنية بين الألم المحدد . عندئذٍ ترتدي دوافع الألم المحلي وتيرتها المنتظمة . وبعد التسليم بهذا الانتظام يظهر كأنّه علاج وراحة . فقد رجع الألم فعلاً الى جانبه المحلي لاننا قمنا بتحديد جيّد لجانبه الزمني الصحيح .

لكن هذه التطبيقات المفصّلة التي لاحظنا شخصياً فعاليتّها ، تستلزم مراساً طويلاً جداً . فهي ليست ممكنة أبداً الا اذا اعدنا قبل كل شيء تقديم وتنظيم الإيقاعات الطبيعية الكبرى التي تساند الحياة . واول شيء التنفس ، الوتيرة البطيئة والمنتظمة التي تطبع في العمق ، بعدما نكون قد حرّرناها تماماً من كل هاجس عضوي ، ثقتنا الزمنّية ، الثقة التي نضعُها في مستقبلنا القريب ، وتوافقنا مع الزمن الموزون(1) . ويفترض بفلسفة الراحة ان تدأب قبل أي مهمة أخرى على تحقيق انتظام

(1) Cf. Masson- Oursel, les doctrines indiennes de physiologie mystique, Apud: Journal de Psychologie, 1922, P. 322.

الانفاس . وينضم التحليل الايقاعي إلى تعاليم الفلسفة الهندّية . وينقل الينا رومان ـ رولان الدرس الأول من الفيفكانندا بهذه الكلمات(1) : « تعلّم ان تتنفّس ايقاعياً ، بطريقة منتظمة موزونة ، من كل أنف ، تنفساً متعاقباً ، مركّزاً الفكر على التيّار العصبي ، على المركز . أضفْ بضع كلمات إلى الايقاع التنفسي ، حتى تدوزنه على نحو أفضل ، وتطبعه وتوّجهه . وليغدو الجسم بأسره إيقاعياً ! هكذا نتعلم السيادة الحقيقة والراحة الحقيقية ، هدوء الوجه والصوت . فبواسطة التنّفس الإيقاعي ، يتناسقُ كل شيء رويداً رويداً في الجسم . وكل هباءات الجسم تأخذ الأتجاه نفسه » . بكلام آخر ، إن الايقاعات المنتظمة تعزّز بارنانها وترجيعها المتوازيات البنوية . كذلك يجب علينا التشديد على النصحية بتوفير الايقاع التنفسي بوتيرةٍ صوتية أبطأ . ان الفعالية الكبرى لإيقاعاتٍ كهذه اقل تواتراً هي من وجهة نظرنا فعالية اساسية . فهي تبينّ ان الايقاع الخفيض ، ذا الدوافع البطيئة ، يمكنه مساندة واشتراط ايقاع حاد ذي وتائر أعظم . فاذا اضطرب ايقاع حياتي سريع ، سنعالجه في اطار ايقاع ابطأ ، اسهل على المراقبة ، اسهل على الفرض . لهذا فإن المشية الموزونة بميزان اغنية متفاصلة جداً ، وباتصال كل خطوتين او ثلاث خطوات ، تكون مفيدة جداً لكي ترجع الى التنفس هدأته وانتظامه . ومن شأن استنتاج شديد الواقعية ان يطرح بالحريّ الفعالية المقلوبة وذلك بالتخيل ان الايقاع المتعدّد الوتائر هو الذي يحمل احداث الإيقاع البطيء بوصفها عوارض إضافية . لكن التجارب قاطعة : فالفكر يفرضُ سيادته على الحياة بأفعال قليلة العدد وحسنة الاختيار ، ولهذا فإن فن الراحة يمكنه ان يتأسس على توفير بعض الاستدلالات

(1) Romain-Rolland, la vie de Ramakrishna, p. 295.

الجيدة التوزيع .

زد على ذلك انه ستكون لنا مجابهات وفيرة حين نفحص من وجهة التحليل الايقاعي الايقاعات الواسعة العريضة التي تطبعُ الحياةَ البشرية . فهل يلزم مثلاً التذكير بالأهمية التي تجدُها حياة عاقلة وفكرية في نظم ذاتها وفقاً لليوم ، للمسار المنتظم للساعات ؟ وهل ينبغي رسمُ الوقت المدوز ن تماماً الذي يقضيه انسان الحقول الذي يعيش متوافقاً مع الفصول ، ويكوّن ارضه وفقا لإيقاع مجهوده ؟ من الواضح اكثر فأكثر ان اهتمامنا الطبيعي يزداد بالتكيف الدقيق جداً مع الايقاعات النباتية منذ ان تعرّفنا إلى خصوصية الفيتامينات : موسم الفريز ، موسم المشمش والعنب ، هما مناسبتان للتجدد الطبيعي ، متوافقتان مع الربيع والخريف . ان روزنامة الفواكه هي روزنامة التحليل الإيقاعي ، ففي كل مكان يسعى التحليلُ الايقاعي وراء مناسبات الايقاعات . فهو واثق بأن الإيقاعات الطبيعية تتوافقُ او يمكنها ان تتراكب بسهولة ، يجرُّ بعضُها البعضَ الآخر . وهكذا تحذّرنا من الخطر الذي يمكن ان نعيشه في غير محّله ، حين نتجاهلُ الحاجة الاساسية الى الجدليات الزمنية .

V

لكن تأطير الحياة البشرية في هذه الإيقاعات الطبيعية الكبرى يحدّد السعادة اكثر مما يحدّد الفكر . فالفكرُ بحاجة إلى استدلالات اكثر حدّةً واذا كان لا بد للحياة الفكرية من ان تغدو ، كما نعتقد ، على الصعيد الطبيعي ، هي الحياة السائدة واذا كان لا مناص للزمن من ان يسود الزمن المعاش ، فلا مفرّ من الانكباب على البحث عن راحةٍ فاعلة لا يمكنها الاكتفاء بهبات الوقت والفصل المجانية . ان هذه الراحة

الفاعلة ، هذه الراحة التموجيّة تتوافق على ما يبدو ، في نظر بينهيرو دوس سانتوس ، مع الحالة الغنائية . ان الفيلسوف البرازيلي يعرف ادبنا المعاصر معرفة جيّدة جداً . انه من اتباع كلوديل وڤاليري . فينقاد طوراً بعد آخر للنفس العظيم في العبارة الكلوديلية وللغموض القديم في افكار بول ڤاليري . فهو يحب عند ڤاليري بوجه خاص الفن الأسمى في تحريك الصمت وفي تهدئة الحركة ، وفي المضي من القلب الى الروح ليعود بسرعة من الروح الى القلب .

لكن بينهيرو دوس سانتوس لا يكتفي بهذه الترجمة الفكرية للحياة الغنائية الباردة قليلاً . فهو يفضّل المحافظة على الغنائية في صورة فتنةٍ طبيعية تماماً ، في صورة اسطورة تنمو ، ومركّبٍ يربطنا بماضينا وباندفاعات شبابنا . وبالذات يقترح للتحليل الإيقاعي اسطورةً ، غنائية يمكننا ان نسميها بكل بساطة عقدة اورفيوس . فهذه العقدة ربما تتوافق مع الحاجة البدائية الى الإعجاب والتعزية ؛ فهي تتعّلقُ بالمداعبة الحنون وتتميّز بموقف يُعجَبُ فيه المرء بكونه يعجب الآخرين ، انه موقف قرباني . وهكذا تشكل عقدة اورفيوس النقيضة لعقدة اوديب . وسنرى ترجمات شعرية لعقدة اوفيوس هذه فيا أسماهُ فليكس - برتو غنائية ريلكه الاورفيوسيّة ، التي تعيشُ كأنانيةٍ حبَّ الآخر اللامحدود . فمن اللطافة بمكان ان تحب اياً كان ، اي شيء ، وذلك بعيش المنطلق ، الانبثاق الوحيد لفيض الحنان ! هاكم القاعدة لنظرية اللذة الشهية التي تتعارضُ مع نظرية اللذة المادية ، الموضوعية مباشرةً ، اللذة التي في عقدة اوديب تربط الولد ، بكل اسف ، بالوجه الأول الذي ينحني فوق سريره . عندئذٍ يتقّدمُ التحليلُ الإيقاعي . متعارضاً مع علم النفس ، بوصفه عقيدة للطفولة المستعادة ، للطفولة الممكنة دائماً ،

الفاتحة دائماً مستقبلاً لا متناهياً امام احلامنا . وبالتحديد في مبحث خاص ، يتعارض مع عمل فرويد حول ليوناردو دي مينشي ، يشرعُ بينهيرو دوس سانتوس في تفسير النشاط العبقري لليوناردو بوصفه طفولة ابدية . وعليه لا يمكن للإبداعيّة ان تكون سوى تجديد شبابي دائم ، سوى اسلوب اعجابي منهجي ، يجد عيوناً مندهشة ، معجبة لترى مشاهد مألوفة . فكل حالة غنائية يجب ان تتأسس على المعرفة الحماسية : فقد قال بوب الطفل هو معلمنا . الطفولة هي مصدرُ ايقاعاتنا . ففي الطفولة تكون الإيقاعات خلاّقة ومكوّنة . ولا مناص من التحليل الإيقاعي للراشد لنعيدهُ الى انضباط التحليل الإيقاعي الذي يدين له بازدهار شبابه .

VI

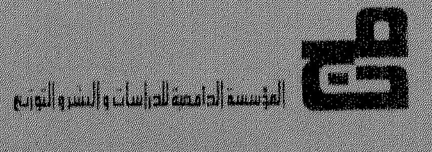
اما فيما يتعلّقُ بنا ، فإننا نريد إخضاع الحالة الغنائية إلى إرصان روحي ، وذلك بابتعادنا عن القوى اللاواعية التي تحصرُنا في عقدة اورفيوس . إذاً في المناطق العليا من الأزمنة المتراكبة ، في الأزمنة المعقولة ، قمنا بالبحث عن اصفى الجُدليّات وبالتالي عن اكثرها جذباً وأثراً .

مثال ذلك اننا لكي نشعر بطريقتنا الخاصة كل شعر ڤاليري ، شرعنا في تطبيق مخططات الجدلية الزمنية عليه . ولا ريب ان في ذلك فرْضاً شديد التجريد ، شخصياً جداً ، سرعان ما توحي به عاداتُ الجفاف الفلسفي ، لكننا مع ذلك اعترفنا بان هذا الاسلوب الإفقاري يحمل بعض الاصداء النادرة جداً ؛ فقد شعرنا بوجهٍ خاص الى اي حد يساعدُنا المخطط الزمني الألتباسي على فكرنة الإيقاع الصوتي ، على

الافتكار في الشعر الذي لا يمنحنا كل فتنته عندما نكتفي بمكالمته والشعور فيه . عندها نلاحظ ان الأفكار هي التي كانت تغني ، ان لعبة الأفكار كان لها لطائفها الخاصة ، وان هذه اللطائف كانت في عمق وجودنا تحرّك همسات مخنوقة . ففي الصوت « الابكم » ، الذي يترك الصور تركض وراء الصور ، والذي يعيش في تراكب شتى التفسيرات ، ندرك ما يمكن ان تكونه حالةٌ غنائية محض روحانية ، محض فكرية . فقد كان الواقع يتبرقع ، يتخفّى في ملابس الاشتراط . فيحل كل تداعي الأفكار التفاصلُ والممكن دائماً بين التفسيرات . وقد كان الفكر يتسلّ في رفض الانتماءات الأكثر ثباتاً . وكان ثمة متعة شعرية في تحطيم الشعر ، في مناهضة فصول الربيع ، في المقاومة للمفاتن كلها . زدْ على ذلك التزهد الابيقوري الرفيع ، لإن اللذة في شكلها الشّرْطي كانت تبدو اكثر تموُّجاً . وهكذا كان الشعر المتحرّرُ من الانقيادات المألوفة ، يغدو نموذجاً حياتياً ونموذجاً فكرياً موزون الايقاعات . وبذلك كان الوسيلة الأمثل لتحليل الحياة الروحية تحليلاً إيقاعياً ، ولجعل الروح يستعيد السيادة على جدليات الزمان .

فهرست

الموضوع	الصفحة


المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع